ثقافة الارهاب والعولمة

حسب الله يحيى



ثقافة الأرهاب

و

العولمة

١

دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات الى
رئيس مجلس الادارة: د. جمال حسن العتابي

العنوان:
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٢٢ - فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar @uruklink.net

ثقافـــة الأرهـاب

و

العولمـــــة

دراســـات نقدية

حسب الله يحيى

الطبعة الاولى ــ بغداد ــ ٢٠٠٤

تقديم :

عولمة الأرهاب

الآن.. في عصر أحدث التقنيات، نعيش في حالة عنف وإرهاب واحتواء كلي للعقل وإرادة الأنسان.

الآن.. وفي الدعوة الملحة للديمقراطية وسعادة أمن الأنسان وسلامته؛ نواجه قمعاً معلناً يتوجه الى ما يسمى بالحرب الوقائية وصدّ عدو وهمي.. في وقت تعكس حقائق ثابتة أن هناك توجاً صارخاً لسلب ثروات الشعوب وإرادتها وجعلها كلياً بيد دولة إرهابية أحادية، تملك المال والسلاح والثروات وتمارس شريعة الغاب في عالم متحضر ومتغير.

وفي ظل حياة مهددة بمخاطر الاحتواء بأسم العولمة والأرهاب بأسم محاربة الأرهاب، تصدر كتب تضليلية كثيرة، الى جانب قلة من الكتب التي تبحث عن حقائق وقيم وتوجهات سليمة..

أمام هذه الأضداد من الكتب التي تبحث في شؤون الأرهاب والعولمة وهدم القيم بدعوى الحضارة وصراعها وتذويبها.. وجدنا أنفسنا نتوجه على وفق معرفتنا وموقفنا الى الوقوف عند إبرز ما صدر من هذه الكتب المؤلفة والمترجمة واهمها التي وجدت الكثير من الأصداء في حياتنا الثقافية والفكرية

والاجتماعية وصل حد الابهار من جهة، وحد الدعوة إلى أحراقها دون الوقـــوف عندها ومراجعة ماورد فيها ومناقشته.

هنا.. نواجه العديد من الرؤى والأفكار، ونعمد الى إقامــــة حــوار معــها بوصفها تحتاج الى وقفة متأنية، ومواجهة دقيقة، وليس الـــى عــرض وتجميــع أكاديمي هدفه تقديم قائمة بالمصادر والمراجع التي لا تستوفي شرطها في الجــدل ومعرفة بؤرة الأهداف، واستلاب العقول.

وهنا.. لا ندعي الكمال لأنفسنا، وإنما نؤكد موقفاً لقراءة ليســـت عــابرة، وعقلاً لا يمر بالأفكار مروراً عرضياً.. وإنما يخوض تجربة من القراءة التي تريد أن تفهم وتدرك وتحاور وتجادل حتى تصل الى ضوء الحقائق الموضوعيــة فـــي عصر يفترض أن يتوجه الى رفاهية الأنسان لا الى إذابة عقله وإرهاب وجـــوده ومواجهته بقانون الغاب.. باتجاه عالم ينشد السلام ويبني إرادة الأنسان آملين أن نوفق في جهدنا المتواضع..

فتح أمريكا .. مساءلة الآخر

مهمة الناقد الأدبي والفني ليست مهمة أحادية معزولة عن العقل والحيلة.. بل أن الناقد الحق، لابد أن يكون في قلب الأشياء لكي يقدم رؤية نقدية شاملة وموضوعية.

من هنا كان الناقد البلغاري الأصل تزفيتان تودوروف يقدم سلسلة من الأفكار والرؤى، إذ قدم في كتابه (نحن والآخرون) تفصيلا عن العرق البشري من خلال نظرة فرنسية، ويواصل مسيرته في دراسة الجذر الإنساني من خلال كتابه (فتح أمريكا / مساءلة الآخر)(*).

يقول مترجم كتاب (فتح أمريكا) الأستاذ بشير السباعي (إن هذا الكتاب ـ دعوة إلى الحرية والأنصاف والتسامح) وإن رأي فالتزبنيامين (أن كل وثيقة من وثائق الحضارة، هي في الوقت نفسه وثيقة من وثائق البربرية..).. صائب، إلا أننا نجد في هذا (الصواب) قدرا من التجني، فنحن لا يمكن أن نعد كل وثيقة بربرية، على الرغم من إدراكنا أن البربرية هنا ليست بمعناها التعسفي بل بمعناها المتخلف، فالبربرية لم تقصد، ولكنها النواة البكر التي تحتاج إلى من يكشف عنها..

(*) فتح أمريكا / مساءلة الآخر، تأليف : تزفيتان تودروف، ترجمة: بشير السباعي، مراجعة، فريال جبوزي غزول، الناشر: دار سينا للنشر، القاهرة، ط١ /١٩٩٢ ـ ٢٨٣ ص . م

من هنا يجيء إهداء المترجم "إلى كل أولئك الذين يؤمنون بـأن البشـرية ليست مدعوة إلى سداد فاتورة (خطيئة أصلية) لم ترتكبها" صادقا مـع أن هـذه الخطيئة في الجهل غير المقصود الذي عاشته أقوام عدة، لم يقصـد بقـدر مـا ألزمت به هذه الأقوام الضعيفة من اقوام غازية قوية.. مثلما فعلت أمريكـا ضـد الهنود الحمر.

وتقول مراجعة الكتاب: فريال جبوري غزول "خمسة قرون مضـت علـى (اكتشاف) كريستوفو كولومبس للقارة (الأمريكية)، لكننـا اليـوم نتحـرج مـن استخدام مصطلح (اكتشاف) لان الكلمة في هذا السياق تتضمن عنصرية وتمحورا أوروبيا ومركزية غربية، فالمكتشف أوروبي والمكتشف هو القارة التـي كـانت حينذاك مجهولة لأوروبا والعالم القديم، ولكنها معروفـة عنـد أهلـها وعـامرة بسكانها الأصليين ذوي الحضارة العريقة مثل الازتيك والأنكا والمايا وغـيرهم، إن (الاكتشاف) هنا هو اكتشاف من وجهة نظر الأوروبي، لا من وجهة نظـر أهـل البلاد القاطنين فيها، وبهذا تكون كلمـة (اكتشـاف) التـي اسـتخدمتها أوروبـا التوسعية حاملة في ثناياها أيديولوجية تضخم الذات الأوروبية، وتغييـب الآخـر اللاأوروبي، فهي حتما تعبير لا يمكن أن يستخدمه سكان القارة الأصليـون، لأن هذا الحدث لم يكن اكتشافا لهم على الإطلاق، وإنما كان اكتشافا من وجهة نظـر الآخر فقط".

وتضيف قائلة: "أطلق على القارة (أمريكا) نسبة إلى أمريكـو فيسبوتشـي (١٤٥١ ــ ١٥١٢) الذي توصل إلى أن هذه القارة، التي ظنها كولومبس امتـدادا للهند، ليست في الشرق الأقصى بل هي قارة أخرى لم تعرف من قبل. وهذا العالم بالنسبة لأهله ومواطنيه ليس جديدا ولا مستحدثا، بل ضارب بجذوره في أعمـاق التأريخ.." ويعد عام ١٤٩٢ "عام اكتشاف الآخر والقضاء عليه كذلك، مثلما هـو

العام الذي سقطت فيه غرناطة وبدأت أسبانيا في التخلي عن أندليستها والتنكر لرافدها العربي والإسلامي، وقامت بترحيل كل من شكل آخر في عرفها..".

وفي (فتح أمريكا) يكشف تودوروف عن الدافع الأخلاقي والتوجيهي في دراسته لتأريخ الغزو الأوروبي للقارة الأمريكية بوصفها سردا وقصا ذا مغزى.

وهذا يعني أن تودوروف لم يبتعد عن حقله الأهم في دراسة السرديات وأبعادها.. ولا اهتمامه في المناهج التاريخية ولا ريادته المعرفية.. بل هو يعمقها ويوغل في تفاصيل جذورها.. حتى أن إهداء هذا الكتاب الصادر في فرنسا عام ١٩٨٢م: "اهدي هذا الكتاب إلى ذكرى امرأة من المايا التهمتها الكلاب" لا يخرج عن تفاصيل الفن القصصي.. بل يعيش في صميمه.

وفي رحلة كولومبوس الأولى في القرن السادس عشر.. كان "اقتراف أوسع إبادة في تأريخ الجنس البشري"!.

فهل يمكن أن تعد مثل هذه (المرحلة) / (اكتشافا) إذا ما علمنا أن إبادة الجنس البشري كان من أبرز أساليبها؟

يقول تودوروف: "لا يوجد من دافع وراء رحلة كولومبوس غير الجشع المبتذل.. كولومبوس، يعرف قيمة الثروة المغرية، وقيمة الذهب خصوصا، وهو على طريق وعد الوصول إلى الذهب يعيد الاطمئنان إلى الآخرين في الأوقات الصعبة".

كذلك كانت هذه الحملة لا تحقق الفائدة لكولومبوس وصحبه، بل لحكام أسبانيا الذين سهلوا او غامروا وشاركوا في (الرحلة)..

أما دوافع (الفتح) فتقوم على : دافع بشري / الثروة، ودافع قدسي، ودافع الابتهاج بالطبيعة.. في عالم تتألف ستة أجزاء منه من اليابسة، ويتألف جزء واحد من الماء..

وتعد (القدسية) هنا من الدوافع التي يراد من خلالها كسب ود الآخر وثقته. في حين تشكل حقيقتها العكس تماما، بل هو دافع موغل في الشر والعدوانية. صحيح أن ما ذهب إليه كولومبوس في كتابه (كتاب النبوءات) / ١٥٠١ ويعترف فيه: "لقد عشت من الصغر حياة البحارة، وهو شيء مازلت أفعله حتى اليوم، وهذه المهنة تقود من يرتبط بها إلى الرغبة في معرفة أسرار العالم". إلا أن معرفة الأسرار.. لا تتطلب إبادة الأخر، ولا الجسارة على قطع جذور الأخر ومحاولة إنبات جذور بخلق لا صلة لهم بالأصل.. وإنما هم غرباء عنه!

وحتى يبعد هذه الغربة، لجأ إلى معرفة الطقوس التي يؤمن بها السكان الأصليون.. فعرف موعد خسوف القمر، وهددهم بسرقته وحدد موعدا للتنفيذ أمام زعمائهم، الأمر الذي آثار الرعب وأقر النجاح!

وتصرف كولومبوس، كما لو أنه كان يوازن فعل الدين والذهب، وبات الأسبان يقدمون الدين ويأخذون الذهب! في حين يعد الهنود في حالة مساواة أمام (الرب) فكيف إذا لم يكونوا في حالة استعداد لتسليم ثرواتهم؟!

في هذه الحالة ولدت فكرة إخضاعهم بالقوة!

.. وهكذا "يحرق الأسبان كتب المكسيكيين حتى يتمكنوا من محو ديانتهم ويهدمون اثارهم حتى يتسنى لهم القضاء على أية ذكرى لعظمة سابقة، إلا أنه قبل ذلك بمائة سنة، خلال عهد ايتزكواتل، كان الأزتيك أنفسهم قد دمروا جميع الكتب القديمة حتى تتسنى لهم إعادة كتابة التأريخ بطريقتهم".

من هنا تبين.. أن محاولة إلغاء الآخر، كانت محاولة قائمة ومستمرة، ذلك أن بقاء تأريخ الأخر، يعني تواصل وجوده، لذلك برزت ظاهرة تغييب الآخر بشتى السبل.. والعمل على قطع جذوره كليا! حتى "تمثل (الفتح الديني) في إزالة صور

معينة من مكان مقدس وإحلال صورة أخرى محلها.. مع الاحتفاظ بأماكن العبادة، وحرق الأعشاب العطرية أمامها".

والهدف الخفي في مسح الآخر، لا ينجز في ما هو معلن.. فالعلن شيء أخر وقد يكون خداعا وفعالا، لكنه من جانبه الخفي.. هو ما كان ينجز.

في حين تذهب إحدى الأساطير إلى أن "الهنود الحمر شعب يجهل الكذب.. وأن الرهبان الأوائل قد رصدوا بشكل خاص سمتين لدى الهنود، إنهم أناس صادقون للغاية، وإنهم لا يمكن لهم أن يأخذوا ثروة الأخر حتى وإن بقيت في الشارع على مدار عدة أيام". والصادق ــ في العادة ــ يعتقد أن الناس كلهم لا يعرفون الكذب.. الأمر الذي يسهل الأمر على الكذب لممارسة دوره بشكل غاية في الاطمئنان!

وعلى وفق مفهوم (أن الحظ يحالف دائما الجسورين) وان المرء "عندما يكون ضعيفا، هو ان يجعل الآخرين يتصورون انه قوي، ولا يدعهم يكشفون الحقيقة.. "كانت مغامرة (فتح أمريكا)! وكان من الأجراءات البارزة.. ان يشطر الرجل بضربة واحدة، والمعاملة وكأن الآخرين مجرد بهائم حتى تم "القاء اربعين من بينهم الى الكلاب" وتم تقطيع الايدي والانوف والالسن والاعضاء الاخرى.. مثلما يقطعون اثداء النساء او أيدي الاطفال واذرعهم وارجلهم لانهم لم يكونوا يمشون بالسرعة التي تمشي بها امهاتهم.. هذا ما فعله الاسبان بالهنود الذين يكرهونهم وسلبهم ذهبهم!

وذلك انطلاقا من الطموح الى السلطة والثراء والسيطرة على قوم يعدونهم ادنى منهم وانهم يحتلون مرتبة متوسطة بين البشر والحيوانات.. وان شحمهم يساعد على علاج جراح الاسبان، وان دمهم يستخدم لري البساتين.. وثمن

المرأة يزيد تبعا لحملها ام لا.. وتجميل الهنديات للحصول على اثمان اعلى! حتى ان استخدام الشعائر اتخذ حجة للتنديد بهم!

ويخلص تودوروف في كتابه إلى أن : "أسبانيا تلعب الدور الأول في حركة استعمار الآخرين وتدميرهم، وهي ليست الوحيدة، إذ يلحق بها عن قرب كل البرتغاليين والفرنسيين والإنكليز والهولنديين، وينضم إليهم كل من البلجيكيين والإيطاليين والألمان".

أن هذا الشخص يؤكد رغبة الآخر في الاستحواذ على مقدرات سواه وثرواته بشتى السبل.. من دون مراعاة للإنسان بوصفه انسان حسب..

إن كولومبوس (١٤٥١ ــ ١٥٠٦) / الإيطالي الأصل ــ كما هو شائع ــ عمل مع الاسبان ومع أقوام مختلفة ودرس الطبائع من أجل الهيمنة على الهنود الحمر.. وظهور أمريكا على أراضيهم وجعلهم في حالة مستضعفة ومهينة وهامشية من بين الأقوام كافة التي استوطنت ما يسمى الآن (أمريكا).. هذا الموطن الذي يعود في أصله الى الهنود الحمر،الذين باتوا شعبا مغلوبا على أمره.. وقد كشف تودوروف حقيقة هذا (الفتح) الأمريكي الذي قام به كولومبوس من أجل السلطة والمال على حساب شعب آمن.. حتى تسود أمريكا وتغتني وتصبح الدولة التي لا ترى للآخر وجودا.. ولا تعد وجوده مسألة تذكر!

نحـن والآخـرون

مـن (نحن) ومن هـم (الآخرون)؟

هذا هو السؤال الأهم الذي يمكن طرحه بعد الانتهاء من قـراءة كتـاب : "نحن والآخرون/ النظرة الفرنسية للتنوع البشري " لتودوروف[*] ذلك ان معرفتنـا بانفسنا، لابد ان تسبق معرفتنا بالآخرين...

كما ان النظرة الفرنسية ـ مهما كانت توجهاتها وطبيعة رؤاهـا ـ تظـل نظرة احادية إلى المجتمعات البشرية الأخرى. مثلما ان لتلك المجتمعـات نفسـها نظرات مختلفة نحو النظرة الفرنسية.. والمجتمع الفرنسي.

وحين يقدم تودوروف النظرة الفرنسية، فانما يقدم معرفته بمجتمع جديـد عليه وقد تعرف عليه ودرسه وعاش تجاربه في مرحلة من حياته.. وليس فـي حياته كلها.. فهل كان موفقا في تحديد هذه (النظرة) التي استنتجها واجتهد فـي تشخيصها؟

---

[*] تزفيتان تودوروف / ناقد ادبي بلغاري ولد عام ١٩٣٩ من اهم كتبه: نظريـة الادب، نقد النقد، مدخل إلى الادب الخيالي، نظرية الرمز، بويطيقيا النثر، اجناس الخطـاب، الرمزية، والتأويل، باختين / المبدأ الحواري، فتـح أمريكـا، مفـهوم الأدب، نحـن والآخرون.

قد يكون قول سيمون فيل "كسب المعارف يقرب من الحقيقة عندما يتعلق الأمر بمعرفة ما نحب وليس بأي حال آخر" ـ كما نقله تودوروف.. مفيد للاجابة. لكن المؤلف يوضح بعدئذ ان كتابه يعتمد في مادته على العقائد وانه "لا يتكلم عن الاعراق بحد ذاتها، ولا عن التصرفات العرقية، وانما عن المذاهب المتعلقة بالعرق، لا يتكلم عن الفتوحات الاستعمارية، وانما عن المبررات التي اعطيت لهم "كذلك يوضح مسألة أخرى.. جاء فيها:

"الافكار وحدها لا تصنع التاريخ، فالقوى الاجتماعية والاقتصادية تؤثر هي أيضا، لكن الأفكار ليست في الوقت نفسه نتيجة سلبية، انها في البدء تجعل الأفعال ممكنة" من دون ان يوضح ان امكانية الافعال مرهونة بحركة المجتمع، وليس هناك من أفعال من دون مجتمع يحركها ويبلور وجودها.

صحيح اننا نرى في "كل الذين لا يشبهوننا نسميهم برابرة" وهو "خطأ كبير وليس من شيء قد نتمناه أكثر من رؤية الناس يتخلصون من هذا التحيز لعاداتهم وسلوكهم.." إلا ان هذا الخطأ.. ليس خطأ عابرا، انما هو موقف عفوي لابد من ادانته في ظل مجتمع بشري متحضر تحترم فيه قيم كل مجتمع وعاداته وتقاليده..

انه على العكس من ذلك.. "اكتشاف الخاص من خلال المختلف" كما يقول روسو، على الرغم من إداركنا مقولة ديدرو في ان الكائن البشري: "لن يعطيك.. إلا ما لا منفعة له به، وسيطلب منك دوما ما هو مفيد له".

إلا ان صيغة العطاء قد تكون متداخلة بالمنفعة، وبالمقابل، وبالحاجات المتقابلة وليس بنفيها عن الآخر، أو استعدادنا الكامل للبذل من دون مقابل! كذلك فإن القوانين وجدت لتنظيم حياة البشر و"القانون السيء هو طبعا ذلك الذي يتعارض مع الطبيعة البشرية" حتى "إذا اردتم ان تكونوا طاغية على الانسان..

مدنوه، اسجنوه على قدر استطاعتكم في اخلاق مناقضة للطبيعة، ضعوا له عوائق من كل نوع".

المدنية هي إذن ضد الطغيان، والطغيان جهل بالمقابل.. لكننا نجد في هذا العصر، وفي بلدان متحضرة من الطغيان والعسف ما تجاوز مجتمعات التخلف بأشواط..!

تودوروف لا يجيب عن هذه الحقيقة، ويغفل عنها!

كما لا يناقش ما ذهب اليه ديدرو من انه: "إذا كانت القوانين سيئة فالاعراف سيئة" فقد تكون الاعراف حسنة، في حين يكون الطغيان سيئا.. وبالتالي يكون هذا السوء مصدرا لسوء القوانين التي وضعها العسف والطغيان لتحقق له المنفعة.. وليس لسواه حسب وانما لقمعه والتنكيل به..

يقول تودوروف : "ان الحيوانات تطيع قوانين طبيعتها بحذافيرها".

ونحن نرى ان ما يسميه (قوانين) غير دقيق، فالحيوانات لا قوانين لها وانما لها طبائع معينة تختلف فيه عن سواها.. في حين أن "القوانين هي السمة المميزة للانسانية" كما يقول روسو.

وإذا ما عرفنا وسلمنا بما ذهب اليه كونت بود في أن هناك ثلاث ملكات انسانية كبرى هي: الذكاء، العمل، العاطفة، وان كل خاصة من الاعراق الثلاثة الكبرى: "الأبيض، الأصفر، الأسود، يحتفظ بتفوق لا يقبل الجدل في واحدة من هذه الملكات فالبيض هم الأكثر ذكاء، والصفر هم افضل من يعمل، والسود هم ابطال العاطفة"

فإننا إزاء ذلك لابد ان نجد في الانسان قيمة عليا يحكمها ويحدد علاقتها القانون.. على الرغم من الكلمات كلها التي تحدد صفة كل امريء.. ذلك ان : "قوانين الوعي التي نقول انها تنشأ من الطبيعة، تنشأ من العرق، ويحمل كل

واحد احتراما داخليا للآراء والاعراف المصادق عليها والمقبولة من حولـــه. ولا يمكن ان يتركها دون ندم ولا ان يطبقها دون استحسان".

بإزاء ذلك يرى تودوروف ان "الانسان محكوم تماما بالعادة وبالمصلحة".

إلا انه لم يناقش مسألة ان تكون هذه العادة وهـــذه المصلحـــة.. عرضـــة للتغيير. فالبيئة والثقافة يمكن ان تشكل في الانسان عادات جديدة ومصالح وقيمـــا مختلفة عن كل ما سبق للمرء معرفته..

ومن هنا نشهد مدى التغير الحاصل لدى انسان ما ينتقل مـــن بيئـــة إلـــى أخرى ومن بلد إلى آخر، ومن صداقة ومعايشة حميمة إلى أخرى.. على الرغـــم من خضوعه سابقا ولاحقا لجملة من الاعراف والقوانين والنظم.

وإذا كانت "الجريمة لا تعد جريمة إذا ظهر انها مفيدة للدولة" : فإن مـــهمتنا تتطلب ان نميز بين جرم وآخر.. فإنقاذ المجتمع من سفاح أو شخص يهدد أمـــن المجتمع وسلامته لا يمكن ان نعده جرما وإنما هـــو بســـالة وبطولـــة وتضحيـــة وفداء..

هذا في ظل دولة ترعى الشعب وتسعى الى تحقيق الرفاهية له. في حيـــن يعد التخلص من وطني باسل له رأي وموقف يختلف فيه عن ممارسة الدولـــة.. جرما يفترض ان يحاسب المجتمع عن اقترافه في ظل دولة وجهت لاقترافه..

هذا التباين في الجريمة والاجرام.. يحسن أن نميزه، وأن نعرف مصـــدره واسبابه.. من القاتل؟ ومن القتيل؟.. حتى يسود العدل في مجتمع عادل ننشـــده.. ولاسيما اننا بتنا ندرك ان "الحضارة تفرض تعايش ثقافات.." ومـــن شـــأن هـــذه الثقافات ان تتعايش وتتحاور لا ان تذوب في نظام العالم الجديد أو ما يسمى بـــــ (العولمة).. فليس من العدل "أن نبدأ بحرمانهم ـــ البشر ـــ من خصوصياتهم مـــن

ذاتيتهم.. اذا اردنا ان ينتظم البشر ضمن الانواع البشرية الأخرى" كما يقول ليفي شتراوس. ذلك ان "الذاتية سمة مميزة ومكونة للكائنات البشرية".

ويميز تودوروف في هذا الجانب بين (العنصرية) و (العنصراوية) في نظرتها إلى العالم والى البشر.. يقول: "العنصرية سلوك قديم ذو امتداد شمولي على الأرجح، اما العنصراوية فهي حركة فكرية ولدت في أوروبا الغربية. وتمتد أهم مراحلها في منتصف القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين".

ونحن نعتقد ان السلوك العنصري مازال قائما وقد تحول إلى توجه فكري يمارس ضد الشعوب والقوميات الصغيرة في انحاء عديدة من بلدان العالم.

صحيح ان: "كل امة ليس فيها قاعدة ولا قانون ولا سيد ولا مجتمع اعتيادي ليست أمة بقدر ما هي تجمع صاخب لبشر برابرة ومستقلين لا يخضعون إلا لاهوائهم الخاصة".. الأمر الذي رأى فيه بوفون.. كلمة (برابرة) تتوافق مع (المستقلين) أي (اللا اجتماعيين).

ان التوافق الانساني يتطلب ممارسة نظم وقوانين وأفق تعاون ووعي.. فلون بشرة لانسان ما "يتعلق كثيرا بالمناخ" وقد تكون التغذية من الاسباب الاساسية للون والقوة والطبع.. على العكس مما ذهب اليه تودوروف من ان "نقص الحضارة ينتج سواد البشرة وانهم يعيشون بطريقة قاسية ومتوحشة، وهذا يكفي لكي يكونوا أقل بياضا من شعوب أوروبا الذين لا ينقصهم شيء، مما يجعل حياتهم عذبة.." في حين أن المنتمين الى الأمة البربرية "سيكونون أكثر سمرة وأكثر بشاعة وأكثر تغضنا من الأمة المتمدنة".

ان هذه النظرة تعد.. نظرة عنصرية، بدليل ان عددا من ابرز العاملين في حقول العلم والمعرفة والابداع هم من السود.. أما البيئة وفي ظروف قاسية..

فإنها قد تكون من صنع البيض انفسهم، وقد تكون موجودة مع ذلك المجتمع الذي يبرز من خلاله عدد من بناة الحضارة الانسانية..

واذا ما راجعنا الاعراق البشرية المختلفة فإننا سنجد ان الاريين والساميين كانوا "يجدون في طريقهم عروقا نصف متوحشة فيبيدونها" وذلك بوصفها "غير قابلة للتحضر، وغير قادرة على التقدم" وانه "ليس لدينا.. مثال واحد عن عشيرة متوحشة سمت إلى الحضارة" وأن "الطفولة الابدية لهذه العروق غير القابلة للكمال" وانها "شعوب كتب عليها الجمود".. او كما يقول رينان: "ليس هناك أي مثال في التاريخ القديم او الحديث عن عشيرة زنجية سمت إلى مستوى حضاري ما..".

يناقش تودوروف هذه المسألة من زاوية محددة تقول: "لقد حكم بكل تأكيد على لغة وثقافة تبعا لمعايير لغة أخرى وثقافة أخرى وهكذا يقدم كل اختلاف وكأنه نقص "أن معايير شعب آخر وثقافته ولغته لا يمكن ان نعممها على البشرية جمعاء وكأنها مسلمات ينبغي على الجميع الانصياع لها والاستجابة لأنموذجها.. في حين أنها تشكلت ضمن بيئة وظرف وتجربة معينة.. وهي ليست شرطا لان تتشكل بالمعطى نفسه وبالحس ذاته الذي تولدت فيه ثقافة شعب دون آخر.. ان التحضر.. ظاهرة مكتسبة، وليست ارثا يتوارثه البشر.. فالانسان الذي يعيش في العزلة وفي مجتمع بعيد عن التحضر، يمكن ان يتشكل على نحو جديد إذا ما وضع في بيئة اجتماعية متحضرة جديدة.. ويمكن ان يكتسب مهارات لم يعرفها ابناء جلدته.

الانسان ابن بيئته وظرفه ومحيطه.. والسعي الى تغييره مرهون بالمتغيرات التي عرفها وسكن اليها وتآلف معها.. وانه ليس من المنطقي ان يظل: "العرق الأبيض وحده ينعم بجدارة الذات الانسانية وكرامتها. في حين ان

على العروق الاخرى ان تبقى ضمن وظائف وسيلية. فلا وجـود لـها بوصفـها عروقا بحد ذاتها وانما فقط كمجموعات ضمن منظور المشروع الامبريالي الـذي اصطفى له العرق الأبيض". يوضح رينان قائلا: "صنعت الطبيعـة عـرق عمـال، وهو العرق الصيني، عرق عمال في الأرض وهو الزنجي، عرق سـادة وجنـود وهو العرق الأوربي" على وفق هذا الفهم.. هل يمكن ان تحـل العـروق مكـان الطبقات؟

اذا كانت الطبقية.. عامل فرقة في المجتمع، فان العرقية كذلـك يمكـن ان تجعل الفرقة بين فئات المجتمع.. مختلفة كذلك. ونحن في هذا الشأن نختلف مـع ما ذهب اليه رينان من انه: "يكفي وضع كمية قليلة من الدم النبيل فـي الـدورة الدموية لشعب لجعله نبيلا" كما ان تحديده "ان لا يضع نصب عينيه اكثر العـروق انحطاطا (السود) فوضعها ميؤوس منه، وهي كما نعرف من جهة اخرى، مكرسة للابادة، بل العروق الوسيطة او الطبقات الدنيا من العرق نفسه:" ان هذه العرقيـة، من شأنها ان تلغي مجتمعات بشرية بكاملها، وتجعل السيادة لمجتمعـات اخـرى وجدت سبيلها إلى التحضر.. في حين بقية الأقوام الأخرى لا تعاني من التحضـر حسب وانما من الجوع والعافية والمعرفة أصلا!

كذلك قد لا نجد في التقنيات الحديثة معنى التحضر، فقد "يسـتطيع البشـر استخدام التقنيات العلمية بدءا بافران الغاز الشديد الفاعلية وحتى القنابل النوويـة مرورا بتنظيم الدولة..".

اذن مسألة التحضر، مسألة تقوم على وعي بالسلوك الانساني المتحضـر، باللافرقة، وبالمساواة والعدالة وحفظ الامن والعمـل والسـعادة والخـير للبشـر جميعهم.. "فالحرب سياسة قوة لا سياسة حق، انها اذن ضد الحضارة" ويحسـن بالقوة، قدرتها على فرض السلام، لا فرض الفناء!

ان تودوروف الذي عرف كونه من أبرز المجددين في الحركة النقدية للأدب في العالم، يقف على مرجعية هائلة للأعراق البشرية ويدرسها دراسة مفصلة في كتابه القيم هذا (نحن والآخرون) كما يناقش عشرات الاعلام الذين درسوا العرق البشري ليصل الى استنتاج مفاده:

"ان افضل نظام في العلم ليس الا النظام الاقل سوءا، وحتى لو كنا نعيش فيه فلابد من اعادة النظر في كل شيء.. يشكل تعلم العيش مع الآخرين جزءا لا يتجزأ من هذه الحكمة". ان حكمة ان نعيش، لا تفترض عدم عيش سوانا.. فالارض تتسع للبشر جميعا، لخيرهم وسعادتهم وحوارهم المشترك، من اجل حياة آمنة جديرة بالانسان.. جديرة بأن نكون (نحن والآخرون) في قلب الحياة وبناء حضارتها وأمنها وسلامة ابنائها..

العرب وتحديات النظام العالمي الجديد

أين نحن من العالم، وما هو الموقع الذي يمكن لنا نحن العرب ان نشغله في هذا الكون ومتغيراته السريعة، وما هو الفعل الأهم الذي يشكل العرب جزءا فعالا مؤثرا ومتأثرا فيه، كيف ننظر الى العالم الجديد، وكيف ينظر الينا ما يسمى (النظام العالمي الجديد)، هل نتحداه؟ هل يتحدانا؟، أنحن في حوار صادق وصريح أمام خطابه أم نحن في صراع ساخن مع هذا الخطاب الضد..؟

هذه الأسئلة وسواها يمكن ان تبرز امامنا ونحن نقرأ كتاب (العرب وتحديات النظام العالمي)(*)

ونتعرف العديد من الأفكار والرؤى والاجتهادات الواردة فيه، والتي يمكن ان يتبلور من خلالها مفهوم او جملة مفاهيم جديدة، لتكون بمثابة الخطوط العريضة والمفتوحة امامنا.

الكتاب يقوم على اربعة أقسام رئيسة هي:

تطورات الرأسمالية العالمية، والهيمنة الدولية الجديدة، والنظام العالمي والنظام العربي، والمستقبل العربي. في مقدمة الكتاب، هناك مؤشرات عدة ظهرت منذ مطلع التسعينات وفي مقدمتها:

(*) العرب وتحديات النظام العالمي /مجموعة من الباحثين/ مركز دراسات الوحدة العربية سلسلة كتب المستقبل العربي (١٦) ط ١/ت١ /١٩٩١ (٣٣٩ص . ك).

١. ظاهرة العولمة الشاملة للميادين كلها.
٢. قيام علاقات دولية جديدة تعتمد على القوة والصراع والامن الدولي...
٣. سيادة الاقتصاد، والتغيرات التي ظهرت في العلاقة بين الاقتصاد والاستراتيجيا.
٤. الازدواجية بين الغنى والفقر عالميا.. بعد ان اتضح تهميش (العولمة) للعالم الثالث، وظهر العالم المتقدم متعاونا مرفها، في حين ظهر العالم المتخلف ممزقا في صراعات عدة مطحونا بالفقر.
٥. انخفاض التوظيف في التصنيع، وهناك تصور لنهاية (مفهوم العمل) أصلا. ولهذا السبب تتوجه (العولمة) الى القيام بمهمة استراتيجية هي (تصدير البطالة) الى البلدان المنخفضة في استثمارها للموارد البشرية.
٦. العمل على اشاعة نمط سائد للتقانة وبناء للقوة والسلطة. ومن اجل هذه (المنظومة) الجديدة تمحور العمل بين: الدولة الرأسمالية، والشركات المتعدية الجنسية، والمؤسسات الاقتصادية العالمية.

وهو محور اقتصادي، يرتبط بمصالح مشتركة، ويجعل اقطار الوطن العربي واقعة تحت: "ضغوط مكثفة ومتصاعدة لاتمام عملية اعادة دمج اقتصاداتها في اطار الاقتصاد الرأسمالي العالمي".

كما دأب الغرب على جعل المنطقة العربية في حالة تجزئة وتخلف.. منذ الحرب العالمية الأولى، وتم التركيز على هذا الجانب بوضع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي للابقاء على هذا التخلف.. ولا ادل على مثل هذا التوجه من ابعاد العراق ــ حاضرا ــ عن التقنيات الحديثة كلها.. عن طريق فرض الحصار عليه وعلى ليبيا والسودان..

في الفصل الاول من هذا الكتاب يكتب الاقتصادي العربي السوري: محمد الاطرش "حول الازمة الاقتصادية الدولية الراهنة" قائلا:

يكشف فالنتين ماسيلوكوف أنه بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، ذهب ضابط في شرطة مينسك للتدرب في أمريكا، وقبل مغادرته منها عائدا الى بلده، حدثه الضابط الامريكي رئيس الوحدة قائلا: "انكم تريدون ان تصبحوا دولة رأسمالية، لذلك فان مهماتكم كشرطة في المرحلة الأولى ان تتغاضوا عن السرقة وتركزوا على انواع الجرائم الأخرى، إذ بدون هذه السرقة لا يمكن ان تنشأ لديكم طبقة رأسمالية لديها امكانات شراء ما كانت تملكه الدولة من منشآت وفعاليات اقتصادية، وحين تتحقق لهذه الطبقة السيطرة ستضع قوانينها وانظمتها التي يتعين عليكم تنفيذها".

هكذا اذن نشأت الرأسمالية، بهذه الوسيلة التي بدأت بسرقة الثروات الوطنية ثم تحولت الى سرقة ثروات الشعوب، حتى تبلور وجودها وصارت تفرض انظمتها مستندة الى قوة مالية عالية، ثم تحولت الى قوة عسكرية واقتصادية تتحكم في تقدم المجتمعات وتخلفها..

ويرى الباحث ان تفكك الاتحاد السوفيتي، جاء نتيجة لـ "سبق التسلح مع أمريكا" وقد يكون الاتحاد السوفيتي محقا في توجهه الى التسلح بعد ان خسر في الحرب العالمية الثانية نحو (٢٠) مليون قتيل وتعرضت ثروته المادية للدمار، في حين امريكا بعيدة جدا عن هذه الخسائر كلها.. وبالعكس صار المجال امامها مفتوحا للتخلص من الكساد والبطالة وتطوير طاقاتها الانتاجية الضخمة وتنميتها..

ويضيف محمد الاطرش قائلا: "لقد تفكك الاتحاد السوفيتي وانهار نظامه بسبب الطريقة التي تم تطبيق البيريسترويكا (اعادة البناء الاقتصادي) والفلاسنوست (العلنية والمزيد من الديمقراطية)".

ونحن نرى ان الانفتاح على الغرب الذي اتبعته سياسة غورباتشوف قد اخل بالمركزية الاقتصادية للنظام الاشتراكي، كما كانت (ديكتاتورية البرولتياريا) تمارس دورها الصارم بعيدا عن التوجه الديمقراطي الذي يستقبل العديد من الافكار والتيارات..

كان هناك بحث عن منافذ متعددة للتعبير ولممارسة الحرية التي ظلت مقموعة.. في حين رأى محمد الاطرش اجراء مثل هذه التحولات تدريجيا.. وما حدث اتسم بالسرعة وتعيين عناصر تكن العداء للنظام الاشتراكي أصلا منعت عن الكتاب مهاجمة النظام الرأسمالي.. بل الدعوة الى كون هذا النظام هو الذي يحقق سياستها الداخلية والخارجية ومثال على ذلك المفكر الامريكي نعوم تشومسكي الذي يكشف السياسة اللامحدودة لامريكا في دعم الكيان الصهيوني والعمل على تفتيت العراق.. إذ نقرأ له خارج بلده، ولم تعد وسائل الاعلام تنشر مقالاته! في حين ظلت سنوات طويلة تسعى الى احتضان الاصوات التي تنتقد السياسة السوفيتية السابقة مثل: سولجنتسين، وباسترناك، وبرودسكي، وسواهم.

ان سياسة الانفتاح الاقتصادي لغورباتشوف سمحت بشراء منتجات الدولة الرخيصة وبيعها من الافراد باسعار باهظة في الخارج، الأمر الذي حقق ارباحا طائلة لهم وأسهم في انهيار الاقتصاد الوطني.. في حين يقول الاطراش:

"ان كل التجارب التاريخية تشير الى أنه عندما يتعرض اقتصاد للكساد تلجأ الدولة الى درجة اعلى من الحماية بهدف تحويل جزء كبير من الانفاق على

الاستيراد الى ان ينفق داخليا، وذلك للمساعدة في وقف تدهور الاقتصاد ومستوى العمالة"..

وجاءت العولمة لتزيد من تفاقم الوضع الاقتصادي وظهور الازمات المالية.. بسبب عدم تكافؤ المنافسة، وتعارض العولمة المالية مع الديمقراطية، وتركيز الثروات لدى القلة..

ويصل الباحث الى نتيجة مفادها:

عدم السماح بحرية نزوح الرساميل، ولا باستثمار الاجانب للاسواق المالية الوطنية، وعدم استقراض المال القصير الاجل لتمويل المشاريع الانمائية، فيما يتعلق بالاقطار العربية فإنه يتعين اعطاء الاولوية للاستقراض من المؤسسات المالية الاقليمية العربية، التي تقدم قروضا بشروط ميسرة، والسماح بالاستثمارات الاجنبية المباشرة.. من دون تجاهل للنفوذ السياسي الذي يمكن لهؤلاء المستثمرين الاجانب ممارسته بالتحالف مع الفئات الكومبرادورية في البلد المضيف لاستثمارات كهذه. وما يتعين على دول العالم الثالث ومنهم العرب، يفترض ان يتحول الى واقع ملموس لا ان يظل مجرد مشروع مقترح غير قابل للدراسة ومن قبل ثم للانجاز. وهذا ما نحن بحاجة الى مراجعته من قبل الاستاذ محمد الاطرش وسواه.

وكتب المفكر الاقتصادي المصري: اسماعيل صبري عبد الله عن "الكوكبة: الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الامبريالية" يقول:

"الناس عادة يتبرأون من المهزوم ويعجبون بالمنتصر... تجذبهم (ايديولوجية السوق) ويتحدثون عن فضل الليبرالية على الناس، ويقتربون بذلك مما قيل عن نهاية التاريخ ولا يناقش الباحث ما هو شائع ومتداول، فقد يكون السلاح والاغتصاب والهيمنة.. أدوات لالحاق الأذى بالآخر.. كذلك نجد

أيديولوجية الراهن لا يمكن ان تكون هي الايديولوجية الصحيحة التي تحقق الرفاهية للمجتمع.. كما ان الأفكار وحوارها وتواصلها وتجددها.. كلها تأكيدات على ان التاريخ لم ينته. اما الاحتذاء بالسلف في مفهوم (ثقف) بمعنى (صقل السيف) ومن ثم الى (صقل العقل)، وجعل المقصود بـ (الكوكبة) هو "التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة او انتماء الى وطن محدد او دولة محددة ودون الحاجة الى اجراءات حكومية"، فان هناك اكثر من التباس في هذه المعاني، فصقل السيف اعداده وتجهيزه وجعله حاداً صالحاً للحرب، اما صقل العقل فهو تهذيبه وملء وجوده بالمنطق والحجة والقيم والمعلومات وهو أمر لا يرتبط بزمن ولا يتوقف عند زمن او مكان، انه توجه دائم نحو عقل راجح يمتلك وعيه وحضوره.. ومادامت هذه مهمة العقل، فإنها لابد ان تتوجه الى السلم، في حين أن صقل السيف توجه نحو الحرب.. فكيف يمكن الجمع بين صفتين هما على الضد من بعضهما؟!

اما: الكوكبة او العولمة او الكونية، فهي مفردات لمعنى واحد يقصد به تذويب قيم الشعوب وافكارها وخصوصياتها ولغاتها كلها، وجعلها خاضعة الى قوى عظمى تملك القوة والتقنية ولها السيادة الكلية على ثروات تلك الشعوب وتوظيفها على وفق الشكل الذي ترتأيه..

من هنا تعد العولمة، تطويراً للرأسمالية التي تعتمد على تصفية حركات التحرير الوطني كلها، وتحويل العالم الى امبراطورية كبيرة تحكمها (امريكا) في ظل لغة موحدة ومعلومات ميسرة تتوجه في نطاق واحد.. وهو (النظام العالمي الجديد) المقترح تنفيذه والزام الشعوب والدول بضرورة الخضوع له!!

واذا كان "مع التراكم الرأسمالي قد ظهر تراكم معرفي ضخم بدأ بالثروة الثقافية في عصر النهضة ثم امتد الى ميادين المعرفة، فتلك القرون الثلاثة افرزت في سبيل المثال كوبرنيكوس وغاليلو في علم الفلك.. وفي العلوم الطبيعية نجد نيوتن ولا فوازييه وفي الفلسفة بيكون وديكارت وصولاً الى فولتير وروسو.. "الخ واذا عرفنا ان : "الطبقة الرأسمالية ليبرالية، بمعنى حرصها على عدم تدخل الدولة في امور الملكية الفردية واوجه استعمالها وتنميتها، اما الديمقراطية بمعنى حقوق الانسان من حيث هو مواطن فحسب فلم تعرف الا في بعض الدول عند نهاية القرن"؛ بازاء ذلك كله.. هل يمكن القبول بصهر في بوتقة اسمها (العولمة)؟

يقول الباحث: "الطابع الغالب لعلاقة اوربا ببقية القارات كان (الاكتشافات الجغرافية) لنهب الثروات الطبيعية وبصفة خاصة الذهب والفضة، وكان التصدير الى العالم الجديد يتركز اساساً حول تغطية طلب المهاجرين الأوربيين الذين استقروا في البلدان المكتشفة".

هذا الهدف تطور الى اتخاذ شكل جديد اتخذ تسمية (النظام العالمي الجديد)! وهو هدف لا يختلف عن سابقه وانما يفوقه بدرجات ويتقدم عليه بخطوات سريعة جداً مستفيداً من التقنيات الحديثة.

وقد نبه ماركس الى ان الامبريالية، نزعة استعمارية احتكارية.. وصح هذا التنبيه في تحول احد اهم اقطاب الامبريالية (امريكا) الى احتكار ليس الارض والثروات حسب وانما الى احتكار البشرية ضمن قطب واحد تحكمه سياسة القوة والهيمنة. ويحدد الباحث في ختام بحثه النظرة الرأسمالية الكوكبية الينا حالاً ومستقبلاً بالنقاط الاتية:

أ: فقدت معظم اقطار العالم الثالث بانتهاء الحرب الباردة كل اهمية استراتيجية، ففي ظل المواجهة العالمية، كانت ارضنا كرقعة الشطرنج اذا خرجت منها دول الغرب سارع اليها الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه، والعكس صحيح... اما الان وقد اصبحت (الحرب العالمية) مستبعدة في المستقبل المنظور لم يعد لدولنا اهمية استراتيجية.

ب. فقدت ملكية الموارد الطبيعية أهميتها وانخفضت أسعارها في بعض الأحوال إلى مستوياتها إبان الكساد الأعظم (١٩٢٩ ـ ١٩٣٤) وذلك نتيجة التطورات الاقتصادية والتقانية في البلدان الصناعية..

ويعنينا بوصفنا عرب أن تدرك أن النفط مادة أولية يسيطر المشترون على سوقها تماماً.. وبعد حرب ١٩٧٣ كنا نهدد بقطع النفط عن الدولة التي تعادينا، وليس أدل على انقلاب علاقات القوى من أن الغرب هو الذي يقاطع بعض الدول المصدرة للنفط ليحرمها من الحصول على عائداته..

ج. لم تحقق التنمية في الخمسين سنة المنصرمة ما كان مأمولاً فيه في معظم دول الجنوب.

د. معونات التنمية الرسمية في طريقها إلى الاختفاء.

هـ . بدأت الشركات الكوكبية تفرض وجهة نظرها في التعامل مع مختلف الدول النامية..

و. موقف الشركات الكوكبية من العالم الثالث.. هو أن المجتمعات العاجزة عن إنتاج غذائها أو شرائه بعائد صادراتها الصناعية مثلاً لا تستحق البقاء، وهي حالياً عبء على البشرية يمكن أن يعرقل تقدمها الذي حكمه دائماً قانون (البقاء للأصح).

ترى كيف نواجه هذا المنظور، ما الذي ينبغي عمله مستقبلاً، ما هي الأسس التي ينبغي على العرب اتخاذها لمواجهة هذه التحديات الخطيرة..؟

هذه الأسئلة وسواها، تبقى مطروحة، باحثة عن إجابات مفصلة.

وننتقل إلى المفكر المصري سيمر أمين وإلى بحثه المعنون: (بعد حرب الخليج: الهيمنة الأمريكية إلى أين؟) والذي يقدم فيه سبع فرضيات تتعلق بـ "النظام العالمي وبحلم تعميم الرأسمالية في العالم كما بالتسلط العسكري والهيمنة اللذين تمارسهما الولايات المتحدة وبدور الأمم المتحدة".

تقوم الفرضية الأولى على أن "توحيد العالم على أساس قوانين السوق الرأسمالية هو حلم رجعي.." ورأى أن الأنهيار السوفيتي أخذ يغوي الأمل في توحيد العالم من خلال السوق.

أما الفرضية الثانية فيحددها الباحث في اعتماد الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤١ على الاقتصاد الحربي، فإذا ما أنهار هذا الاقتصاد تغرق البلاد في أزمة خطيرة لا يمكن تجاوزها إلا إذا أعيد النظر في تركيبة النظام الاجتماعي.. كذلك رأى أن امتلاكها واحتكارها القنبلة الذرية، جعلها تفرض هيمنتها على صعيد الكرة الأرضية بكاملها.

في الفرضية الثالثة يقول الباحث إن هيمنة الولايات المتحدة في مدة ما بعد الحرب كانت ترتكز الى النظم العسكرية التي توصلت من خلال تهديدها بفزاعة الخطر الشيوعي إلى تطور كان بإمكانه أن يضع حداً للهيمنة الأمريكية.. ويشير سمير أمين إلى أن : "قرار شن حرب في الخليج أتخذ عمداً من قبل واشنطن كوسيلة للحؤول دون تشكيل (الكتلة الأوربية) وذلك بإضعاف أوربا (بالسيطرة على النفط الذي ستنفرد الولايات المتحدة بتأمينه من الآن فصاعداً)".

الفرضية الرابعة حددها الباحث بنقاط تتعلق بمحاولات التوسع الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية.. وعودة المشروع الأمريكي ـ الأوربي القديم حول عقد ميثاق عسكري إقليمي إلى الظهور ـ كان يطلق عليه أسم سنتو في الخمسينات والستينات ـ وقد ظهر هذا المشروع بمعطف الديمقراطية والحرب ضد المخدرات!

الفرضية الخامسة تقوم على حقيقة مفادها أن ليس لأوربا وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر الولايات المتحدة فيما يتعلق بدول العالم الثالث وبالمنطقة العربية والشرق أوسطية خاصة.

الفرضية السادسة تؤكد اعتماد إستراتيجية الهيمنة العالمية من الولايات المتحدة، يتم من خلال تأكيد دورها العسكري (المنظم) لدول العالم الثالث المتمردة.

وضمن هذه الفرضية رأى الباحث أنها "كانت حجة كافية لإقناع البنتاغون بضرورة تهديم القوة العسكرية ـ الصناعية قبل ٢ آب ١٩٩٠ بمدة".

والفرضية السابعة والأخيرة هي فرض نظام قادر على ضبط النظام العالمي تحت غطاء الأمم المتحدة.

هذه الفرضيات السبعة التي يثيرها سيمر أمين في بحثه، تلقى الكثير من الانتباه، وباتت حقيقة ملموسة يواجهها العرب بوضوح تام، من دون أن تجد منهم القدرة على مواجهتها بموقف عربي موحد، ولا بعمق استراتيجي مجتهد!

أما القسم الثاني من الدراسات الواردة في هذا الكتاب فقد جاء بعنوان: (الهيمنة الدولية الجديدة) وفيه كتب المستشار القانوني والاقتصادي والمالي اللبناني جورج قرم بشأن "الفوضى الدولية الجديدة" يقول:

"إن التطورات الاقتصادية والسياسية العالمية في السنين الخمس عشرة الماضية تشير بوضوح إلى بروز عوامل جديدة في تسيير السياسية والاقتصاد" مشيراً إلى ظهور فئة من الأثرياء الجدد ذات الثقل الدولي في ظروف سنين معدودة، وتجارة المخدرات والأسلحة، واقتطاع حصة ضخمة من الريع النفطي أو الريع على المواد الأولية، وتفشي عمليات الفساد والرشوة في التعامل بين القطاع الخاص والقطاع العام، وعمليات المضاربة على العملات، وعمليات التهرب من الضريبة.

من هنا ظهرت الرأسمالية المالية المنتصرة التي ترتكز على الفوضى الدولية ــ يقول جورج قرم ــ والتي تشكل نقيضاً لليبرالية الكلاسيكية.. الأمر الذي أدى إلى التخبط الاقتصادي المرافق للتخبط السياسي، وتمادي الدول الديمقراطية الكبرى في التحليل الديني والعرقي للأحداث العالمية.. واصبح سمة رئيسة من الفوضى الدولية الجديدة.

وكتب الحقوقي المغربي إبراهيم ابراش تحت عنوان: "حدود النظام وازمة الشرعية في النظام الدولي الجديد" يقول: "مصطلح **International Order** الذي يعني النظام الدولي يتكون من كلمتين الاولى **International** التي تعني دولي، او بين الدول، اما كلمة **order** فمعناها منتظم وهي ترتبط بكلمة **Organize** التي تعني متناسق الأجزاء، ومنهما يشتق مصطلح **Organicism** العضوانية: وهي النظرية القائلة بأن العمليات الحيوية تنشأ من نشاط الكائن الحي كلها بوصفها نظاماً متكاملاً. ويشير الباحث الى ان فكرة وحدة المجتمع البشري وانتظامه على اساس مبادىء قانونية.. ترجع جذورها الى الفلسفة الرواقية التي ظهرت في اثينا حوالي القرن الثالث ق. م. مبدأها ــ كما دعا اليه زينون ــ أن الناس كلهم مواطنون اخوة تجمعهم حياة واحدة ونظام واحد اطلق

عليه اسم (مدينة العالم) وكانت هذه الدعوة تحرص على وحدة المدن اليونانيـة، كما عرفت القرون الوسطى دعوة اخرى الى وحـدة العـالم المسـيحي، الا ان اخضاع الشعوب لقانون واحد او إمبراطورية واحدة ظلت فكرة خياليـة ينفيـها الواقع..

وانبثقت مجدداً فكرة الدولة العالمية بعد مجيء الديانة الاسلامية بدعوتـها التوحيدية والخضوع لقانون واحد هو الشريعة الاسلامية.. الا ان ظروفاً عـدة حالت دون تحقيق هذه الفكرة.. الا ان فكرة جديدة ولدت فـي اعقـاب الحـرب العالمية الاولى دعت الى تأسيس نظام عالمي جديد على انقاض النظـام البـائد وعلى حساب الدولة المنهزمة في الحرب، ويعد مؤتمـر بـاريس / ١٩١٩ اول مؤتمر مكرس يضع الاسس التي فرضتها هيمنـة المنتصريـن فـي الحـرب، ولاسيما فرنسا وبريطانيا، ضد المنهزمين، المانيا، والنمسا وبلغاريا، وهنغاريـا، وتركيا. واستغلت امريكا الدعوة الى (مبدأ القوميات) لتفتيت الاتحاد السـوفيتي، ومن ثم لتبني مشروع النظام العالمي الجديد..

ويوضح الباحث ان النظام الدولي "يحكم بالقوة بكل تجلياتها والمصالح بكـل تفسيراتها الانانية والضيقة.. اما الشرعية الدولية فكانت اما مغيبة او مجمـدة في دهاليز مجلس الامن والمنضمات الدولية التي تتحكم بها الدول الكـبرى، او يعطى لها تفسيرات لتوظف لمصالح الاقوياء". اما علاقة العرب بهذا العالم، فـان الباحث يشير وبمرارة الى ان العرب كانوا: "ضمن المتفرجين على عالم وتـاريخ وحضارة يصفها الاخرون، اما تاريخهم وحضارتهم فقد توقفـا منـذ سـقوط الاندلس، ومنذ تلك الحقبة والعرب يصنع لـهم الاخـرون تاريخـهم ويكتبونـه لهم..".

امام هذا الواقع المرير ظلت اطماع الدول الغربية ولا سيما امريكا تسعى وبشكل حثيث الى فرض هيمنتها على العرب، في محاولة لاحتوائهم في نظامها الجديد، وبالتالي سلبهم ثرواتهم الاقتصادية وارادتهم الوطنية والقومية.. ولان اطماع امريكا وعدوانها في حالة مستمرة ولا يمكن ان تتخلى عنه، فإن الباحث يرى في ختام دراسته ضرورة "بناء المناعة الذاتية لمواجهة هذه السياسات الإمبريالية الاستعمارية، مناعة استراتيجية قومية شاملة تكون على مستوى التهديد الذي يهدد الأمة العربية في حاضرها ومستقبلها، تلك المناعة التي تواجه وحدة الموقف المعادي الأمريكي ـ الصهيوني ـ الأوربي، بموقف عربي موحد، فالعدو الاستعماري يواجه العرب موحد الموقف، في دعمه الكيان الصهيوني، في مواجهة القضية الفلسطينية، في تحالفه ضد العراق...".

ويجيء بحث المؤرخ الجزائري جمال قنان حاملاً هذا السؤال:

(نظام عالمي جديد أو سيطرة استعمارية جديدة؟) ويجيب عن سؤاله بحقائق تاريخية عدة.. منها أن أمريكا وحلفاءها الغربيين شنوا في سنة ١٩٨٦ حرباً اقتصادية استهدفت البلدان المنتجة للبترول، والتدخل في النزاعات الخفيفة الحدة، والعمل على السيطرة المباشرة على منابع الثروة النفطية التي تختزن منها منطقة الخليج وحدها ثلثي الاحتياطي العالمي.

ويرى جمال قنان: "أن الفوضى السائدة في عالم اليوم، تشكل عنصراً أساسياً في بنية النظام العالمي الجديد، فابقاء العالم في حالة لهث، مشدود الأنفاس، يمثل هدفاً إستراتيجياً للإدارة الأمريكية وشروطاً للمحافظة على مكانتها المهيمنة على شؤون العالم".

إن الإستراتيجية الأمريكية إذن لا يمكن لها أن تعمل على وفق عالم آمن مستقر، وإنما تعمل في عالم يعيش في حالة فوضى وقلق وصراعات.. لتغتنم

الفرصة وتفرض سياستها الاستعمارية وبأسماء براقة... ويحدد الباحث دعائم النظام العالمي الجديد بـ : "القوة العسكرية

الأمريكية، و(الشرعية) الدولية، وتعبئة رأس المال لتحقيق الأهداف الاقتصادية والاجتماعية للنظام العالمي الجديد".

أما الخطاب الإيديولوجي لهذا النظام فإنه يتمحور في: الديمقراطية، وحقوق الإنسان واقتصاد السوق.. وإلى التعبئة الإعلامية و"إحلال ثقافة التسلية محل ثقافة العقل، أي تسطيح مدارك الإنسان والنزول بها نحو البلادة والركود العقلي" واعتماد النظام الجديد ليكون بديلاً عن النظام الاستعماري القديم، أما القسم الثالث من هذا الكتاب، فيتناول: (النظام العالمي والنظام العربي)، وقد كتب فيه الأستاذ ناصيف يوسف حتي ــ أستاذ العلاقات الدولية في الجامعة الأمريكية / القاهرة، دراسة بعنوان: (التحولات في النظام العالمي والمناخ الفكري الجديد وانعكاسه على النظام الإقليمي العربي) جاء فيها:

"النظام العالمي الجديد.. بمثابة شعار أمريكي في فترة نشوة الانتصار، يفتقر إلى أي مضامين واضحة المعالم" إذ إن هذا العالم ــ الذي ظهر بشكل ينم عن ثوابت ــ في حالة فوضى خال من أية قاعدة تظهر هذا التحول.. وعدم وجود ما يدل على أمنه واستقراره.

وجاء بحث الأستاذ أحمد عبد الرزاق شكارة ــ من جامعة الإمارات العربية ــ بعنوان: (الفكر الإستراتيجي الأمريكي والشرق الأوسط في النظام الدولي الجديد) منه: أن الأبعاد العالمية للدور الأمريكي يتضمن أهدافاً عدة هي:

(اقتصاد عالمي حيوي، ونظام أخلاقي دولي، و.. الدعوة إلى قرن أمريكي قادم!) ورأى الباحث أن إغراق الأسواق الأمريكية بالسلع المستوردة، جعل أمريكا أكبر دولة مدينة في العالم، ووصل عدد العاطلين فيها إلى (٢٠) مليون

وأن ١٤% من الأمريكيين يعيشون في أدنى مستويات الفقر، فضلاً عن تراجع التقنيات على الرغم من توسع الإنتاج..

وأشار الباحث إلى انه "لن تحدث تغيرات أساسية أو جوهرية في الاستراتيجيا الأمنية ـ الدفاعية الأمريكية في الخليج العربي" ويعزي السبب في ذلك إلى : "استمرارية المصالح الأمريكية الحيوية" في المنطقة.

ويتناول د. سيار الجميل جامعي عراقي، يعمل أستاذاً للتاريخ الحديث في جامعة آل البيت. الأردن : (المجال الحيوي للشرق الأوسط إزاء النظام الدولي القادم ـ من مثلث الازمات الى مربع الأزمات: تحديات مستقبلية) وقد جاء البحث حاملاً مرجعية تاريخية تتعلق في شؤون عربية وشرق أوسطية وان التحدي العربي لازم محاولات الاختراق الغربي كلها، وذكر أن حصار نادر شاه لمدينة الموصل سنة ١٧٤٣، ونجاح الموصل في صد أعتى هجوم ليس عليها وعلى العراق فحسب، بل على المشرق العربي كله.

وحدد الجميل خمس ركائز أساسية في بناء نظام إقليمي للشرق الأوسط، هي: تكون الكلمة لأمريكا، وتكثيف الوجود الأمريكي في الخليج، وتطوير التعاون العسكري الثنائي بين أمريكا وحلفائها، وتعزيز التعاون المدني والأمني والاقتصادي والسياسي والثقافي بين دول الشرق الأوسط وأمريكا، وبناء منظومة إقليمية نسيجية، وفصل الشرق العربي عن المغرب العربي بهدف رفض أي تكامل عربي..

وقدم الأستاذ محمد عبد الشفيع عيسى ـ الأستاذ في معهد التخطيط القومي / القاهرة ـ دراسة تحمل عنوان: (كشف الغطاء عن الشرعية الدولية الراهنة: من البعد القانوني إلى البعد السياسي) وقد أوضح الباحث التداخل

الواضح بين البنية القانونية والبنية السياسية في التعامل مع ما يسمى بـ (الشرعية الدولية).

وقال: "تحول مجلس الأمن الدولي إلى (حكومة عالمية) لم يفوضه أحد بتشكيلها، إلى قوة فوق ـ قومية، الأمم، في حين لم يجرؤ إطلاقاً على ممارسة هذا الدور (المثالي) طوال مرحلة (التوازن) على امتداد خمسة وأربعين عاماً".

أما القسم الرابع من الكتاب فقد ناقش موضوع (المستقبل العربي).. فكتب الأستاذ جميل مطر ـ مدير المركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل / القاهرة ـ يقول في بحثه المعنون: (مستقبل النظام الإقليمي العربي): "أمريكا هي فعلاً الأقوى عتاداً واستعداداً في تفوقها العسكري، ولكن توجد ثلاثة قيود تحد من هذا الإطلاق في التفوق: الأول/ هو واقع وجود قوى نووية متعددة لديها صواريخ عابرة للقارات، الثاني/ متعلق بالأمور السياسية، فالقوة العسكرية تخدم أهداف أمريكا، الثالث / يرتبط بمستوى التقدم التقاني في عدد من الدول الصناعية الكبرى".

وجاء البحث الثاني في هذا القسم بعنوان: (العرب على أعتاب القرن الواحد والعشرين) وقد كتب فيه الأستاذ محمد حسنين هيكل يقول:

"إن تحدي العصر الجديد، وربما كل عصر، هو تحدي الإدارة في جميع المجالات، والحقيقة التي ننساها أحياناً أن السياسة في صميمها هي علم وفن وإدارة موارد المجتمعات، بما في ذلك الموارد الجغرافية والتاريخية والإنسانية والاقتصادية والثقافية، وبما يحقق لهذه المجتمعات صحتها ورفاهيتها داخل حدودها ومصالحها وأمنها وراء هذه الحدود" كما يرى هيكل أن : "عصور التطور التاريخي تصفها حقائق التفوق والقوة" ويوضح مسألة في غاية الأهمية، تتعلق بحرب الخليج.

يقول: "ان هذه الحرب لم تكن ممكنة لولا أنها كانت حرباً شنتها الصواريخ من حاملات الطائرات الواقفة من بعيد، لأن الشعب الأمريكي ليس مستعداً لخسائر في الأرواح، ثم أنه ليس مستعداً لخسائر في الأموال، وقد كانت هذه الحرب في جزء منها عملية رابحة. تكلفت (٣٦) بليون دولار وحصلت الولايات المتحدة فيها على (٦٤) بليون دولار، بهامش ربح ما يقارب الثلاثين بليون دولار".

ومع هذه الأرباح الطائلة كلها، يحدد هيكل ديون أمريكا بـ (٤) تريليون دولار في أوائل التسعينات، وأن حجم الديون الأمريكية لدى صندوق النقد الدولي واصل إلى سنة ٢٠١٠م إلى درجة أن فوائدها وحدها تزيد على حجم الناتج الإجمالي الأمريكي في تلك السنة، ويشير هيكل إلى أن متوسط الذكاء العام للفرد الأمريكي قد أنخفض بمعدل ٨% عما كان عليه منذ عشرين سنة، وأن معدل دخل الفرد في السنة ٢١ ألف دولار، وتركيز الفقر مقابل تركيز الغنى اصبح حاداً.. وهناك (٣٠) مليون يعيشون على حد الفقر، كما أن (٢١) مليونا دولار من الامريكيين أميون..

وأكد هيكل: "أن الوطن العربي بدد ثروة من أكبر الثروات التي أتيحت في التاريخ لأمة تؤسس نفسها، أو لإمبراطورية تبني قوتها.. ففي ربع القرن الأخير بلغ مدخول الأمة العربية من مواردها المتعددة وأهمها النفط ما يقدر بأربعة تريليون دولار".

هذه الدراسات المعمقة ـ وإن تكررت المعلومات والأفكار الواردة فيها ـ يمكن أن تكون دليل عمل ومؤشرات توجه وترسم خارطة جديدة في الإستراتيجية العربية التي يراد لها أن تتوحد وتعتمد أسلوباً جاداً في التعاون العربي الصادق والمسؤول من أجل مواجهة ما يسمى بـ (النظام العالمي

الجديد) الذي يرسم بالمقابل خطة لاحتواء العرب والهيمنة على ثرواتهم الوطنية واستقلالهم ووجودهم.. وبالتالي تهميش حضورهم وتذويب إرادتهم وجرهم إلى مستقبل مظلم تقوده قوة استعمارية تتقدمها أمريكا..

إن المستقبل العربي مرهون بتحدي السياسة الإمبريالية ـ الصهيونية التي تعتمدها إستراتيجية أمريكا.

العرب والعولمة
صهر الشعوب.. إختياراً !

يثير مفهوم العولمة منذ عقد من الزمان.. الكثير من الأهتمام، ويأخذ قسطاً وافراً من الجدل بين المثقفين في كافة الأختصاصات.. حتى غدا مدار حديث أوساط واسعة من الناس. بسبب سعة الأهتمام بظاهرة العولمة، رأى مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت؛ ضرورةً في إقامة ندوة فكرية موسعة تحت عنوان: (العرب والعولمة) وقد تم نشر وقائع هذه الندوة كاملة في كتاب صدر بالعنوان نفسه*

تدور وقائع الندوة في محورين هما:

١ـ الاطار العام لظاهرة العولمة / مفهومها، وتطورها الثقافي، وعلاقتها بالدولة، ومعالم هيمنة الولايات المتحدة على العولمة، و(اسرائيل) والعولمة.

٢ـ العولمة في الأطار العربي / تقويم نقدي لممارسات العولمة في المجال الثقافي، العولمة والأقتصاد والتنمية العربية، العرب والعولمة: ما العمل؟

وكان لهذا المنظور الواسع والشامل أهميته العميقة في تشكيل رؤية كلية لمفهوم العولمة في ضوء علاقتها.. بالثقافة والاقتصاد والسياسة..

وقد تولى مهمة تحرير بحوث ومداخلات ومناقشات هذه الندوة الاستاذ: أسامة أمين الخولي الذي قدم للكتاب مشيراً الى أن: "الهدف ليس نقد الظاهرة،

بل فهمها وتحليلها وبلورة ردود الفعل المثلى إزاءها.." ونحن نرى أن لا شيء يحول دون نقد أية ظاهرة بعد (فهمها وتحليلها) ذلك أن النقد لابد من إعتماده على أسس وبراهين حتى يتمكن من الوصول الى قناعات صائبة وسليمة.. خاصة وأن يؤكد أن العولمة "تجمع بين التهديدات والفرص" وأن "ركيزة الظاهرة الأساسية إقتصادية في طبيعتها" وأن : "الولايات المتحدة الامريكية هي الفاعل الرئيس في عملية إعادة إنتاج نظام هيمنة جديد تحت شعار العولمة" و "العولمة بمعنى الاستعلاء واحتواء العالم" كما وصف العولمة بأنها: "سلاح خطير يكرس الثنائية وإنشطار الهوية الثقافية الوطنية، السيادة الثقافية تنهار بتزامن ضغوط الخارج مع إخفاقات مؤسسات الداخل" مثلما تقوم ثقافة العولمة على : "أساس إقتصادي علمي تقاني متين".

كل هذا وسواه مما يشير إليه الخولي، أليس جديراً بالنقد.. بل ويشكل حافزاً لأثارة إسئلة جدلية تتعلق بالعولمة بوصفها ظاهرة عصرية سلبية مضادة لآمال وتطلعات الشعوب.. وتوجهاً رأسمالياً تقود محوره الولايات المتحدة الامريكية ضمن ستراتيجيتها لأحتواء العالم والهيمنة ليس على سياسته وثرواته حسب، وإنما صهر ثقافاته في ثقافة أحادية تحمل سمة الثقافة الامريكية تحديداً.

وإذا كان العالم قد شهد في الماضي ما أسماه الخولي: "عولمة يونانية، وعولمة رومانية بل وعولمة عربية أيضاً" فأن هذه التسمية غير دقيقة، ذلك أن إستخدام مفهوم العولمة، يقوم على محور الاحادية، بينما كانت الثقافة العربية مفتوحة على ثقافات العالم وقد ترجمت عنها الشيء الكثير وبخاصة اليونانية والرومانية.. وهذه أخذت الكثير من الحضارات القديمة ومنها حضارة وادي الرافدين..

لقد كنا أمام عالم لا ينغلق على نفسه، وإنما هو في حوار وتفاعل مستمر مع سواه.. الأمر الذي جعل البشرية في حالة تقدم وتطور وإزدهار.

ويتساءل الخولي: "عما إذا كانت العولمة حتمية أم أنها قابلة للأرتداد لأنها تحمل في ثناياها التناقضات التي تقضي عليها؟".

ونتبين من سؤاله.. الشك في حتمية إنتشار العولمة، إلا أن هذا (الشك) غير محسوم بالنسبة للباحث، وكأن (التناقضات الداخلية التي تكمن في العومة) ليست كافية للحيلولة دون إنتشارها.

ثم يتساءل: "هل العولمة بالضرورة الهيمنة؟" و "هل تعني العولمة حقا أن الدولة في طريقها الى الأضمحلال.. أم أنها كيان لا غنى عنه؟"

وبدورنا نسأل: إذا لم تكن هيمنة.. فلماذا يرسم لها أن تكون كذلك، وأن تكون القوة هي العدل والحقيقة والتقدم في نظر امريكا دائماً، ولماذا يكون النموذج الامريكي هو الأفضل.. بينما تبقى شعوب الارض كلها هامشية مقارنة بالنموذج.

إن ما يرسمه محرر هذه الندوة المهمة.. يختلف ويناقض في أحيان كثيرة التوجه الذي خطط له مركز دراسات الوحدة العربية نفسه، الأمر الذي يجعلنا في حالة حذر إزاء البحوث والمداخلات والمناقشات التي وردت في هذه الندوة / الكتاب.

و.. ننتقل الى تحديد مفهوم العولمة كما يراه السيد ياسين / مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام..

فبعد إنهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩ حرص السيد ياسين على القول: "إن هذا لا يعني سقوط الماركسية كايديولوجيا.. بوصفها أنساقاً من القيم التي تتعلق بالتطور الأجتماعي" إلا أننا نجد فرانسيس فوكوياما يعلن في كتابه "نهاية

التاريخ" الى أن العالم قد إضمحل وتوقف عند نهايته وبدأ يعلن عن "صياغة وعي كوني زائف، الغرض منه إثبات أن الرأسمالية ستكون هي ديانة الأنسانية الى أبد الآبدين" ـ كما يقول السيد ياسين.

وأخذ العالم يواجه تحولات سياسية تهدف الى نشر الديمقراطية، وإنحسار القيم المادية، والتوجه الى المعرفية والمعلوماتية وإزدياد فاعلية الأتصالات بشكل عاجل لم يعرفه العالم من قبل.

من هنا صارت العولمة تحمل مفاهيم مختلفة، وذلك لمواجهتها أربع عمليات أساسية حددها السيد ياسين بـ : "المنافسة بين القوى العظمى، والأبتكار التقاني (التكنولوجي)، انتشار عولمة الأنتاج، والتبادل والتحديث".

ينقل السيد ياسين عن السياسي الامريكي جيمس روزناو قوله:

"يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل: الأقتصاد، السياسة، الثقافة، الأيديولوجيا، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج، تداخل الصناعات عبر الحدود، إنتشار أسواق التمويل، تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة".

ويتساءل الباحث: "ماهي العوامل التي أدت الى بروز ظاهرة العولمة في الوقت الراهن؟"

ويجيب عن تساؤله في تأكيد ما ذهب اليه من قبل حول: إنتشار المعلومات، وتذويب الحدود بين الدول، وزيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات.. ويصل الباحث الى نتيجة مفادها: "إن جوهر عملية العولمة يتمثل في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكوني".

ونعتقد أن العولمة ليس هذا هو جوهرها، بل إن هذا هو مظهرها الذي تتزّيا به، ويكمن محورها في إحتواء العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، عن طريق تقديم نموذج أحادي هو النموذج الأمريكي دون سواه.

أما وجهة نظر الباحث في الصراع المستمر بين العولمة والمحلية فيلخص في: "العولمة تقلل من أهمية الحدود، بينما تؤكد المحلية على الحدود الفاصلة بين الحدود، والعولمة تعني توسيع الحدود، في حين أن المحلية تعني تعميق الحدود، وفي المجال الثقافي والاجتماعي، العولمة تعني إنتقالاً للأفكار والمباديء وغيرها، بينما المحلية قد تميل في بعض الأحيان الى منع إنتقال الأفكار والمباديء".

ونحن نرى أن المسألة يمكن رؤيتها بطريقة أخرى، وهي أن حدود أية دولة يعني إستقلالها وسيادتها وهويتها الوطنية وخصوصيتها الثقافية.. وليس هناك ما يحول دون نشر هذه الخصوصية واستقبال خصوصيات الثقافة الوطنية لكل شعب ولكل أمة.. وهو ما يمكن أن تحققه حالات: حوار وتفاعل الحضارات، الامر الذي يجعلها في حالة تجدد مستمر.

وينظر د. صادق جلال العظم الى العولمة بوصفها النظام الرأسمالي الذي يمتلك دائرة الأنتاج وإعادة الأنتاج ذاتها.. إنها عولمة الأنتاج.. خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله..

وبهذا المعنى تصبح العولمة: "رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره" كما يقول د. العظم.

ويأخذ السيد ياسين عن: رولاند روبرتسون قوله: "إن ظهور المجتمع القومي منذ حوالي القرن الثامن عشر، يمثل بنية تاريخية فريدة، وأن الدولة القومية المتجانسة، والتجانس هنا بمعنى التجانس الثقافي والمواطنين الذين

يخضعون لأدارتها، تمثل تشكيلاً لنمط محدد من الحياة وإن شيوع المجتمعات القومية في القرن العشرين هو فعل من أفعال العولمة".

ومثل هذا الرأي مضاد تماماً للحقيقة، فالأقوام المتشابهة لغة وتاريخاً وجغرافية وتفاعلاً اجتماعياً ومصيراً مشتركاً من حقها أن تتوحد على وفق قاعدة عريضة من التفاهم والحوار والمصالح الوطنية والقومية المشتركة.. بينما العولمة محاولة لأذابة الوطن والقومية في بوتقة أحادية وبشكل قسري ولصالح دولة واحدة..

ويخلص الباحث الى أن هناك إتجاهات رافضة للعولمة بكاملها و"هي إتجاهات تقف ضد مسار التاريخ ولن يتاح لها النجاح" وهناك إتجاهات "تقبل العولمة من دون تحفظات بوصفها لغة العصر القادم.. وهي إتجاهات تتجاهل السلبيات الخطيرة لبعض جوانب العولمة" وهناك اتجاهات "تحاول فهم القوانين الحاكمة للعولمة، وتدرك سلفاً أن العولمة عملية تاريخية حقاً، ولكن ليس معنى ذلك التسليم بحتمية القيم التي تقوم عليها في الوقت الراهن، والتي تميل في الواقع الى إعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم، وتقديمه بصورة جديدة.." فهل نعد الدفاع عن الاستقلال الوطني وحق الشعوب في أستغلال ثرواتها الطبيعية والتعبير عن كيانها ووجودها الخاص.. إتجاه مضاد لمسيرة التاريخ؟

وهل يمكن لنا مواكبة الطريق الخطأ.. لمجرد أنه بات شائعاً و(عصرياً) على حساب وجودنا وقيمنا وأفكارنا؟

نعم.. من حق المرء، ومن حق كل بلد أن يأخذ من الآخر ما يفيده ويطوره ويسعده، وأن يتبادل الآخر مع سواه ما هو بحاجة إليه.. إنه التعاون والتفاعل والعلاقات الأنسانية التي عرفتها البشرية على مر الأزمنة.. ولكن هذا لا يعني

أبداً الاحتواء والتذويب والهيمنة. وفي تعقيب على هذا البحث، يقـــول: عمــرو محي الدين/

إن العولمة: "ارتبطت بنشـــوء الرأســمالية الصناعيـــة ونتيجـــة طبيعيـــة لتطورها.. وتعرف الأدبيات الغربية على أنها: "زيادة درجة الأرتباط المتبادل بيـــن المجتمعات الأنسانية من خلال عمليات إنتقال السلع ورؤوس الأمــــوال وتقنيـــات الأنتاج والاشخاص والمعلومات.. وأن عولمة النشاط الأنتاجي تم من خلال آليتين مهمتين هما: التجارة الدولية والاستثمار الأجنبي المباشــر ولقــد لعبــت الــدور الرئيس في هذا المضمار الشركات العالمية المتعدية الجنسية التي إتخــذت شــكل الشركات المساهمة منذ القرن التاسع عشر".

ومثل هذا الرأي يدرك تماماً المسار الحقيقي الذي تهدف العولمة للوصـــول إليه.

وجاء في تعقيب د. سيار الجميل: "إن الدينامية المســيطرة والســريعة فــي حركة الصادرات في مقابل ركود الأسواق القومية، هي التي أوجدت حاجة ماســة الى إختراع مصطلح جديد لمفهوم مخفي في التفكير سمي بالكوننة أو (العولمـــة) الذي كان أول من أطلقه معرفياً عالم السوسيولوجيا الكندي مارشال ماك لوهـان، أستاذ الاعلاميات السوسيولوجية في جامعة تورنتو، عندما صاغ في نهاية عقـــد الستينات مفهوم (القرية الكونية)، وتنبأ بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستخســـر الحرب الفيتنامية، حتى وإن لم تهزم عسكرياً، وذلك لأنها تحولـــت الـــى (حـــرب تلفزيونية) سوف لن تسمح للأمريكان بأن يستمروا في قصفهم فيتنـــام دون أيـــة احتجاجات ودون أي قصاص. وتبنى هذه الفكرة بعده زبيغنيو بريجنســكي الـــذي أصبح فيما بعد مستشاراً للرئيس الامريكي كارتر (١٩٧٧ ــ ١٩٨٠) وعمل على أن تقدم أمريكا، التي تمتلك ٦٥ بالمئة من المادة الاعلاميـــة العالميـــة (نموذجـــاً

كونياً للحداثة) يحمل القيم الأمريكية التي يذيعونها دوماً في الحرية وحقوق الأنسان، وعملها الدائب لأزاحة عصر الأيديولوجيا التي يتبناها السوفيات المعادين للأمريكان.."

هذه الحقائق تكشف عن مدى حرص أمريكا في الخلاص من الايديولوجيا المناهضة للرأسمالية، والعمل بأتجاه إيديولوجي آخر هو إحتواء العالم فيما عرف بـ (العولمة) كـ "فلسفة لا مركزية، وكظاهرة تاريخية لا جغرافية.. واسعة الحدود تخترق كل شيء لكي تصل الى جزيئاته".

ويرى: طلال عتريسي في تعقيبه الى أن العولمة تسعى ثقافياً الى : "توحيد القيم حول المرأة والأسرة، وحول الرغبة والحاجة وأنماط الأستهلاك في الذوق والمأكل والملبس، إنها توحيد طريقة التفكير والنظر الى الذات وإلى الآخر، والى القيم والى كل ما يعَبر عنه السلوك".

ولأجل تحقيق هذا الهدف تسعى الولايات المتحدة إلى إتخاذ سياسة تدعي بممارسة الديمقراطية، في وقت تعتمد فيه سياسة القوة والتقنيات الحديثة بشكل تضليلي لفرض إرادتها.

ويشير: د. عبد الأله بلقزيز الى أن العولمة وبهدف تحقيق أهدافها: "إجتاحت الرأسمالية الصناعية ـ رأسمالية المنافسة الحرة ـ الى الأستعمار، أي إستعمال القوة العسكرية لأحتلال بلدان الجنوب والسيطرة على مواردها، واحتاجت الأمبريالية الى أدوات إقتصادية متطورة لأخضاع البلدان التي إنسحب منها الأستعمار عسكرياً، فكان منها برامج (التعاون) والقروض والأستثمار، وربط إقتصادات هذه البلدان بالميتروبول، أما العولمة فتتجه الى تسليط منظومة جديدة من التشريعات الأقتصادية التي تقر فتح الحدود، وحرية التجارة واهدار نظم الحماية الجمركية وكل ما يسمح لدولة ببسط سيادتها، واستثمار الثورة إياها

على صعيد الأتصال لتسهيل عملية الاخضاع الأقتصادي بمواكبة ثقافيـــة وقيميـــة تنجز عملية التطويع الأجتماعي والنفسي.."

من هنا تبين أن العولمة تعمد الى إتخاذ سبل شتى لغرض تحقيق أهدافـــها.. وإن كانت تظهر الجوانب الأنسانية والمعلوماتية.. على أنها الهدف المعلن.. بينما هناك أهداف خفية.. يتم الوصول اليها في نهاية الأمر.

وفي فصل ثان، يتحدث: أنطوان زملان عن (العولمـــة والتطـور الثقـافي) مشيراً الى أن : "البلدان المتمتعة بأقتصاد صناعي مدعوم بتقدم علمـــي وتقـاني متين هي التي يمكن أن تستفيد من الفرص التي تقدمها العولمة".

نتساءل: ما هي الفائدة التي تجنيها هذه البلدان إذا تـم إحتــواء إقتصادهـا الوطني.. وما جدوى العلم اذا كانت المادة التي يتعامل معها العلم مستلبة أصـلاً.. والعلم لا يتعامل مع الفراغ وإنما مع الحاجات والمستلزمات والمواد والتجارب؟

إن محنة العرب ــ كما نعتقد ــ قائمة على وفرة المواد الأولية التي تحتاجها الصناعة، بينما هناك فقر واضح في التقنيات الحديثة، وعلى العكس من ذلك نجـد البلدان الصناعية تملك التقنيات، في وقت تظل فيه حاجتها الى المواد الخام قائمـة وملحة..

وإذا عرفنا جيداً: "إن تقانة المعلوماتية تحل محل الأنسان بالطريقـــة ذاتـــها التي حلت فيها الآلة محل العضلات البشرية كقوة محركة خــلال القـرن التاسـع عشر" فان الأجهزة الحديثة قد حلّت مكان عدد كبير من البشـــر.. وهـذا يعنـــي بالنتيجة إنتشار البطالة، وقلة الأجور.

هذا الأمر يؤدي الى ظهور تحديات تقنية متطورة دائماً، خاصـــة وأن هنـــاك "٥٠٠ مليار دولار تنفق سنوياً على البحث والتطوير في العالم أجمع" كما يشـــير انطوان زحلان.

ولا نعتقد أن هذا الرقم يحمل دقة علمية، فقد يزيد في البلدان الصناعية، وقد ينقص أو يغيب كلياً في بلدان أخرى مثل بلـدان العـالم الثـالث، وذلـك بسـبب المجاعات وعدم استثمار إقتصادياتها بطرق منظمة وإنشغالها بالحروب في احيان كثيرة!

ويصبح هذا الرأي سليماً إذا علمنا أن: "البلدان الصناعية تنتج بمـا قيمتـه حوالي ٦٠ مليار دولار من الانتاج العالمي للألكترونيـات" الأمـر الـذي جعـل حكومات هذه البلدان "تبحث عن مساعدات ماليـة للصناعـة.. وتأسـيس بيئـة مساعدة تجعل الأنجاز ممكناً".

ويتحدث: نبيل علي عن (ثورة المعلومات) متخذاً من مقولة فوكـو (القـوة معرفة) سبيلاً لمعالجة البحث.. وأنه : "لم يعد العلم اليوم إبداعاً يقوم به فرد، بـل مشروعاً ضخماً لا تقدر على القيام به إلا المؤسسات، إنه عمل مراقـب ومنظـم ومقيد بضغوط السلطة بأنواعها".

وبات من المؤكد أن الاعتماد الكلي بات لصيقاً بالحاسوب الذكي القادر علـى "التحليل والتركيب والأستنتاج المنطقي وحل المسائل وبرهنة النظريـات، وفـهم النصوص..".

إن الامر بات مرهوناً بمدى الدقة والمعرفة في استخدام التقنيـات الحديثـة، بوصفها الطريق الوحيد للوصول الى العالمية.. وما من حداثـة فـي أي مجـال بمعزل عن إرادة الآلة الحديثة واستخدامها إستخداماً كلياً في حقول شتى.

ويكشف الباحث نبيل علي عن حقيقة مفادها أنه: "منذ ما يزيد على ربع قرن أقامت وكالة المشاريع المتقدمة (ARRA) التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية شبكة (أربانيت) للربط بين الجامعات ومراكز البحـوث الأمريكيـة ضمانـاً لأسـتمرار التواصل بين العلماء ومتخذي القرار العسكري والسياسي في حالة حدوث ضربـة

سوفياتية نووية مفاجئة"هذه المعلومة تؤكد بوضوح طبيعة التوجهات الامريكية العسكرية، التي تتخذ من التقنيات الحديثة اداة لتحقيق نفوذها وهيمنتها على قطاعات العلم والمعرفة وبعيداً عن الاستخدامات السلمية.. كما توحي وتضلل الحقائق إعلامياً.. بينما يؤكد زحلان: "إنه لم تؤسس أي دولة عربية منظومة للعلوم والتقانة" مما يجعلها عرضة للاختراق والعدوان في أية لحظة! فضلا عن وجود "٩٠ مليون و ٥٥٢ ألف مواطن عربي أمي لا يعرف القراءة والكتابة بين ١٦٠ مليون عربي.." في وقت: "زاد عدد حاملي شهادة الدكتوراه في الوطن العربي من ٥١,٣٠٠ عام ١٩٨٥ الى ٨٠,٥٠٠ عام ١٩٩٠ وهذا نمو لم يحدث في أي مجتمع آخر سوى الهند، إلا أن المهم ليس هو العدد، ولكن المهم هو كيفية صياغة الذهنية أو التقنية أو البرمجية العربية.." ــ كما يقول د. سيار الجميل.

ولم يتم البحث عن سبل لمعالجة محو الأمية، كما لم يتم التأني في إكتساب الخبرات والشهادات العليا ومنحها عن إستحقاق وجدارة.. الأمر الذي يجعل اعداد الأميين يتضاعف، واعداد غير المؤهلين لنيل شهادات الماجستير والدكتوراه.. جديرون بها وممن لهم القدرة على تقديم مشاريع جديدة جديرة بالأنتباه.

ويرجع جلال أمين ظاهرة العولمة الى خمسة قرون مضت، كما أورد ذلك في بحثه الموسوم (العولمة والدولة) موضحاً أن العلاقات المتبادلة بين الأمم.. تقوم على فكرة العولمة، دون أن يفصل بين (العلاقات المتبادلة) وبين تلك (العلاقات) أو (الاستثمارات) التي تتخذها العولمة الراهنة.. غير أنه يعترف بأشياء جديدة طرأت على ظاهرة العولمة في العقود الثلاثة الأخيرة.. منها:

"إكتساح مناطق مهمة من العالم.. كأوربا الشرقية والصين، الزيادة في تنوع السلع والخدمات، زيادة السكان أدى تفاعل العالم الخارجي والتأثر به، تبادل

المعلومات أصبح هو العنصر الغالب في العلاقـات، هيمنـة الشـركات المتعديـة الجنسيات، تغير في مركز الدولة.." وبات السوق عالمياً والمعلومـات متداولـة.. وأصبحت الدولة أداة بيد الطبقات المسيطرة.

ويندد جلال أمين بفكرة أن الايديولوجيا قد إنتهت الى الأبد. ولم يعد هناك إلا منطق السوق والأقتصاد والتقانة، ضارباً المثل بفلم (الجري وراء الذهب) لشارلي شابلن، الذي يجد نفسه في عزلة تامة مع رجل سمين جشع، الامر الذي يضطـر شابلن الى طهو حذاءه وتناول أكله بالشوكة والسكين.. بينما كان صاحبه ينظـر إليه كدجاجة شهية يريد الأنقاض عليها وأكلها.

هنا تكمن فظاعة رجل الاعمال الذي لا يمتلك أي وازع إنساني يبعـده عـن تصور إنسان يماثله، والنظر إليه كدجاجة.

ويرى جلال أمين في هذه النظرة (حضارة تفكيكية): "فكما يريد الرجـل فـي فلم (الجري وراء الذهب) ان يفعل بشارلي شابلن، تعمد الحضارة الغربيـة الـى تفكيك كل شيء الى عناصره الأولى".

ويفرق الباحث بين تفكيك الاشياء لمعرفتها جيداً، وبيـن إسـتخدامها علـى الأنسان من خلال تفكيكه عن أسرته وامته وبيئته باسم الفرديـة مـرة وبإسـم الحرية الشخصية مرة، وباسم التنوير مرة، وباسم النسوية وتحرير المرأة مـرة.. ذلك أن "تفكيك الأنسان على هذا النحو ينطوي على عملية أشبه بالقتل".

ويؤكد متروك الفالح ما ذهب اليه جلال أمين عن توجهات العولمة.. وجـاء في تعقيبه:

"إن العولمة وسيرورتها، وفي إطار قوتها المحركة (التقانـة / الانتاجيـة / السوق)؛ تعني أن الدولة القومية الحالية، يعـاد تكوينـها أو تفكيكـها لحسـاب الشركات المتعدية الجنسيات (والعملاقة منها تحديداً).

وفي ربطها بين العولمة والتفكيكية، تعقبت نيفين مسعد قائلة: "هو ربط يهدف الى تثبيت النسبية كحتمية وتكريسها كسياسة على نحو يبطل تمرد دول العالم الثالث على إزدواجية المعايير الدولية ويجرده من منطقه.." ذلك أن :"العولمة بقدر ما تولد مشاعر التقارب والتجانس والتشابك بين الثقافات، تعزز مشاعر التمايز والخصوصية وتؤكد الحدود بين هويةٍ وأخرى".

وتجيء هذه الأساليب التي تتخذها العولمة على وفق ما يخدمها ويعزز وجودها، وليس منطلقاً عن رؤية ثابتة واستراتيجية محددة.. إنما هي في حالة لاثبات لها، وتتغير حسب الحاجة.. وبما يعزز مصلحتها ويثبت مكانتها.. ذلك أن :"الولايات المتحدة وجدت دائماً في الحركات القومية الراديكالية تحدياً أساسياً لمتطلبات هيمنتها س والعسكرية، لكنها لم تسع الى محاربتها بأضعاف الدولة القومية، بل باستخدامها أداة قمع واحتواء للحركات المنوه عنها" ــ على حد قول نعوم تشومسكي.

وفي فصل بعنوان (الولايات المتحدة والعولمة / معالم الهيمنة في مطلع القرن الحادي والعشرين) جاء بحث: بول سالم وفيه: "إن تاريخ العالم كاد يصبح قانوناً من قوانين العلاقات الدولية، أنه كلما قامت دولة عظمى وحاولت فرض سيطرتها من طرف واحد، تآلبت القوى الأخرى سريعاً ضدها لتخلق توازناً في القوى ولحماية قوتها وحرية تحركها في وجه تلك الدولة العظمى الصاعدة، ومن الامثال على ذلك تحالف المدن الاغريقية للوقوف في وجه بروز أثينا قوة أغريقية عظمى عقب هزيمة جيوش الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد، ومثلها التحالف الاوربي ضد نابليون في القرن التاسع عشر، والتحالف في وجه المانيا الهتلرية في هذا القرن.."

إلا أن غياب أي نوع من التحالفات الدولية، قد جعل الولايات المتحدة تعتمد سياسية القوة وفرضها على مناطق عديدة من العالم.. ولم تظهر الا أصوات خافتة غير قابلة بما يجري.. وبقدر تعلق الأمر بها الى حد ما.

ومع أن أوربا الغربية تملك إقتصاداً ضخماً، وروسيا تمتلك اسلحة نووية، واليابان متقدمة في صناعتها، والصين والهند بدءاً يظهران بوضع متقدم.. إلا أن هذه القوى جميعاً لا تتخذ مواقف مضادة للسياسة الامريكية.. وذلك إنطلاقاً من مصالح مشتركة..

من هنا إتخذت امريكا السياسة الخارجية لبريطانيا والمانيا نموذجاً.. ويقول المحلل الألماني: جوزف جوني : "إن الولايات المتحدة إتبعت سياسة خارجية مقتبسة عن طرازين أوربيين هما طراز بريطانيا الأستعماري وطراز المانيا البسماركية، فالسياسة البريطانية الخاصة بأوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر قامت على منع قيام أي قوة تتحدى بريطانيا...

كما إعتمدت عنصراً من الاستراتيجيا التي اعتمد عليها بسمارك بعد عام ١٨٧١ للحفاظ على ثورة المانيا.. وتقوم استراتيجية بسمارك على إقامة علاقات تعاون قوي يجمع القوى الكبرى لقد إتخذت امريكا من السياسة البريطانية في بناء اسطولها البحري نموذجاً، وتجاوزته الى امتلاك الفضاء، واعتمدت سياسة وقائية مع البلدان التي لها شأن في علاقات مشتركة مثلما فعلت المانيا بسمارك.. مما أتاح لها فرصة نشر قواتها في أماكن مختلفة من العالم.. ولم تعد امريكا تجد خصوماً لها إلا في العالمين العربي والاسلامي.. يقول الباحث بول سالم:

"هذا التحدي العربي الاسلامي له خطره الخاص على الولايات المتحدة لسببين:

لأنه قائم في منطقة توجد فيها أضخم الأحتياطات النفطية اللازمة للقرن الحادي والعشرين..

هذا التحدي قائم ضمن سياق تحدٍ إيديولوجي ديني متماسك وله اصداؤه في أرجاء العالم الاسلامي في أفريقيا وآسيا، وكذلك في المجتمعات الاسلامية المهاجرة في اوربا وأمريكا الشمالية وهذا هو السبب الذي يكمن في تأكيد صامونيل هانتنغتون في كتابه (صراع الحضارات) وسواه من الكتابات اللاحقة على خطر العامل الديني على السياسة الامريكية، ودعوته على مواجهة هذا (الخطر) والعمل على تصفية الحضارات (القديمة) واعتماد الحضارة المغربية / أحادية الجانب وفرضها على كل الشعوب والأمم بوصفها هي الحضارة الوحيدة الجديرة بالبقاء.

وإذا علمنا أن "الاقتصاد الأمريكي يعاني من عجز في الميزان التجاري يصل الى (١٦٠) مليار دولار في السنة، وديوناً دولية متراكمة تربو على الألف مليار دولار" فضلاً عن : "إستمرار وجود الفقر في الولايات المتحدة مقرون بنظام تربوي ضعيف يهدد بتوسيع الطبقات المحرومة" كلها عوامل مؤثرة في رسم سياسة امريكية تسعى للهيمنة على ثروات الوطن العربي.. والتحكم ليس في سياسة الدول بل في غذاء العالم كذلك.. ويشير سهام الفريح نقلاً عن تقارير نشرت في لندن الى أن: "أمريكا سوف تسيطر على (٦٥) بالمئة من إنتاج الغذاء في العالم في السنوات العشر المقبلة، مما يعني أن الأقتصاد الأمريكي سيستفيد بما يصل الى (٤٠٠) مليار دولار سنوياً من مبيعات الغذاء في العالم، وذكرت التقارير أن ست شركات امريكية عملاقة ستتحول الى شركات ضخمة مسيطرة تتحكم بأنتاج الغذاء في العالم وتطويره وتجارته، مما يعني أن بعض دول العالم

ستفلس لأن إقتصادها يعتمد على تجارة الحبوب، وسترتفع البطالة فيها الى مستويات عالية".

ازاء ذلك نتبين حقيقة الهيمنة كما نقلها إلينا حسام عيسى في مناقشته نقلاً عن معهد فرديناند بروديل في الولايات المتحدة مشيراً الى:"السيطرة على التجارة الدولية، وعلى خلق نواة القانون الدولي، وعلى أدوات تطبيق هذا القانون الدولي (أو العنف المشروع) أي القوة العسكرية.." مما يعني أن الرأسمال الامريكي هو الذي يسعى للهيمنة على التجارة الدولية.. في حين يعرض ايديولوجيو العولمة يعني: "عولمة رأس المال وانفصاله الكامل عن الدولة القومية".

تحت عنوان: (اسرائيل والعولمة / بعض جوانب جدلية العولمة إسرائيلياً) يقدم الباحث الفلسطيني عوني بشارة بحثه.. موضحاً: "إن العولمة لا تعني بالضرورة زوال الأمة أو تقادمها، بل قد تعني تفتيتها الى قوميات عدة تطالب بدورها بدول قومية، أي بالتحول الى أمة تقوم على أساس إثني أو على أساس عضوي هو وحدة أصل مزعومة" ويضيف الباحث قائلاً:

"لقد كان المشروع الصهيوني بمجمله مشروعاً إستيطانياً علمانياً عقلانياً في وعيه الذاتي.." وأن "النخب معولمة ثقافياً، أما ثقافة الطبقات الدنيا فهي معولمة إستهلاكياً" وهو ما يعني أن الكيان الصهيوني كان يعمل على كافة المستويات ويتوجه في خطابه الى طبقات اجتماعية مختلفة بهدف الوصول الى أهدافه.

ويضيف الباحث قائلاً: "إن إسرائيل تعتبر محطة الأنترنت الثانية حجماً بعد الولايات المتحدة في العالم" الأمر الذي يجعلها تستخدم هذا الجهاز الحيوي الحديث في نشر أهدافها على نطاق واسع.. فضلاً عن الاختلاطات بين (اليهودية والصهيونية والدولة) التي : "شكلت وحدة شيطانية واحدة لا فرز فيها".

وجاء في بحث د. محمد عابد الجابري: (العرب والعولمة) / العولمة والهوية الثقافية، تقييم نقدي لممارسات العولمة في المجال الثقافي:

"هناك ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية، لشعب من الشعوب: الهوية الفردية، والهوية الجمعوية، والهوية الوطنية (أو القومية)" وقال: "لا تكتمل الهوية الثقافية، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن والأمة والدولة" بينما تعني العولمة ـ حسب د. الجابري ـ :"تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله، وهي تعني الآن في المجال السياسي منظوراً إليه من زاوية الجغرافيا (الجيوبوليتيك) العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه، هو الولايات المتحدة بالذات، على بلدان العالم أجمع ولتحقيق ذلك عمدت امريكا احتواء السوق العالمية، واستخدام السلطة الاعلامية والمعلوماتية التي تنفرد في أحدثها تقنية.. وباتت العولمة: "إرادة للهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية فهي طموح الى الأرتفاع بالخصوصية الى مستوى عالمي: العولمة إحتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني".

من هنا تصبح الحاجة الى العالمية.. ضرورة، كونها تعني التفاعل والتعاون والحوار.. بينما العولمة تعني إختراق الآخر ومصادرة وجوده وخصوصيته.

ويشير الجابري الى أن باحثاً امريكياً ـ لم يحدد إسمه ـ حصر الاختراق الثقافي الأمريكي في خمسة أوهام هي: الفردية، الخيار الشخصي، الحياد، الطبيعة البشرية التي لا تتغير، غياب الصراع الأجتماعي.. الامر الذي يجعل الخطاب الاعلامي الامريكي خطاباً: "يكرس ايديولوجيا الفردية المستسلمة" حتى

تصبح العولمة في نهاية الأمر: "عالماً من دون دولة، من دون أمة من دون وطن، إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية".

وفي بحث عبد الأله بلقزيز تساؤل يقول: "عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟" جاء فيه: "إن العولمة الثقافية تجري وتتوسع في مناخ من التراجع الحاد للثقافة المكتوبة على صعيد الأنتاج والتداول.. ثقافة ما بعد المكتوب، ثقافة الصورة.. الصورة هي اليوم، المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد، نظام إنتاج وعي الأنسان بالعالم".

ومعلوم أن الصورة المقترنة بالكلام.. هي الأكثر تأثيرا في المتلقي، بوصفها تخاطب عدة حواس إنسانية في وقت واحد؟

وبهدف مواجهة العولمة الثقافية ترى د. فهمية شرف الدين في تعقيبها أنه:
"لن يكون بالأمكان حماية الثقافي إلا بفصله عن السياسي. الثقافة ليست وحدة الجماعة السياسية، بل هي وحدة الجماعة الاجتماعية والتي تطمح لأن تتحول الى وحدة الجماعة السياسية عندما تسمح الممارسات السياسية بذلك، فالأنتماء السياسي فعل إرادة، مبني على الأخذ والعطاء، أما الأنتماء الثقافي فهو أكثر إلتصاقاً بالأفراد والجماعات".

ونحن نرى أن الثقافي لا ينفصل عن السياسي، فكلاهما يعبر عن وعي وعن موقف.. والثقافة جدل مع الآخر.. كما السياسة، وقد بدأ إختراق العولمة ثقافياً / مظهراً، بينما هو في حقيقته إرادة سياسية واقتصادية واجتماعية.. ذلك أن القاعدة الثقافية تتسع لأحتواء كل المعارف.. وليس بوسعنا مواجهة العولمة وسواها من الرؤى والافكار والظواهر دون إستيعاب لجملة معارف وليس لمعرفة ثقافية أحادية مجردة من سواها..

وتناقض د. فهمية شرف الدين نفسها عندما تشير بعدئذٍ الى أن: "الثقافة تصبح أداة صالحة للممانعة عندما تكون مبنية على نجاحات في ميادين الأقتصاد والسياسة" وهو رأي يختلف تماماً عن ما ذهبت إليه من قبل.. فالثقافة هنا وعي بالاقتصاد والسياسة، وليس بوسعها أن تعمل بعيداً عنهما.. وإلا تحولت الى مجرد كلام مفرغ من المحتوى.

كما تقع في إشكال آخر تقول فيه: "مطلوب من العولمة أن تكون في إتجاه واحد ثقافياً هو الأستقبال وليس الأرسال" ونعتقد أن الاتجاه الواحد في هذا المعنى إرسالاً وليس إستقبالاً.. ذلك أنه الأستقبال يعني القبول بالرأي الآخر، بينما الأرسال رأي أحاديٍ وهو ما تنادي به العولمة..

إنه الأرسال الذي تصفه الباحثة بـ :"الرأسمالية المتوحشة التي تضع الفرد قبل المجتمع، وللأستهلاك قبل الانتاج، والمال قبل القيم.." وهو ما تدعو إليه العولمة.. فكيف لمثل هذا الارسال أن يستقبل ما يختلف معه كلياً؟

ويوضح منح الصلح في تعقيب له قائلاً: "ليست العولمة إستعماراً يطرد من البلاد بالمظاهرات كما طرد الأستعمار القديم.. ولكنها ظاهرة تفوق علمي بالأساس، فكل متفوق علمياً عضو طبيعي في العولمة، وشريك غير قابل الطرد منها. إن وجود العلم عند المهزوم في الحرب العالمية الثانية، كما في حالة المانيا واليابان، أبقاهما قائمتين على الأقدام، فالثقافة العلمية الحية والفاعلة في المجتمعات هي الوحيدة التي لا تهزم" ومعنى هذا أن :"العولمة لا يمكن أن تؤخذ من الخارج، فأذا أردنا أن نحد من إنتقائيتها فعلينا أن نخوض الصراع من داخلها".

مثل هذا الرأي يؤكد حقيقة أن يكون الأنتباه أهم ما يشغلنا ونحـــن نســـتقبل التقنيات الحديثة وندرك جيداً طبيعة توجهاتها.. إذا لم نفلح في التفوق علمياً على مبتكري العولمة..

وهذا لا يعني أن "المطلوب من الشخص الأفريقي ليكون متمدنـــاً أن يتخلـــى عن هويته وثقافته القديمة، ذلك أن الحضارة الغربية حضارة طارد تسعى لأزاحـــة كل ملامح الثقافة القديمة، وحدث الشيء نفسه وبصـــورة أبشـــع فـــي الولايـــات المتحدة الأمريكية التي لم تكتف بالقضاء على الثقافة الهنديــــة، ولكنـــها أبـــادت الهنود أنفسهم" ـــ كما ذكر محمد فايق في تعقيبه ـــ وهي فضلاً عن ذلك: "ثقافـــة الغالب" ـــ حسب محمد ابراهيم منصور ـــ ومن المؤسف أن: "المغلوب مولع أبـــداً بتقليد الغالب في زيه ونحلته وسائر عوائده" ـــ حسب عبد الرحمن بن خلـــدون ـــ خشية من بطشه أو إعجاباً به!

ولم يكن هانتنغتون ليؤكد (صراع الحضارات) أو صدامها مستقبلاً، لـــو لـــم تبرز حضارات تتنافس مع بعضها ومن أهمها: (الغربية، السلافية، الارثوذكســـية، الاسلامية، اليابانية، الهندوسية، الكونفوشيوسية، اللاتينوأمريكية) مشـــــيراً فـــي الوقت نفسه الى أن "أخطر الثقافات على الغرب همـــا: الصيـــن الكونفوشيوســـية والاصولية الاسلامية ويقدمهما على أنهما العدوان اللــــــدودان" ـــ حســـب كريـــم بقرادوني في تعقيبه ـــ متجاهلاً وحدة الحضارة العربية ـــ الاسلامية وما قدمتـــه للأنسانية من قيم وأفكار ورؤى ومعارف شتى..

ويتحدث إسماعيل صبري عبد الله في بحثه الموسوم: (العولمـــة والأقتصـــاد والتنمية العربية) قائلاً: "في السبعينات (مع حرب ١٩٧٣) كنا نهدد بخطر تصديـــر النفط لمن يعادينا، وأن الأوبك تمكنت من مضاعفة سعر النفط عدة مـــرات خـــلال فترة لا تزيد على سبع سنوات، أما في التسعينات، فالغرب يعاقبنا بخطر إســـتيراد

النفط من بعض أقطارنا، وعندئذ ندرك كيف أصبح (الذهب الأسود) سلاحاً فاسداً كتلك التي زوّد بها فاروق جيش مصر في حرب ١٩٤٨"

إن متغيرات الزمن، والخطر المحدق بنا من كل الزوايا، يتطلب إستيعاب السياسة التي يتوجه إليها الغرب من خلال ظاهرة العولمة، وكيف يوظف التقنيات الحديثة في استراتيجيته الراهنة.

واذا عرفنا أن : "الكونغو (زائير) من أغنى بلاد العالم بالموارد الطبيعية الثمينة والمتنوعة وشعبها من أفقر شعوب الارض"؛ فأن حقيقة الأمر يعود الى أن: "السوق يسيطر عليها المشترون لا المنتجون" ـ حسب اسماعيل صبري عبد الله.

هنا تكمن أزمات الوطن العربي والبلدان الغنية بالثروات الطبيعية.. بحيث باتت تلك الثروات تشكل تهديداً مباشراً على أمنها واستقلالها.. بدلاً من أن تكون مصدر سعادة ابنائها. ويعرض: محمد الأطرش في ختام هذه الندوة.. حلولاً ضمن إجابته عن سؤال: ما العمل؟

وخلاصة هذه الحلول:

"إقامة منظومة أقليمية عربية، إنشاء سوق عربية مشتركة، التنمية العادلة والمستقلة، الديمقراطية" ونرى أن العمل على وفق ما ذهب إليه الاستاذ محمد الأطرش تظل في ضمير الأمنيات المستحيلة التنفيذ، بسبب تشابك العلاقات والمنافع والنفوذ.

وإذا كانت هذه الندوة التي أعدت كتاباً مرجعياً مرموقاً هو الأهم في ميدانه، إلا أن عدداً مما ورد في الكثير من طروحاته قد تردد على اكثر من باحث واكثر من معقب واكثر من مناقش..

وكان من الممكن الأشارة الى ذلك.. إلا أن الأمانة العلمية والوثائقية إقتضت ــ كما نعتقد ــ الاحتفاظ بنقل كل ما ورد في الندوة، ويمكن لمثل هذه المناقشة أن تثير هذه المسألة وسواها عند الحديث عن (العرب والعولمة)• .

هذا الكتاب / الندوة. طراز رفيع المستوى مما نحتاج إليه ونكتشف جوهر قضية ساخنة مثل (العولمة) مثار الجدل القائم والمستمر.

• العرب والعولمة / بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي.

منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت / ط ٣/ ٢٠٠٠م ٥١٥ صفحة من الحجم الكبير.

سلوك الأقوياء في الغابة!

اتسع الحديث عن العولمة، وشمل جوانبها كلها، حتى غداً التكرار سمة العديد من الدراسات اللاحقة، وبات التنديد بها شعوراً معاكساً ومناوئاً.. إلا اننا نجد في الدراسة التي قدمها الأستاذ حكمة عبد الله البزاز: (العولمة والتربية)(*) دراسة متأنية في باب لم تتم مناقشته بتفصيل.. على الرغم من تكرار ما ورد عن العولمة هنا وهناك.. ذلك ان الباحث لابد ان يعتمد المرجعية، ويقدم اضافته في الشأن الذي تخصص بدراسته.

ومنذ البدء، وتحت العنوان الأساس لهذه الدراسة التي ضمها كتاب بعنوان (العولمة والتربية) يضع البزاز عنواناً آخر يحدده بـ(السؤال الصعب) ولا نعرف وجه الصعوبة فيه، ولماذا تحول البحث الى سؤال، وهل تكمن الصعوبة في طبيعة البحث أم في العملية التربوية.التي تتوجه نحوها العولمة؟

ان العولمة تطور لاحق للنظام الدولي الجديد الذي طرحته الولايات المتحدة الأمريكية، تطور للنظام الرأسمالي، لما بعد الرأسمالية التي تريد ان تحظى بالسيادة على العالم، على قطبية أحادية تمتلك القوة والتقنية معاً.. وتم اعتماد

(*) العولمة والتربية، تأليف: حكمة عبد الله البزاز، منشورات دار الشوون الثقافية العامة/ بغداد ٢٠٠١، عدد الصفحات: ٨٩ صفحة متوسطة.

"قواعد القانون للضعفاء أو سطوة القوة للأقوياء، والعقلانية الاقتصادية والاصلاح الاقتصادي للضعفاء وقوة الدولة وحق التدخل والسيطرة للاقوياء "كما يقول مفهوم جومسكي ـ نقلاً عن البزاز ـ ذلك ان "طبيعة النظام الرأسمالي وفلسفته تقوم على أساس الربح محلياً وخارجياً، وهذا يعني بأبسط صورة، العمل على استغلال الآخرين محلياً أو (وطنياً) وتأمين الأسواق الخارجية والمواد الأولية رخيصة الثمن في الوقت نفسه بكل السبل المتاحة ومنها (الشريرة أو غير الانسانية)" ومثل هذا الاتجاه، يعني سمة العمل الرأسمالي، سمة التربية فيه وطبيعة بناء المجتمع فيه، إذ ينشأ الفرد وهو منشغل بالربح بدلاً من الانشغال بالقيم النبيلة والتوجهات الانسانية العميقة.

هذا المجتمع الرأسمالي، يرسخ حضوراً تربوياً يبنى وجوده على أن القيمة الأكثر أهمية في حياة الانسان، هي مقدار ما يحققه من أرباح، وهي مصدر سعادته ونجاحه وتفوقه عن غيره، وعن المجتمعات الأخرى. وعندما يترسخ مثل هذا الطموح في حياة الانسان، يصبح ظاهرة سلوكية، عامة، والخروج منها يعد خروجاً على نمط (حضاري) تم التخطيط له.. ليكون مناراً تقاس به المبادىء والقيم والاجتهادات المتقدمة التي تؤكد فاعلية العطاء.

واذا كانت العولمة قد اخذت مفهومها من "ثورة المعلومات والتكنولوجيا والاعلام والسيطرة" وانها "تغني التعاون العالمي والتواصل بين البشر من اجل أهداف انسانية" فأنها في جوهرها، تتخذ من المعلومات والتقنيات الحديثة واجهزة الاعلام. سبيلاً من سبل انتشارها وتأكيد وجودها وانتشارها.. بحيث يظهر بمظهر جمالي ينشد الرخاء للجميع والعلم والمعرفة وسبل الحياة الأفضل.. لكن حقيقة أمر العولمة تكمن في الهيمنة على خيرات الشعوب، وتحقيق ادارة مركزية عالمية تحركها الادارة الأمريكية تحديداً.. وهي بعكس العالمية أو الاممية التي

تقدم ستفهماً عميقاً للانسان في كل زمان ومكان.. وايجاد حوار مشترك وتجارب انسانية متفاعلة في كل ميادين الثقافة والابداع.. بينمـــا نــرى "العولمـــة رديفـــاً للامركة، وان تقنعت باقنعة العلم والتكنولوجيا، فنموذج الثقافة الامريكي يتســـلل خلال الشركات عابرة القارات الى كل مكان في العالم وينتشر بسرعة مذهلـــة، لا لانه بالضرورة اصلح النماذج ولكن كما ينتشر وباء في العالم. الأمركة هنا أمركة مظاهر الحياة كلها، سواء في الاقتصاد ام العلوم ام القيم والتقاليد وحتى الالعـــاب والفنون والامراض والجوع"

وفي الايديولوجية "تقف العولمة في وجه الايديولوجية الاخرى كالقوميـــة والماركسية والثيوقراطية" ونحن نرى ان العولمة تحتويها وتذيبها، الى جانب نقد ذكي يسعى لالغاء وجودها، والاعلان عن موت الايدلوجيا، وربط العنصرية بالفكر القومي، وادانة المعطى الاخلاقي العميق للدين عن طريق ربطه بالارهـــاب تـــارة والتخلف والخرافة والسلفية تارة اخرى.. والعمل على ربط فكرة العولمة بكل مـــا هو جديد وغير مألوف في حياة الانسان.. وان هذه الجـــدة يـــراد بـــها تخفيـــف الاعباء عن الانسان بينما هي تسعى لاستغلاله وسلبه طاقة التفكير وطاقة امتلاكه الثروات التي من شأنها ان تحقق له الحياة الفضلى.

صحيح ان العولمة "ظـــاهرة ديناميكيـــة لـــها ثلاثـــة محركـــات: الـــثروة التكنولوجية وثروة الاتصال واقتصاد السوق "كما تقول فريدة النقـــاش.. وانـــها "تنادي في ظاهرها بالربط والتوحيد بين البلدان والحضارات والتغلب على العـــامل الجغرافي لتجعل من العالم قرية واحدة غير انها في باطنها عامل صراع ودعـــوة الى سيطرة القوي على الضعيف والغني على الفقير وسبيل لهيمنة قوى عالميـــة كبرى محدودة" كما يقول د. عبد الله عبد الدائم..

لكن العولمة تتجه نحو سوق عالمي، سوق يتحكم بالحاجات والاسعار والثروات.. انها "الوجه الآخر للاستعمار، وان ما يفعله الامريكان هو تذويب لثقافات الشعوب" كما يقول روجيه جارودي.

ان العولمة ـ يقول البزاز ـ "اغتصاب فكري يمحو الذاتية ويشكك في الخصوصية"، وان "ادواتها الاقتصاد ومادتها جغرافية العالم" ويحدد البزاز معالم الصورة بـ :"سقوط الاعتبارات الاستراتيجية وهيمنة الطموحات التجارية "انها طراز جديد من الاقلمة المتسعة التي تريد بسط نفوذها على اكبر قدر ممكن من الشعوب والأمم، بحيث تصبح جميعاً واقعة تحت نفوذ القطب الواحد ممثلاً بأمريكا..

ويرى المؤلف ان الآثار الاجتماعية والثقافية للعولمة هي الأكثر خطراً من سواها، بوصفها تقوم بأحداث متغيرات في قوى الانتاج عبر الثورة التكنلوجية مما قد يتناقض مع قيم المجتمع، الى جانب انتشار البطالة واهمال البعد الاجتماعي والانساني، واضعاف النفوذ الاجتماعي بإزدياد تفككه وخلق عادات واعراف اجتماعية جديدة وتقليص الخدمات الاجتماعية واضعاف مسؤولية الدولة وخلق حالات من التوتر الاجتماعي والغربة واللامبالاة لدى الافراد..

اما آثار العولمة الثقافية فتكمن في:

صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها هي ثقافة السوق.. وتجاوز الثقافة النخبوية وسلب الخصوصية الثقافية وقطع صلة الاجيال الجديدة بماضيها وتراثها وتدمير الحضارات والتأكيد على النجاح الفردي وتجميع الثروة وتهميش الثقافة الوطنية واحتكار الصناعة الثقافية ووضع حالة من الابهار امام المثقف الوطني وانهاء رقابة الدولة على وسائل الاعلام والتخلي عن الخصوصيات الوطنية..

وفي تقديم المؤلف لمثل هذه الآثار، نجده يحرص على دور رقابي للدولة.. وهو الاجراء الذي لا يروق لعدد كبير من المثقفين والمفكرين والمبدعين، بوصف حرية التعبير هي الرافد الأكثر أهمية الذي يرقى بالفكر والابداع.. والثقة الممنوحة للمثقف هي التي تجعله يحرص على تحمل المسؤولية بدلا من ايجاد سلطة رقابية عليه.. الدولة في اجراءاتها واهمالها.. العامل المساعد والسلبي في انتشار ثقافة هامشية مسطحة بدلا من الثقافة المعمقة والمتخصصة والأصلية. كذلك فان الحرية الفردية ليست وهماً كما يعتقد المؤلف، انها على العكس من ذلك.. منطلق ابداع وعمق وعي وارادة فكر ودراية ثقافية مزدهرة.

وفي آثار العولمة على الجانب الفلسفي، يرى البزاز ان العولمة "لا ترى في الانسان سوى مصدر للربح" و "تكوين انسان جديد ذي هوية عالمية" وانها تدعو الى "عدم التعامل مع كل ما هو غيبي او ديني الا اذا كان في هذا منفعة لهم"واذا صح ان العولمة تعد الانسان مصدر ربح، فان تكوين هوية عالمية نهج قد يلقى قبولاً آسراً للكثيرين، في حين تريد العولمة لا عالمية الافق الذهني بل خنق هذا الافق وتضيقه حتى يكون في بوتقة احادية.. ومثل هذه المسألة كان على المؤلف تميزها وتوضيحها.. حتى يتبين القارىء عالمية الهوية من عولمة الهوية.. لا سيما وانه قد فرق بينهما في مطلع الكتاب..

اما رفض ما هو غيبي، فهو طموح كل عقل نير، والغيبي غير الروحي.. الغيبي ميثولوجيا غير قائمة على عقل مادي، والروحي هو جوهر الاحساس الداخلي والقناعات الصحيحة للانسان..

الغيبية.. وهم، ومثل هذا الوهم المفرغ من ارادة المادة، هو ما تريده العولمة. اما في الآثار السياسية للعولمة، فان البزاز يرى ان العولمة تكريس الانقسام بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وان السيادة للنظام العالمي، واضعاف

قوة الدولة على العمل الجماعي، واستغلال قيم الصداقة بين الشعوب.. اضعاف الدولة المعادية وتهميش دور النقابات والجمعيات، وتوجيه الاهتمام بالاحداث الدولية اكثر من الاحداث القومية وتقوية المنظمات غير الحكومية وتشجيع الصراعات الداخلية وظهور ردود افعال القوى المحافظة والاصولية..

ونحن نرى ان العولمة تحتوي الدول الغنية والفقيرة معاً، الغنية بما تمتلكه من ثروات والفقيرة بما تملكه من قوى بشرية يمكن استثمارها في مشاريع كبيرة ينفذها نظام العولمة لزيادة نفوذه وارباحه معاً.. والدولة القطرية هنا مهمشة لا نفوذ لها، وضعف الدولة من ضعف في مبادئها وقيمها وارادة ابنائها.. من هامشية الانسان فيها وعدم تماسك المجتمع بسائر طبقاته وقومياته ودياناته.. وهذا لا يعني التوجه الى التحفظ والاصول الجامدة التي لا تتفاعل مع متغيرات العصر.. بل ان الامر على العكس من ذلك، يتطلب المزيد من التطلعات الجديدة.

وفي الآثار التقنية نجد ان العولمة تحقق طفرات تكنولوجية عالية وثورات اقتصادية وتقليل استخدام الايدي العاملة واعطاء ادوار قيادية للتقنيات العالمية، والكشف عن مصادر المعلومات لكل الناس والربط بين البلدان والحضارات والتغلب على الابعاد الجغرافية.. ومثل هذه المظاهر قد تشكل عامل جذب الى العولمة بينما تتضح حقيقة ان هذه التوجهات مجتمعة يراد بها زيادة النفوذ

والهيمنة والاتصال السريع بهدف احتواء كل شيء على عجل.. انها تقنيات لخدمة سياسة العولمة، وليس العكس.. وهو ما كان على السيد الباحث توضيحه ومناقشته.

وفي حديثه عن الآثار التربوية للعولمة يلحظ البزاز:

اتساع الفجوة بين الدول المتقدمة الغنية والدول النامية والفقيرة، وزيادة البطالة والامراض والحروب والتكتلات والاقتصادية والمنافسة في الاسواق

والتفجر السكاني وعدم كفاية الغذاء، والتحكم في الامن الدولي، وتحدي البيئة الطبيعية والبشرية، واستمرار النمو الصناعي...، وسيطرة الاتجاه المادي والنفعي الدولي، والتقدم السريع في الحياة العملية، والتقنيات، وتلوث البيئة وتجزئة الدول..

وجميع هذه النقاط تحتاج الى ما يعززها علمياً. بالامثلة والارقام، بالاسباب والنتائج، بالمناقشة والتحليل.. وتداخل هذه الآثار مع ما سبقها وعدم الانصراف كلياً للشان التربوي.. اما على المستوى العربي فان التحديات التي يرصدها المؤلف تكمن في:

اتساع الفجوة بين التقدم التقني والعلمي، والتدهور البيئي ونقص الاتصالات والمعلومات ومصادر المياه وضعف استغلال الأرض وعدم كفاية الغذاء، وانتشار الامية والتخلف والفقر والمرض والهيمنة الامبريالية الأمريكية، ووجود الكيان الصهيوني وحقوق العرب ومشاكل الاقليات وتعزيز القطرية والتأثر بالاتجاهات الغربية.. ومع ان هذه (التحديات) متداخلة مع الآثار التقنية والسياسية والثقافية والاقتصادية.. ومع ان المؤلف ـ كذلك ـ لا يوثق حقيقة النتائج التي توصل اليها، وهو ما يجعلها تبدو وجهات نظر اكثر منها نتائج منطقية موضوعية.. الا انه يرسخ معلومة ثم ينفيها.. فالتقدم العلمي ليس نقيضاً للتقدم التقني.. باعتقادنا فان كليهما يعملان معاً، كذلك فان الكيان الصهيوني قائم والعولمة تساعد في بقائه وعوامل التدهور دائمة الحضور بل ويزداد عامل الفقر، مثلما يزداد الغني غنىً وكل ما جاء به البزاز، لا يلمس الجانب التربوي الا متداخلاً مع جوانب اخرى، في حين حمل العنوان تسمية: (العولمة والتربية).. فهل كان المؤلف يرى في جميع تلك الآثار آثاراً تربوية؟ اذا كان الأمر كذلك، فما حاجة بحثه الى هذه التقسيمات المحددة؟

ان مجمل الأثار التي اوردها البزاز تم حصرها بـــ :

اضعاف البعد الفلسفي للتربية، وتوجيه المعرفة العلمية بحسب القوى التـــي تملكها، والتأثير في اتخاذ القرار التربوي، وربط العلماء والباحثين بولاءات معينة للشركات المستغلة، وتقلص خدمات الطلبة، ونخبويـــة التعليـــم، ونشـــر مفـــاهيم براجماتية، وممارسة اعمال خارج التخصص وازدياد حجـــم الاميـــة الوظيفيـــة، والثقافية، وازدياد الطلب على التعليم مع ضعف مشـــاركة القـــوى الاجتماعيـــة، وتنامي الانفاق على التعليم بشكل يجعل الدولة عاجزة عن الايفاء بمتطلبات تكـــافؤ الفرص التعليمية، وتغير اساليب التعليم، والعناية بالمعوقين، والتوسع في التعليـــم الخاص، وتعاظم مسؤوليات ذوي المؤهلات العالية، واهمال الدراسات الانســـانية، واضعاف الشعور الوطني والقومي، والشعور بالدونية، وتدجين العلماء..!

ان هذه الآثار التي يرصدها المؤلف، لا يوجد ما يعزز صـــــواب الوصـــول اليها ولا دقتها ولا يمكن ان نسلم بها مجتمعة، بسبب عدم وجود ما يؤكدها مـــن ادلة وبراهين.. فضلا عن ضعف منطوقها، / فزيادة التعليم لا يمكـــــن ان يكـــون بمعزل عن وعي المجتمع ومشاركته في تعزيز واغناء هذه الزيادة، كما لا ينسجم مع تقليص الخدمات التي تقدم للطلبة..

كذلك فان عدم قدرة الدولة على الانفاق على التعليم، سيحول دون زيـــــادة التعليم، والعمل خارج التخصص من شأنه تزويد المرء بخبرات جديدة.. واكتساب المعوقين مهارات تتلاءم وامكاناتهم وذلك يعني اعدادهم اعدادا سليما.. والاعتمـــاد على المهارات هذا امر يتناقض تماما مـــع الطـــرح القـــائل باهمـــال الدراســـات الانسانية..

ان النقاط التي يوردها الاستاذ البزاز من شأنها ان تقدم صـــور (طيبـــة) و (زاهية) للعولمة مما يتناقض تماما مع صورة (بشعة) اخـــرى تتمـــيز بـــها كـــل

سلبيات العولمة.. وهذا لا يعني ان الباحث يقدم بـ (موضوعية وجـهات النظـر المتباينة، بل هو يقدم عدداً من النقاط التي اراد بها التنديد بالعولمة، فاذا بها تعد نقاطاً ايجابية.. وذلك بسبب عدم الوقوف عندها موقف الناقد المحلل، بل وقـوف المحايد الذي وصل الى قناعات ذاتية غير علمية.. مما جعـل القـارىء يواجـه الحيرة والتأمل في جدوى ما اورده المؤلف من اراء وملاحظـات عامـة تتعلـق بالعولمة. فضلاً عن ذلك، نرى ان العولمة ليست ايديولوجية كما يعتقد المؤلـف" "ان العولمة كايديولوجية يجسدها نظام عالمي وليس نظام دولياً" ـ يقول المؤلـف ـ الايديولوجية فكر، ينشد الثبات في الغالب، عقائديـة راسـخة، بينمـا النظـام العالمي الجديد (العولمة نظام محكوم بالمصالح السياسية والاقتصادية اكـثر مـن أي شيء آخر.. وليس بوسعنا الحكم على ظرفية (العولمة) ـ كما يعتقد المؤلـف ـ ان المسارات السياسية والفلسفية والتخطيطية والعلمية والتقنيـة والتربويـة والمالية ومسار المرونة والتحصين.. كلها مجتمعة لا يمكن ان تتم الا بـالادراك التام لاهداف العولمة وما الذي تريد تحقيقه وانجازه.

والدعوة الى التفاهم والحوار واحترام الرأي الاخـر وتعدديـة المواقـف السياسية وايجاد فلسفة اجتماعية واقتصادية منبثقة عن فلسفة تربويـة، وربـط التعليم بحاجات العمالـة المتجـددة والاسـتجابة لحاجـات السـوق المسـتديمة والمتغيرة، ووضع ستراتيجية علمية وتكنولوجية، وخلق مجتمع متعلم ومتطـور والتركيز على الابـداع والانتـاج والاسـتجابة والاتقـان والمبـادرات الفرديـة والجماعية، وتمويل التعليم وعقلنة التصرف، والبدء بنظام تربوي تكون اهدافـه قابلة للتغير والتجديد، وتلبية الحاجات الفرديـة والاجتماعيـة، والعمـل بشـعار (المرونة في النظام التعليمي) ـ كما طرحه د. عبد الله عبـد الدائـم ـ (ليكـون الجواب الاساس الممكن عن العولمة وعما يخبئه المستقبل من مفآجات مسـتمرة

بفعل العولمة وسواها)، والتحصين الحقيقي في مواجهة التدفق الاعلامي الوافد.. كلها مجتمعة من شأنها ان تصل بنا الى نتائج منطقية كما يرى المؤلف..

وفي هذا التحديد الذي وصل اليه المؤلف.. الذي تخصص في شؤون التربية والتعليم؛ يكون قد ارسى معالم اولية في هذا الطريق.. الذي لا يمكن ان نسلم تماماً بانتهائه، وانما نحن على مشارف اولى ترسم ملامحه الاولية.. الى جانب ان ما تقدم به يحتاج الى مساحة متسعة لمزيد من النقاش والحوار الذي من شأنه ان يغني افق هذا الجهد الذي حمله بحث جدير بالعناية والمراجعة والتأمل.. لمؤلف خبير يسهم اسهاماً فاعلاً في رسم السياسة التربوية في العراق الى جانب كونه تربوياً واكاديمياً انجز الشيء الكثير من ميادين الفكر والتربية والاعلام والتي تجاوزت الـ (١٧) بحثاً ودراسة منشورة.

العولمة قناع جديد للأستعمار

تواصل حركة النشر ــ تأليفاً وترجمة ــ بشكل مطرد...

وعلى الرغم من ظهور قنوات مختلفة للتلقي، الا ان الكتاب يظل المصدر الأهم للمعرفة في جميع الحقول، ومثلما جعلنا الحصار يتآكل على صعيد التدبير العراقي للغذاء والدواء، كذلك بتنا نيسر الكتاب عن طريق الاستنساخ والاعارة والتبادل، ورأينا في عرض ومراجعة الكتب الحديثة في كل عدد من "دراسات اجتماعية" من شأنه ان يجعل قراء مجلتنا على صلة بما يصدر من كتب ومجلات، ومن ثم يضعهم في قلب العالم وكيف يفكر الآن...

ومن جديد ما تيسر لنا قراءته راهناً... ثلاثة كتب صادرة في ثلاثة أقطار عربية وكلها تتحدث عن "العولمة" اما الكتاب الرابع، فليس ببعيد عن الكتب الثلاثة، وانما يقع في صلب توجهاتها واهتماماتها..

من هنا رأينا ان نقدمها في (قراءات) هذا العدد.

- العولمة والاقلمة ... اتجاهان جديدان في السياسات العالمية

تواصل الإصدارات العربية والأجنبية الحديث عن "العولمة" وصارت هذه المفردة مصدر نقاش ساخن بين رجال الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد على

حد سواء. ومن هذه الإصدارات، كتاب للدكتـــور: ريتشـــارد هيجــوت بعنــوان: "العولمة والاقلمة / اتجاهان جديدان في السياسات العالمية"

يعرفنا هيجوت بـــ "العولمة" كونها: "إحدى المصطلحات المحـــددة للوعـــي الاجتماعي في أواخر القرن العشرين، وهي ليســـت مرادفـــة للتدويـــل، وخلافـــا للجغرافية الدولية فان الفضاء الكوني عالم لا تشكل الحواجز الحدودية امامـــه أي عائق يذكر، وتقطع فيه المسافة في زمن ما يـــزال يذكـــر "ويضيـــف موضحـــا:" العولمة ليست مثل مذهب العالمية الذي يشير إلى طموحات الوصول إلى حالة من الأوضاع تصبح فيه القيم شراكة، أو تكون متاحة للبشر كافة، في العـــالم البـــالغ عددهم حتى الآن قرابة خمسة مليارات نسمة على اختـــلاف بيئاتـــهم وادوارهـــم كمواطنين مستهلكين أو منتجين، يجمعهم اهتمام العمل الجماعي المقصود به حـــل المشكلات المشتركة، ولا هي مذهـــب الكونيـــة، أي القيـــم التـــي تحتضـــن كـــل البشريـــة..."

ويخلص هيجوت إلى ان "العولمة هي ما اعتدنا في العالم الثـــالث ولعـــدة قرون ان نطلق عليه (الاستعمار)" ومعنى هذا ان (الاستعمار) يأتي بقناع جديـــــد، بثوب له بريق ضمن مخطط يرسمه ويعد له للهيمنة على إرادة الشعوب والأمـــم ومقدراتها وثرواتها وذلك من خلال ما يسمى (النظام العالمي الجديد) الذي يكرس نظرية الدولة الرأسمالية في احتـــواء العـــالم تحـــت مظلـــة الولايـــات المتحـــدة الأمريكية..

وقد كان مصطلح او مفهوم "العولمة" خداعا، فهذا الباحث كنيتشي اوهمـــاي يرى: "ان العولمة تمثل تطورا وثابا نحو عالم بلا حدود"... من دون ان يشير إلى طبيعة هذا (العالم) الذي يلغي هوية كل شـــعب مـــن الشـــعوب ويطمـــس معـــالم حضارته.. على عكس العالمية التي تجد في خصوصية كل شعب أهـــم مقومـــات

البناء والتحضر في حين تسعى "العولمة" لتذويب القوميات، وصهرها في بوتقة اتجاه أحادي.

اما "الأقلمة" فان هيجوت يحدد المصطلح الجدلي هذا بانه: "نشاط بين تنسيق قوي للسياسة، وبين التكامل التام للدول في إطار سوق مشتركة على نمط الاتحاد الأوربي" ويوضح قائلاً: "الأقلمة نشاط.. يصبح فيه (المحلي) اكثر ارتباطاً بالإقليمي، أي العمليات السياسية والاقتصادية دون الوطنية" من دون ان ينبه إلى ان (المحلي) في صميمه، عالمي في توجهه وفي نتائجه وفاعليته.. الا انه يقف على الضد من فرضية فرانسيس فوكوياما التي اوردهافي كتابه: "نهاية التاريخ" والتي يرسم فيها مستقبل العالم بـ "انتصار الايديولوجية الليبرالية "ويرى هيجوت ان "الاتجاه نحو المحلية يمثل النزعة المضادة للعولمة" ذلك ان "العولمة لا تولي اهمية للارض والحدود" بينما نجد العولمة توسع دولة على حساب دول أخرى، والمحلية صيانة وانتماء وتمسك بحدود دولة لها شخصيتها ووجودها. هذا الاختلاف القائم بين العولمة والمحلية، من شأنه "ان يمثل شكلاً من أشكال التوتر السياسي.." كما يقول روزنو.

الا ان التوتر لا يفترض القبول بالاحتواء الذي تمارسه سياسة العولمة بقدر ما يدعو الى الرفض والمقاطعة انطلاقاً من ان العولمة إرادة (القوي) / الأقل، على إرادة (الأضعف) / الأكثر!

ان: "العولمة ظاهرة أمريكية اكثر من كونها ظاهرة عالمية ــ كما يقول دانيال جروس.. و"فكرة تحرير التجارة" أمريكية؛ تلعب بمكر ودهاء على وتر الممارسة الوطنية الاقتصادية عندما يتناسب مع مصالح أوطانهم"ــ كما يشير جون دن. وتأخذ العولمة بما أطلق عليه: ريتشارد اوبريان "نهاية الجغرافية" مستنداً في ذلك إلى قوة تأثير راس المال حين يصفها هيجوت بانها تشكل:

"انتصاراً للقيم الأمريكية.. وشكلاً جديداً من الامبريالية ولاسيما لدول العالم الثالث التي لم تستفد من التقدم الذي طرأ في تحرير الأسواق".

ان ليبرالية العولمة التي لا تفصل الدولة عن المجتمع.. من شأنها ان تخلق مجتمع الرفاهية المنهار أمام العقلانية التي باتت تدرك ابعاد مجتمع العولمة ومخاطره الذي يشع بريقه في حين ينخر به المرض..

- مستقبل العولمة

مع ان مفهوم "العولمة" لم يستقر بعد.. وعلى تعدد ما كتب عنه.. الا ان عدداً من الباحثين راحوا يرسمون مستقبل العولمة على وفق رؤاهم ومن منطلق تخصص كل واحد منهم.

وهذا البحث الذي كتبه استاذان يختلف كل منهما عن تخصص الآخر ـ حيث ان د. رسلان خضور / أستاذ في كلية الاقتصاد ود. سمير حسن / أستاذ كلية الآداب / قسم علم الاجتماع ـ تعاملا مع ظاهرة العولمة من خلال نظرتهما إلى مستقبلها وذلك من خلال دراسة "آليات عولمة الاقتصاد والمنعكسات الثقافية لعولمة الاقتصاد، والوقوف على أهم التناقضات التي تنطوي عليها العولمة وصولاً إلى إمكانيات وسبل مواجهتها، وذلك بغية تلمس مستقبل العولمة على ضوء السيناريوهات المحتملة لاتجاهات تطورها اللاحقة" هذا التطور والتباين الحاصل لمفهوم العولمة، هو الذي يجعل درجة قبولها أو رفضها ليست قطعية تماماً.. ولاسيما وانها من المفاهيم التي مازالت قيد التكوين.

ان "العولمة" وهي تسعى لهيمنة دولة واحدة على المؤسسات الاقتصادية الدولية وعلى مجلس الامن، اوضحت الآثار الخطرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على نسبة كبيرة من الاقتصاد العالمي الى جانب تدويل ونشر القيم

الثقافية والتقاليد الاستهلاكية على الطريقة الامريكية. ومن هنا جاءت دعوة الباحثين الى "عولمة بديلة، عولمة اكثر إنسانية، عولمة اكثر ديمقراطية.." ان هذا البديل الإنساني،

الديمقراطي.. ليس زيا يمكن اضفاؤه على جسد ميت، على وجود ملغي، على حضور ضد.. على وجه بشع يتزيا بالجمال زيفاً.

نعم.. صحيح ما ذهب اليه هذا الباحث الذي يشير إلى ان "المجتمع الإنساني مقبل على تغير كمي ونوعي كبير وان علينا ان نكون مستعدين لمواجهة ذلك ولاكتساب مهارات ومواقف جيدة، وان نملك الشجاعة لتجديد إيديولوجياتنا وقيمنا الأخلاقية ومناهج تفكيرنا ونتبنى نظرة تتقبل التغير من اجل التكيف بنجاح في مجتمع سريع التغير..".

ان العولمة اجتماعياً ـ يقول المؤلفان ـ : "تمسط حياة منفتح جديد وعلاقات اجتماعية مادية ونفعية وعقلانية رشيدة تستبعد كل التقاليد القومية والعرقية والعائلية والدينية الخاصة".

والواقع.. ان هذه الصورة التي تظهر بها العولمة اجتماعياً.. بعيدة في حقيقتها، عن الجوهر الذي تتميز به.. فهي ظاهرة أحادية يراد بها نمط اجتماعي أحادي خاص.. يلزم كل الشعوب السير في سبيله، في نمطه وعلى طرازه ولا بديل لسواه!!

ان العولمة ـ يقول المؤلفان في موقع آخر من بحثهما: "العولمة في أساسها درجة أعلى في تاريخ التطور الرأسمالي وعلاقات الهيمنة الامبريالية، وهي بذلك تعد ظاهرة موضوعية تفتح الافاق وتوسع المجال الحيوي لرأسمالية القرن الحادي والعشرين". ومثل هذه الحقيقة التي توصل اليها الباحثان، تختلف

عما ذهبا اليه في حديثهما عن العولمة الاجتماعية.. الأمر الذي يجعل رأيهما غير مستقر..

ويقولان أيضاً: "ان العولمة عملية تعميم لأنماط إنتاج واستهلاك وتوزيع وتبادل ولأنماط ثقافية واجتماعية وسياسية ولقيم وأخلاقيات ولأنماط اعلامية تشمل العالم كله، وبذلك تكون تعميماً لنمط حياة معين ودعوة لتبني نماذج معينة باستخدام ثلاث أدوات أساسية ساعدت وتساعد على بلورة الظاهرة، وهي الشركات متعددة الجنسيات التي تمارس العولمة بكفاءة عالية، وتكنولوجيا الاتصالات والاعلام. والمؤسسات والمنظمات الدولية".

اذن العولمة من التقنيات الجديدة، بل هي أهم افرازاتها التي من شأنها ان تخوض غمار عمل قسري يلزم الجميع الأخذ به وتنفيذه بدقة.

ويؤكد الباحثان الى ان العولمة تهمل البعد الاجتماعي فـ "مع" تقدم خطى العولمة تزال الحدود الوطنية من طريق التجارة الدولية وتدمر النقابات العمالية مما يدمر التماسك الاجتماعي ويستغل التناقض بين رأس المال المعولم وبين العاملين ويتحول الجزء الأعظم من العالم الى اجزاء منفصلة والى عالم بؤس وفاقة، ومع تبلور العولمة يزداد تركز الثروة وتمركزها.. ففي العالم اليوم ٣٥٨ مليارديرِ يملكون ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان العالم، وهناك ٢٠% من دول العالم تستحوذ على ٨٥% من الناتج العالمي وعلى ٨٤% من التجارة العالمية ويمتلك سكانها ٨٥% من المدخرات العالمية"! مثل هذه الاحصائيات، تشير الى مدى الخطورة التي تشكلها العولمة في حالة انتشارها على نطاق واسع.. إذ سيكون حال الفقراء المزيد من الفقر.. والاغنياء في وضع يزداد فيه غناهم وتكديس ثرواتهم.

ان الانعكاسات الاجتماعية لظاهرة العولمة ستكون واضحة التـأثير على معطيات الثقافة والسلوك وانهيار المجتمع.. وفي خضم آلية قسرية تهدم الروح وتقتل فاعلية الحياة.

ان الثقافة ستكون سلعة، شأنها شأن أي سلعة أخرى.. مما سيؤدي الى تشويش الشخصية الثقافية والى فقدان التوازن نظراً لأن هذه القيم الثقافية والافكار ليست من انتاج التطور الاقتصادي والاجتماعي في هذه المجتمعات".

ولعل هذا الاختراق الثقافي للعولمة من أهم وأخطر نتائجها حيث تتوقف عليه: "ديناميكية المجتمع وقدراته الانتاجية ومرونة ثقافته ومدى قدرته على التحصين الداخلي وعلىاعادة انتاج متطلباته المادية وتجديد ثقافته الخاصة ومدى قدرته على المساهمة في صياغة الثقافة العالمية وليس مجرد الاكتفاء باستقبال المعارف والعلوم".

اذن التقنيات التي تجيء بها العولمة، على ما توفره من تلبية سريعة لحاجات مختلفة، تظل تقنيات يتحول فيها المرء الى قيمة آلية استهلاكية.. يفتقد خصائصه الانسانية التي عرفناه فيها، وتمهد العولمة لميلاد انسان مستهلك للثقافة بدلاً من منتج ومبدع لها.. ويصبح المجتمع في ظلها في حالة تفاوت بين انسان وآخر.. ويساعد الاعلام في خلق مزيد من الحاجات الاستهلاكية التي قد لا يستطيعون اشباعها، مما يخلق العنف، والتوتر واتباع شتى السبل لتحقيقها.. ويضع الباحثان مقارنات مهمة تثير الانتباه بحق إذ:

"يستلزم التعليم الاساسي للجميع في البلدان النامية (٦) بلايين دولار سنوياً" بينما "ينفق على ادوات التجميل في الولايات المتحدة وحدها (٨) بلايين دولار سنوياً" و "يحتاج تأمين المياه والصرف الصحي للجميع في البلدان النامية

(٩) بليون دولار سنوياً" بينما "ينفق على أغذية الحيوانات المنزلية في أوربا والولايات المتحدة (١٧) بليون دولار سنوياً".

ويخلص الباحثان الى ان "ثروة أغنى (٣) افراد فقط في العالم، تبلغ أكثر من قيمة الناتج المحلي الاجمالي لأقل البلدان نمواً وهي (٤٨) بلداً!

ان هذه الحقائق التي يثبتها الباحثان، احدهما معني بالاقتصاد وثانيهما معنى بعلم الاجتماع، يمثل العمق الدلالي للنتائج التي توصلا اليها، ومديات التغير الذي يمكن للبشرية ان تشهده في المستقبل القريب.. ومدى تأثير هذا التغير على الانسان، وكيف سيجد نفسه وسط متغيرات تحيط به من كل جانب..؟

- العولمة وخيارات المواجهة

هذا عصر صناعة المعلومات، ابتكار انتاجها وتلقيها واستهلاكها.. في حين نعرف ان المعلومات لا تؤخذ لذاتها.. ولا يراد بها مجرد الجمع المجرد..

ان المعلومة.. سبيل من سبل المعرفة التي تأخذ معلومة، بغية توظيفها في عمل ما، في فاعلية علمية مفيدة للمجتمع..

إلا ان العولمة.. اتخذت من المعلومات والاتصالات سبيلاً انعكس على "اسواق المال وحرية انتقال رؤوس الأموال بصورة تتجاوز الحدود الوطنية والاقليمية وتمتد وفق أطر عمودية / قارية"، هذا ما يشير اليه كتاب "العولمة وخيارات المواجهة" لرعد كامل الحيالي ينقل المؤلف عدة تعريفات للعولمة منها:

"العولمة / نظام عالمي جديد يقوم على العقل الالكتروني والثروة المعلوماتية القائمة على المعلومات والابداع التقني غير المحدود، من دون اعتبار للانظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم" كما انها: "القوى التي يمكن لها السيطرة على الأسواق الدولية والشركات

المتعددة الجنسية التي ليس لها ولاء لأية دولة أو قومية".. وفي معانيها أيضاً: تفكيك الأمم والدول والجيوش وتفكيك المجتمع والأسرة، وتفكيك الفرد وتجريده من القيم والاخلاق والمبادىء الدينية المقدسة"

هذه الأوجه التي يقف المؤلف عندها للتعبير عن العولمة.. تجمع على ان (العولمة) ظاهرة سلبية. وتطلعات مستقبلية لما سوف تؤول اليه حياة المجتمع.." انها الوجه الآخر للهيمنة الامبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة لأمريكا" ـ كما يقول مسعود طاهر.

"كما انها عملية تقودها القوى الفاعلة المؤثرة في النظام العالمي حالياً، من أجل ترويج قيم وسلوكيات وسياسات ومفاهيم الأنموذج الغربي الرأسمالي الليبرالي بأبعاده السياسية الثلاثة: بمعنى قيم التحول الديمقراطي، وقيم حقوق الانسان في المنظومة الغربية، والاقتصادية بمعنى النتاج الاقتصادي لتطور الرأسمالية، وتداول المفاهيم مثل عالمية الاستثمار وانتقال رؤوس الأموال وتحرير التجارة ونقل التكنولوجيا..

أما المحور الثقافي الاجتماعي.. فقد أضحى المحور الأساسي لعملية التفاعل العالمي، حيث يسعى الأنموذج الغربي المهيمن الى ان تصبح مفاهيمه وقيمه وسلوكياته، هي القيم والمفاهيم والسلوكيات الشائعة والمنتشرة والمتبناة بلا منازع ـ كما تقول نادية مصطفى.

ووقف المؤلف عند أراء مختلفة تصب جميعاً في سلبيات العولمة.. والوقوف على الضد من الدعوات التي تحملها.. الا اننا نقف بحذر وانتباه الى أراء أخرى من بينها:

رأي: ايجانسيو رامونيت: "لقد أقامت العولمة دولتها الخاصة بها، وهي دولة فوق الأوطان.." ورأي: ريتشارد كاردز ـ مستشار الخارجية الامريكية: "ان

تجاوز السيادة الوطنية للدول قطعة قطعة يوصلها الى النظام العالمي بصورة أسرع من الهجوم التقليدي".

وكانت مهمة المؤلف تقتضي مناقشة مثل هذه الآراء.. وأبعادها.. الا انه ـ كما يبدو ـ يؤمن بان "تعدد المرجعيات.. يفضي دائماً الى التقاطع وعدم الانسجام الأمر الذي يؤدي الى ضياع الجهود المبذولة لتطوير ثقافة عربية اسلامية معاصرة قادرة على مواجهة التحديات على المستوى المعرفي ـ الايديولوجي" ـ على حد تعبير: عواطف عبد الرحمن ـ الذي يتبناه المؤلف، وهو في هذا التوجه يتوقف عند كل ما ينسجم مع طبيعة توجهاته، من دون ان يسمح للرأي الآخر ان يناقشه.. وفي عدم المناقشة هذه، حرمان العقل من ديمومة الحركة والتفكير بأفق متسع.. والموضوعية تقتضي ان تصغي الى الرأي الآخر.. تناقشه وتحاوره ضمن وعي جدلي من شأنه ان يعمق الفكر ويغني الذاكرة ويحفز الأرادة.

يقول المؤلف: "الانفتاح على العالم سيقود الى تغير ثقافي، هو تحد للعلم ولابد من مواجهته علمياً والبدء من الداخل اولاً، فلنجعل برامجنا اكثر واقعية.." اننا في عصر الانفتاح على العالم، على فتح أفق جديد.. يؤثر ويتأثر، يعلم ويتعلم.. انه جدل الحضارات، لا صراعها.. ولا الاقلمة او الدوغمائية او التعصب والعنصرية، ان لكل شعب ولكل أمة ثقافتها وقيمتها.. ولابد ان نتعلم منها مثلما نعرفها على ما نملك من معارف وعلوم.. اما ان نعيش في عزلة.. فان مآل ذلك الى تخلف عن ركب الحضارة الذي يشهد كل يوم انتقالات سريعة هائلة.

ان كتاب الأستاذ: رعد كامل الحيالي "العولمة وخيارات المواجهة" على نبل الأهداف التي يحملها، يقف على مرجعيات تنسجم معه، ولا تختلف معه في شيء.. الأمر الذي يجعله يجمعها بدلاً من ان يحاورها.. ولو تسنى له الاطلاع

على مرجعيات حديثة ـ وهي كثيرة الآن ـ لحصلنا من خلال كتابه هــذا علــى نتائج اكثر خصباً واكثر مثاراً للجدل في موضوع العولمة الذي بات يشــغل كــل مثقف.. وبات يدق كل حوار جاد.. مما يتطلب منا الوقوف عند احدث المصــادر حتى يمكننا ان نلحق بركاب الحضارة ونتعرف على متغيرات العصر.

الوسائط المعلوماتية وكيف تغيّر عالمنا وحياتك؟

تواجه البشرية في الوقت الراهن أقوى ثورة حقيقة سلمية وأهمها على مر العصور وتكمن هذه الثورة في المتغيرات السريعة والمتطورة باستمرار والمتعلقة بالمعلومات. بحيث لا يستقر فيها المرء على قدر من الاستقرار والمعايشة والملائمة، حتى يواجه بجملة متغيرات عاجلة ومتلاصقة، الأمر الذي يجعله في حالة ترقب وانتظار لما سوف يحدث.. ليس على مدى أعوام ولا أشهر، وانما على مدى اسابيع وحتى ساعات.. وبات المرء حقيقة مادية تقوم على الايمان المطلق بالمتغيرات، بوصفها سمة العصر واسلوب الحياة الآنية.

ويرصد كتاب: "ثورة الانفوميديا، الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك "للكاتب الأمريكي: فرانك كيلش ـ المتخصص في بناء أكبر شركة حاسب في أمريكا الشمالية، وأحد أبرز خبراء صناعة الحوسبة والاتصالات في العالم. ومن أكثر العلماء معرفة بمستقبل صناعة الحوسبة وترجمة: حسام الدين زكريا، المتخصص بالهندسة الميكانيكية في مصر والمستشار في برامج الكمبيوتر،

---

* ثورى الانفوميديا: تأليف: فرانك كيلش، ترجمة: حسام الدين زكريا، مراجعة: عبد السلام رضوان /سلسلة عالم المعرفة (٢٥٣) ـ الكويت. ك ٢/٢٠٠٠/٥٤٣ صفحة متوسطة.

الأطار العام لفهم طبيعة التغير من خلال "التطرق الى الكيفية التي يؤثر بها فنياً. والكيفية التي نعمل بها أعمالنا، ونصرف بها حياتنا الشخصية" كما يسعى الكتاب الى "وصف الاتجاهات واسعة الانتشار، ويدرس تأثيرها على مجتمعنا واقتصادنا، وهو موجه لكل من لديه حاجة مهنية أو شخصية الى المعرفة، وهو موجه أيضاً لهؤلاء الذين يريدون تفادي المخاطر التي تحفل بها أيامنا المضطربة واغتنام الفرص الجديدة للنجاح". صحيح ان الكتاب يعنى بالتكنولوجيا.. إلا ان التكنولوجيا هنا معرفة لها تماس بالناس والدراية بحياتهم اليومية وكيفية الارتقاء.

ويعرفنا الكتاب بدايات اكتشاف أول كومبيوتر رقمي في العالم، إذ كان عام ١٩٣٧ بمعرفة رياضي من هارفارد هو: هوارد إيكن.. الذي انهى العمل فيه عام ١٩٤٢ ويمضي الكتاب ليقدم تفاصيل دقيقة عن مسيرة التطور التي شهدها الكومبيوتر الذي بدأ معالجاً للبيانات وصار يعالج الصور والفديو والصوت والتحق بالانترنيت وشبكات الاتصالات اللامحدود في امتدادها.. ودخل في الصناعات كافة وفي شتى الاستخدامات التي يكون فيها الانسان على تماس تام وتفاعل مستمر.. مما يخفف عنه عبء العمل وكسب الوقت وتوفير هذا الوقت لمزيد من الراحة الذهنية والنفسية والعضلية..

ووصل الأمر الى ابتكار ما يسمى: بـ "العقار الالكتروني" إذ يتم بيع وشراء العقارات على نطاق واسع وبقناعة تامة من قبل كلا الطرفين إيماناً بان هذا الجهاز يضمن الحقوق والاطمئنان للطرفين.

ونظراً لاتساع شبكات الاتصال، فإن المرء قد عزف والى حد كبير عن شراء المطبوعات كافة، خاصة وانه بات يقرأ صحيفته وكتابه المختار من خلال جهاز في بيته، مثلما هو شأنه في الاصغاء الى الموسيقى أو مشاهدة فلم أو محادثة صديق له هاتفياً.

وفي فصل بعنوان: "الحياة في ظل المنزل الذكي" يحدثنا المؤلف عن امكانية قيام "الكومبيوترات الصغيرة بالتحكم في كل صغيرة وكبيرة بالمنزل بدءاً من ماكنة صنع القهوة واقفال الابواب حتى صنابير المياه والنوافذ".

ان بيوت المستقبل بيوت راحة وترفيه واستجابة كلية لكل ما نريده، لكل لحظة تحتاج فيها الى دفء معين في مزاج نفسي معين، والى استخدامات تنفذ فيها المتطلبات كافة التي يحتاجها المرء في لحظة معينة في متغيرات شتى ذلك ان منزل المستقبل، هو المنزل الذي نشتاق الى قضاء لحظاتنا السعيدة فيه الذي يتوفر فيه ما يطمح اليه كل واحد منا على وفق المشيئة التي يريد ويتمنى، وعلى وفق الحاجات التي تحقق أكبر كسب لانسان ينشد الراحة والسعادة وفي اطار توسيع خدمات الكومبيوتر، نتبين وجود كومبيوترات ذكية تقيم شبكة اتصالات واسعة.. مما يجعل مستخدميها يعزفون عن اقامة مكاتب فخمة باهظة التكاليف محددة المكان.. ويكتفون بأجهزة الاتصال وتحريك أوجه العمل بوساطة هذه الاجهزة الذكية..

وفي المدرسة بدأ التفكير بفاعلية أجهزة الكومبيوتر من اجل تحقيق مزيد من التركيز في عملية التعلم والتعليم.. فلم تعد هناك ضرورة لوجود مبان مدرسية وانما يتيح الكومبيوتر الحرية والانطلاق لاكتساب المعارف والعلوم والمزيد من الخبرات لمن يطلبها وبالشكل الذي يرتأيه.. ان بالامكان التعلم داخل المنازل أو في تجوالهم.. إلا ان المؤلف يتساءل عن جدوى هذا الاستخدام للكومبيوتر وماذا يمكنه ان يفعل في مواجهة القضايا الاجتماعية ووضع حلول لها.. كما يتساءل: "التقدم أم الانسان؟" مشيراً الى ان "عصر الانفوميديا سيكون تأثيره.. على العمالة فستصبح الوسائط المتعددة متنوعة الاغراض التي تعمل من خلال أحدث صيحات التكنولوجيا من الأشياء المألوفة".

لقد تجاوزت الاجهزة الحديثة مخيلة: جورج اودويل، جول فيرن.. وكل كُتّاب الخيال العلمي.. وبات على كتّاب علوم المستقبل دراسة الافاق العلمية التي بدأت تشهد ظواهر متقدمة ومفاجئة ومتقدمة يومياً، الأمر الذي يتطلب منا الشعور باحساس كامل بطبيعة المتغيرات من جهة، وطبيعة ما يمكن ان تشهده البشرية مستقبلاً خاصة.. اذا ما توجهت نحو مزيد من التقنيات لخدمة الانسانية بدلاً من استخدام التقنيات لتدميرها..

ان "ثورة الانفوميديا" ثورة حقيقية، متقدمة وفاعلة، وقابليتها على التغيير قابلية لا حدود لها.. وأمامنا ان نتنبه الى ما سوف يكون عليه الانسان في ظل هذه الثورة الدائمة.. ايماناً بان ذهنية الانسان دائمة العطاء والاكتشاف والقدرة على انجاز المزيد من التقنيات في شتى حقول المعرفة..

الهوية الأحادية للكون!

هل ينتهي دور الفكر في عصر التقنيات الحديثة، وهل تصبح الايديولوجيات ظواهر سلفية معطلة، وهل يمكن ان يتحول عصر الآلة بديلاً للعقل؟

الكاتب المغربي: عبد السلام بنعبد العالي، يجيب عن هذه الأسئلة وسواها من خلال كتابه: "الفكر في عصر التقنية"*

بنعبد العالي يضع مقولة هايدغر الواردة في مطلع كتابه:

"ان هامة الكيفية في تعيين الفكر كنظرية، وتحديد الفكر كموقف (نظري) تتم داخل تأويل (تقني) للفكر، انها محاولة رد فعل حفاظاً للفكر على استقلاله أمام الممارسة والعمل، بعدها وجدت (الفلسفة) نفسها مضطرة على الدوام ان تبرر وجودها أمام (العلوم)، وهي تعتقد انها تنال مبتغاها يقيناً بارتقائها مرتبة العلم، بيد ان هذا السعي ليس إلا تخلياً عن ماهية الفكر".

---

* الفكر في عصر التقنية، تأليف: عبد السلام بنعبد العالي، منشورات: أفريقيا الشرق – المغرب، لبنان ٢٠٠٠م، ١٠٣ صفحة متوسطة.

وفي ضوء ما قاله هايدغر وضع بنعبد العالي كتابه الذي يؤسس لفكر مغاير على وفق المتغيرات التي تجري على التقنيات كافة.. فهل يكون الفكر تابعاً للآلة والتقنيات بدلاً من ان يتقدمها ويقودها ويوجهها ويطور فيها كل ما وجد لذلك ضرورة؟ يقول المؤلف: "ان (ثقافة الحداثة).. تغزو الوجود المعاصر، ولو استبدلنا كلمة ثقافة كما يفعل هايدغر، بكلمة تقنية التي تعني عنده نمطاً من انماط الوجود، لقلنا ان التقنية تكتسح الوجود المعاصر، ولا أحد يستطيع ان يوقف مدها".

اذن التقنية على وفق مفهوم هايدغر تساوي الثقافة وتعادلها وكل ثقافة، هي وليدة فكر وابداع ولا يمكن ان تحقق حضورها من فراغ، ومن لا شيء. اللا شيء نفي مقصود لها، ومرهون بالمصادفة وبالفطرية.. ومثل هذا لا يمكن للتقنية ان تعتمده مثلما لا يمكن ان تثمر منه ثقافة حيّة.

ويرى المؤلف ان الفكر العربي يطرح قضايا التراث والهوية والتجذر التاريخي "كلما واجهت الذات المتصدعة تحدياً من الآخر يوقظها ويدفعها الى الفعل ورد الفعل".

الا ان هذا الطرح وما يماثله، لا يتيح لأصحابه فرصة اللحاق بالركب المتحضر.. لذلك ارتهن نفسه للزمان والمكان السالف، وقد يكون سبب صحوة للحاضر، أو بذرة مبكرة ازهرت واثمرت ما هو عليه الحال راهناً.. إلا انه ظل رهين ما كان.. لا ما سوف يكون عليه حاضراً ومستقبلاً، ذلك ان البشرية تقطع يومياً اشواطاً هائلة في التقنيات كلها التي ابتكرتها أمس.. ومن هنا يتواصل التطور الذي لا يمكن له ان يكون في غياب مطلق للفكر.. فالفكر هو المحرك، وهو الذي يجدد ويضيف وليس الآلة.

بإزاء ذلك كانت: "الكوكبية لا هوية لها، بل انها هي التي تحدد اليوم كل هوية" ويعد المؤلف ما يجري: "قدر تاريخي يرمي بانسان اليوم في الكون وبالفكر في الكونية" فهل يصنع التاريخ اقداره.. ونحن نعلم ان (الاقدار) قوة وهمية مرهونة بالمصادفة ان بنعبد العالي يضع اللاهوية الكونية ضمن صياغته للقدر التاريخي، وهذه مغالطة تغيب عنها الدقة العلمية والموضوعية، فالكوكبية أو الكونية أو العولمة.. تمت وفق مخطط مدروس وعميق يعمد عن قصدية في تغييب الهويات والخروج بهوية أحادية للكون كله.. وهذا ما يسعى اليه النظام الدولي الجديد بشتى الوسائل.

ويعتقد بنعبد العالي ان: "ما يميز الفكر، كفكر فلسفي، قدرته على التراجع والانتقاد قدرته على إنتاج الأسئلة وتوليد الفراغات" وان "ما يميز الفكر الفلسفي قدرته ان يتحرر مما هو جاهز، ان يتحرر من الأفكار كسلطة، قدرته على الانفصال والقطيعة، هذا ما تبينه الابستمولوجيا المعاصرة: ففي ميدان الفكر ليست هناك إلا قطيعات وانفصالات".

ان بنعبد العالي يضع التغيير العقلاني والقناعات الجديدة والمتغيرات الذهنية اللاحقة؛ في موقع التراجع والانتقاد بدلاً من المناقشة والجدل.. وهي أهم مشاغل العقل كما ان تحرره مما هو جاهز، يلغي عنه صفة التراجع والانتقاد، ويضعه موضع التفاعل والتجدد والتغير الايجابي الخلاق.

ويعزو سبب الشكوى (من ان العقل العربي خالٍ من الابداع، وان فلاسفتنا يكتفون بترديد افكار جاهزة، وترجمة افكار دخيلة، وان الفلسفة العربية الحديثة بعيدة عن واقعنا الذي نعيشه وانها عاجزة عن بلورة مشاكلنا الفعلية وقضايانا الأساسية)؛ يعزوه الى "فهمنا للفلسفة والى نظرتنا الى تاريخ الفلسفة بالذات"، والى حرصنا الشديد على ان نجعل من النماذج الذهنية واقعاً، بل كل الواقع".

ونحن نرى ان التشخيص الذي حدده المؤلف وارد الى حد كبير، غير ان الأسباب التي جاء بها ليست سليمة وهي أقرب الى ان تكون تبريرية منها الى الحقيقة الموضوعية.. فنحن أمة كلام، أكثر منا أمة فعل وعلم وفكر جدلي.. كما هو شأن العالم المتحضر اليوم ونواكب الزمن ومتغيراته السريعة.

ان فلسفتنا باتت تشكل تراكم الفاظ، لا فعل أفكار.. وهنا يكمن تخلفها ومرضها! ان ما نحن بحاجة اليه، قد يكون قريباً والى حد كبير من قول هايدغر وهي: "ان نظل مشدودين الى.. لا الى الماضي وحده، وانما الى الحاضر، وكل ما سيأتي. ان ما مضى، وما هو حاضر وما سيأتي، كل هذا يلتقي في وحدة الحضرة التي تتخذ كل مرة طابعاً خاصاً..".

ان هذا الانشداد الى المستقبل، هو الذي يجعلنا نبحث ونفكر ونسعى بشكل حثيث من أجل فتح آفاق جديدة ورؤى فاعلة وإمتدادات يمكن ان تسهم في اغناء حياة الانسان حاضراً ومستقبلاً وتفتح أمامه سبلاً تنقله من واقع محدود، الى واقع أفضل.

اننا لنجد انفسنا، نقف اجلالاً وإكباراً مع ما ذهب اليه بورخيس: "كل مرة أقرأ فيها ما ينتقدني أكون متفقاً مع صاحبه، بل انني اعتقد انه بأمكاني ان أكتب أنا نفسي احسن من ذلك المقال، وربما كان عليّ ان انصح اعدائي المزعومين بأن يبعثوا اليّ بانتقاداتهم، قبل نشرها، ضامناً لها عوني ومساعدتي، لكم وددت ان أكتب بأسم مستعار مقالاً قاسياً عن نفسي".

وكان يمكننا ان نقف كلياً مع ما ذهب اليه بورخيس، إلا اننا وجدناه في نهاية الأمر يفكر بنقد ذاته باسم مستعار، بدلاً من مواجهة نفسه ونقدها نقداً ذاتياً.. مثلما يفعل كل عظيم يواجه اخطاءه ويعترف بها من دون ان يلقي بها على سواه أو على شؤون خارج ارادته ويمضي بنعبد العالي قائلاً إن:

"الاستراتيجية لا تنحصر في وظيفتين هما: إلحظر والمنع والاقصاء، ثم الاخفاء والتدليس والحمل على الاعتقاد.. ان السلطة استراتيجية فعالة مهمتها أساسا ان تنتج الواقع في غليانه وتعدده".

ان هذا التعميم لاستراتيجية السلطة، تعميم عائم، لا جذر له، وليس هناك ما يدل سوى ما يرد في خيال المؤلف، فالكثير من السلطات تعمل بلا استراتيجيات أصلاً، انما تحكم على وفق هواها.. لحظة هذا السهوى والمزاج.. ومن هنا نرى الواقع الذي تتعامل معه هشاً لا قاعدة يمكن الركون اليها.. في حين تكون السلطة التي تحترم القوانين التي تسنها سلطة لها استراتيجيتها التي تنطلق من ايديولوجيتها ومواقفها ومعرفتها بطبيعة المجتمع الذي تتولى زمام أموره..

وعندما يذهب نيتشه الى القول: "ان ارادة المعرفة هي ارادة القوة، وان معرفة قوة وتسلط، وان المسألة النقدية هي معرفة قيمة القيم "انما يريد القول بامتلاك المعرفة سلطة الحق والعدل والحقيقة والبرهان.. وبهذه السلطات مجتمعة تصبح المعرفة قوة يمكن ان تهيمن على عقول الآخرين.. والقيم جزء فاعل ومؤثر في المعرفة الراسخة التي تمتلك ارادتها وقوة اشعاعها وتأثيرها..

وفي قول دولوز: "ان للفلسفة وظيفة ما تزال حية، وتلك الوظيفة هي ابداع التصورات" نجد ان ابتكار التصورات هنا له قيمة خلاقة ومعطى مضاف، وتصور جديد لأشياء قد تكون كسولة وساكنة.. والتصور هو الذي يحركها، هو الذي يجعل لوجودها وظيفة وهنا تبدأ فاعلية الفلسفة اليقظة والخلاقة.

إلا أن المؤلف حين يشير في ختام كتابه: "لنتذكر ما قاله ماركس عن الماركسية وهايدغر عن الوجودية وقريباً منا فوكو عن البنيوية. ان هؤلاء يجدون إن ما كان بالنسبة اليهم حياة ومخاضاً فكرياً قد تحول الى أفكار جاهزة،

ما كان سؤالاً واستمراراً في السؤال قد تحول الى أجوبة ميتة، ما كان انفصالاً وغربة قد تحول الى شيء مألوف، ما كان حصيلة تفاعل مع الواقع تحول الى أمر واقع، ما كان أداة انفلات من القهر قد تحول الى سلطة تشدهم الى ثوابت بعينها، وما كان يتما قدر انتسابها لعائلة فكرية وانضواء تحت ظل موحد".

وليس بوسعنا ان نتذكر على وفق ارادة بنعبد العالي، وكان الأهم من ذلك ان يفتح أمامنا سبل هذا التذكر وحقائقه.. ذلك ان ما ذهب اليه، لا يدل على انه حقيقة موضوعية وردت على لسان هؤلاء المفكرين الذين تبرأوا من افكارهم.. والذي نعلمه ان ماجاءوا به من أفكار.. مازال يثير الجدل، ومازال يشكل اضاءات في دروب الوعي الانساني الذي تضاف اليه رؤى لاحقة.

ان كتاب "الفكر في عصر التقنية" قدم شذرات فكرية من هنا وهناك وترك عصراً بكامله يعتمد التقنيات الحديثة من دون ان يناقشه ومن دون ان يمد جسور المعرفة بين العقل والعلم.. وهو أهم ما كان على الكاتب مناقشته.

ثقافة الإرهاب عند غاليانو

لم تعد الأساليب العنيفة التي توصف غالباً بالإرهابيـــة، أســاليب أحاديــة الجانب بل اتخذت صوراً متعددة وطرقاً مختلفة وصولاً الى تحقيق إرادتها وبســط النفوذ على المناوئين والذين يختلفون معها في الرأي وانهم ليســوا إلا خصومــاً ينبغي تصفيتهم والخلاص منهم. وظهر في الافق مــا يعــرف الآن بـــ "ثقافــة الإرهاب" التي تتخذ من الثقافة والفكر والإبداع محطات تنطلق من خلالها لغــرض تنفيذ سياسة العنف والإرهاب. وفي نصوص مفتوحة كتبها: إدوارد غاليانو مـــن الإرغواي تحت عنوان: "كتاب المعانقات" نقرأ عدة نصوص قصيرة بعنوان "ثقافــة الإرهاب". ومع اننا لا ننطلق من عنوانها، وانما من المضامين المطروحة فيــها.. فاننا نجد في الوقت نفسه ان "ثقافة الإرهاب" لا يمكن وصفها بكلمة (ثقافـــة) وإن أفضل ما توصف به تلك الطروحات هو المدى العميق الذي وصلت إليه سياســـة القتل والعنف والإرهاب.

ففي النص الأول "ثقافة الإرهاب" / "تجد من يصف البشر (حشرات) ومـــن يصطاد البشر كونهم (وحوش) ومن يحسبهم (عبيداً) يمكن له بيعهم.

وفي الحضارة الرأسمالية "يقطعون لسان الهندي ثم يعذبوه ليجبروه علـــى الكلام"! وقد يتم "لف إنسان من البيرو براية منقوعـــة بـــالبنزين ويحــرق حيــاً "الإرهاب هنا إذن لا يهدف الى جمع معلومات مستحيلة، بل إعـــادة تــأكيد إرادة السلطة ومع ان شركة الأمزون تنتج المطاط إلا أنها لا تجد افضل مــن (تثقيــف) العاملين في هذه الشركة على إتباع سياسة الإرهاب بغية تحسين (إنتاجها).

إنتاج الخوف، مصدره منتج يريد ان يربح المزيد.. وان كان يقطر نبض الانسان تقطيراً. وفي "ثقافة الإرهاب" / ٢ "يعرض لنا غاليانو ما يجري على صعيد الحياة العائلية من بطش وإرهاب. فمن "معاقبة التمرد وتنظيم الحرية" يتم التوجه نحو: "الاغتصاب، الاهانات، التهديدات، الصفع، الضرب، الجلد، الغرفة المظلمة، الحمام الجليدي، الصيام الاجباري التغذية الإجبارية، حظر مغادرة المنزل، والتفوه بما تفكر به، حظر القيام بما تشعر به، والإذلال العلني.. "فمثل هذا يجري في تراث العائلة التي تعود أبناؤها على الممنوع والمحرم.. مما يؤدي الى الكذب والخوف والقمع والتسلط الذي يحسه الإنسان منذ صغره، ومنذ وعيه المبكر. في حين يجلد الأخر نفسه في موقع النفوذ والتسلط وفرض إرادة القوة.. الأمر الذي يؤدي بالنتيجة الى نمو اساليب العنف منذ الصغر.. لتكبر وتتخذ لها سبلاً اخرى!

وفي "ثقافة الإرهاب / ٣ "تجد الطفل النموذجي يوصف ب: "طفلة صغيرة تلعب بدميتين توبخهما لتبقيا هادئتين "لعب الأطفال تحول الى هيمنة وفرض نفوذ حتى على الأشياء الجامدة التي لا تبصر نفسها، وليس بوسعها ان تكون على ما هي عليه. الفرض أو القسر يجري بإرادة لا تريد ان تعرف او تفهم حتى منطق الشيء او طبيعته ونقرأ نص: "ثقافة الإرهاب / ٤ "تجد الطفل في حرج وهو يعترف بذنوبه/ سرق او كذب.. إلا أن الكاهن لا يعفو عنه، وإنما يلزمه بتقبيل المسيح المصلوب، ثم يضربه بالصليب على فمه.. قائلاً للطفل: "... لقد قتلته". الكاهن هنا، خرج عن مهمته الدينية السلمية، الى أداة قمعية لا تتقن التسامح والتربية الحسنة والتوجيه.. حتى السيد المسيح تحول بين يدي الكاهن الى كائن ارهابي يختلق التهم للتنكيل بمن يتخذ لنفسه السرقة والكذب.. سبيلاً حياتياً وسلوكاً مخلاً بالقيم. دون معرفة الاسباب التي أدت الى السرقة والى الكذب،

فالكاهن هنا له علاقة بالنتائج لا بالأسباب، فضلاً عن تنكره لجـــرأة الطفـــل فـــي الاعتراف بما فعله من سلبيات.

وننتقل الى: "ثقافة الإرهاب / ٥ "حيث نتبين وجود شخصية تدعى (رامونـــا كارباو) لم يكن بمقدورها السير، (فتكافأ) بالعمل في منزل مترف مجاناً!

رامونا.. اعتادت الذل، بحيث رفضت عرض جدتها بـــالعودة الـــى بـــراءة الريف. الأغنياء الذين اتخذوها خادمة بالمجان، لم يكونوا يعرفون الشفقة والرأفة برامونا، وإنما استثمروا العوق الذي تعاني منه لأغراضهم الشـــــخصية.. كـــانوا يمارسون الإرهاب ضدها بحيث قاموا بتدجينها وأخذوا منها ليس حاضرها وإنمـــا مستقبلها كذلك.. قبول العمل المجاني، قبول العبودية.. والوصول الى هذه النتيجة معناه القسرية التي تحولت الى هيمنة ملأت ذهن رامونا، واســـتلبت انســـانيتها.. حتى انها بدأت تحسب ان ثمن عوقها ــ والذي لم تكن مسؤولة عنه ــ هو العمل مجاناً..

وكأن من تعاقبه الطبيعة او الأقدار او المحن، ملزم ان يعطي ثمناً إضافيـــاً لمسألة سلبية شاقة تمتحن صبره وتعاقب هذا الصبر بالحرمان والعبودية!

إزاء ذلك تعاقبها جدتها بمزيد من ضربات السوط ليس بسبب ما فعلته، بـــل بسبب ما ستفعله مستقبلاً من قبولها كل هذا الذل المحيط بها. من هنا نجد "ثقافـــة الإرهاب" هنا تتخذ اكثر من بعد:

ــ العوق، عقاب الطبيعة، غير المسؤولة عنه.

ــ العبودية ومجانية الجهد / هيمنة غسل الدماغ باتجاه سلبي.

ــ عقاب الجدة / إرهاب الرفض.. فالجدة هنا لا تقل عن اولئك الذين اســـــتخدموا رامونا مجاناً. الجدة هنا تريد رامونا لنفسها، وهو استثمار مجاني يقع علـــى رامونا.

وفي "ثقافة الإرهاب" / ٦ "تتعرف على صورة جديدة لثقافة الإرهاب..
حيث نجد المتهمة: تعاني من محنة ذاتية ووضع مدمر، بعد ان حل عليها الإرهاب. فقد اغتصبها رجل الشرطة، وألزمتها اجهزة التعذيب الكهربائية على إدانة نفسها، محامي (ألما).. فشل في الدفاع عنها. ولم يشفع لها حب الجيران، ولا إكراهها على الاعتراف، ولا تناقض هذا الاعتراف، ولا كذب الأوراق... ولا حتى حقيقة ان (ألما) عمياء! لجريمة حدثت، ولابد من فاعل، ولابد من اعتراف وتأكيد من الاذاعة والتلفزيون. الجريمة.. اختفى فاعلها الحقيقي، ولم يسأل أحد عن دوافع الجريمة، ولا هوية الضحايا.. فهذه امور مسكوت عنها، ولا تخص العدالة في زمن الإرهاب، لأن العدل نفسه مهدد بوجود وحصل ان ضاع هذا الوجود في ظل أجواء تمارس الإرهاب ضد براءة المتهم، ذلك ان الإدانة موجودة وقد تم التخطيط لها.. سواء التعذيب او الاغتصاب أو الإكراه على الاعتراف والذي يدين صاحبه بالنتيجة.

من هنا نجد أن إدوارد وغاليانو، كاتب يدين الإرهاب من حيث كونه أداة قمع وعبودية وعنف وقسوة وتدمير لحقائق الأشياء ولإنسانية الانسان.

في نصوص إدواردو غاليانو

تتوجه لغة البوح في عصرنا الراهن، الى إتخاذ شتى السبل لغرض التعبير عن الكامن في الذاكرة والأحساس، ومثل هذا التوجه العميق، يجد حرجاً وقيداً أمام وجود الأجناس الأدبية المعروفة، الأمر الذي يجعله يتوق ويسعى وبشكل حثيث للخروج من الأطر التقليدية لهذه الأجناس.. وصولاً الى لغة شمولية شفافة، تتيح لصاحبها أن يتكلم بدون حواجز من شأنها أن تحول دون هذا الأفق الذي يتيحه النص المفتوح للمبدع وللمرسل بشكل عام. ومن النصوص الابداعية المثيرة والنابهة والذكية والعميقة التي تجعلنا نتأملها بفتنة ووعي؛ تلك النصوص التي أصدرها الكاتب الارغوايي: إدواردو غاليانو في كتابين هما:

(كتاب المعانقات)* و (كلمات متجولة)**

هذه تقدم كاتباً على ثقافة شمولية ومتنوعة، فضلاً عن رقة العبارة التي يقوم باستخدامها وايجازها ويقدمها بكثافة كلية، خالية من الأطناب والزوائد

---

* كتاب المعانقات /إدواردو غاليانو. ترجمة: أسامة أسبر. دار الطليعة الجديدة ـ دمشق. ط١/٢٠٠٢ ـ ١٢٦ ص. م

** كلمات متجولة / إدواردو غاليانو. ترجمة: أسامة أسبر دار الطليعة الجديدة ـ دمشق. ط١/٢٠٠٢ ـ ١٧٦ ص . م

والثرثرة التي لا جدوى منها. ففي (كتاب المعانقات) نقرأ له هـذا النـص الـذي يحمل عنوان: (نبوءات /٢):

"حلمت هيلينا بحافظات النار، خزنت أكثر النساء فقرا النـار بعيـدا عـن مطابخ في الضواحي وكان عليهن أن ينفخن في راحـات أكفـهن بلطـف شـديد فحسب لكي يشعلنها من جديد" مثل هذه الصورة أو اللقطة، تقدم لنا فعـل النـار كمادة، وفعلها كحياة وإرادة وإنتاج يسري في ذاكرة الناس.. مما يجعلنـا نحـس بأكتواء النار من جهة، ودفء النار من جهة أخرى. وفي نـص (البيروقراطيـة /١) نتعرف على السجين الذي فرض عليه بأن يسير في صف واحد مـع بقيـة السجناء وأيديهم خلف ظهورهم.. لكنه كان بذراع واحدة.. سجن فـي مرحلتيـن وحين طلب إعادة ذراعه، فوجيء بأن تلك الذراع كانت خاضعة لسـلطة أخـرى وفيما كان قد حوكم في محكمة عسكرية، حوكمت ذراعه كمدني!

هنا نجد حالة رهيبة من تجزئة الأنسان الواحد، ومحاكمة كل جـزء علـى إنفراد.. وقد تم إختيار أو تخيل مثل هذا الحدث، بقصدية واضحة الدلالـة والتـي يراد منها إدانة البيروقراطية والعنف والأرهاب ضد الأنسان.. وجاء اللامـألوف هنا بمثابة مألوف تام لواقع قاس ومرّ وفي (جوع/٢) نقرأ النص كاملاً:

"نظام عزلة: إبحث عن رقم واحد. جارك ليس أخاً لـك أو حبيبـاً. جـارك منافس، عدو، عائق يجب إزاحته أو شيء يجب إستخدامه، لا يغـذي النظـام أو الجسد أو القلب: حكم على كثيرين بالتضور جوعاً بسبب غياب الخبز، وعلى أكثر منهم بغياب المعانقات".

فالجوع على وفق ما طرحه غاليانو، ليس جوع المعدة حسب، وإنما كان هناك جوع آخر الى الحياة والى المعانقات التي تمنح الروح ألقاً وسعادة.. هذا الجوع الذي يصعب إشباعه بسهولة، ويصعب على المرء إهماله أو تجاوزه.. إنه جوع الى معانقة الحياة نفسها.

وعندما نقرأ نص: (تاريخ مدينة نيويورك) نكتشف طبيعة مدينة قاسية، قائمة أساساً على إرهاب الآخرين.. "ففي هذه المدينة، يجب أن تستخدم قوة وحشية للدخول في أي مكان ــ ينبغي أن تدوس على شخص آخر أو أن يدوس عليك: سيسير عليك تماماً ــ وأنه يعيش هذه الحياة منذ أن كان طفلاً. هل سمعت جيداً، منذ أن كان طفلاً وخرج من الاكوادور ــ وروى لي أن امرأته داست عليه لتوها...".

نيويورك بهذا المعنى، مدينة إرهاب وقتل وجريمة ولا إنسانية، والوجود في اضوائها، وجود للأقوى، وليس للأكثر وعياً، وإنسانية، وضرورة.

نيويورك.. تربي أطفالها على تفهم هذا المعنى، معنى أنه لا تقوم للمرء قيامة مالم يقوَ على سواه، ينافسه ويتفوق عليه بالقوة وحدها.

فأذا كان هذا في نيويورك نفسها، فكيف يكون الناس في بلدان العالم.. بنظرها؟!

ونتأمل نصّ: (الليل/ ١) كما ورد:

"لا أستطيع أن أنام، هناك إمرأة عالقة بين جفنيَ، سأقول لها أن تخرج إن تمكّنتُ، لكن هناك امرأة عالقة في حنجرتي".

امرأة تملأ النظر.. ليس بوسعها أن تغيب، وليس بوسعه أن يغيبها متى شاء.. ذلك أن أمرأة مثلها تتعلق بالأنفاس، فكيف يمكن أن نحول بينها وبين احداقنا، بينها وبين حناجرنا..

هذا الأحساس العميق، يقدمه غاليانو إلينا بوعي تام وإحساس عميق أمام إمرأة نحبها ونتوق اليها.. وبالتالي تصبح منتمية الى وجودنا كلياً.

وفي نص: (مفارقات) يكشف غاليانو عن جملة من هذه المفارقــات التــي تجعلنا نقف ونحن في حالة دهشة أمام حقائق تلك المفارقات:

فنابليون لم يكن فرنسياً، وستالين لم يكن روسياً، وهتلر لم يكــن المانيــاً وإنما ولد في النمسا ومارغريتا سارافاتي المرأة التي أحبها موسوليني المعــادي للسامية، كانت يهودية.. والنحات اليخادينهو، الأكثر دعامة بيــن الــبرازيليين.. ولدت من بين يديه اعظم ملكــات الجمــال البرازيليــات، والســود الامــيركيون الشماليون، أكثر البشر تعرضاً للأضطهاد؛ أبدعوا الجاز "أكثر أنــواع الموســيقى تحرراً.."

من هذه المفارقات التي يوردها غاليانو، يمكن ان نتبين جملة متناقضــات متضادة مع بعضها، إلا أنها في الوقت نفسه، يمكن أن تتفق على هدف، على فهم الآخر واستيعابه، وبالتالي القبول به والاستجابة لمعطياته..

وفي نص: (في مديح الحس العام) نتعرف على مدينة أرميرو التي محيــت عن الخارطة عام ١٩٨٥ بسبب البركان الهائل.. في وقت كــان البركــان يحــذر طوال عام كامل.. ببصق النار، والقصف بالرعود، والمطر الرمادي. لكن الحكومة لم تجد سبباً للذعر، والكاهن والأسقف قالا أن الله يتولى مسؤولية الجميــع، أمــا الجيولوجيون وعلماء البراكين فقد ذكروا أن كل شيء تحت السيطرة وليس هنــاك خطر.. لكن المدينة، تلاشت من الحضارة!

إن الحس العام هنا، كان يؤشر كارثة المستقبل، ولم يكن إحساس الحكومة والكهنة وخبراء البراكين يمتلكون مثل هذا الحس. وإلا كانوا قــد تنبــهوا الــى حقائق الأمور وأنقذوا المدينة من الهلاك الذي غيبّها كلياً.

وتحت عنوان: (ثقافة الارهاب /٧) نقرأ النص كاملاً:

"الأستعمار الواضح يبترك دون تنكر: يمنعك من الكلام، ومن الفعل، أو مــن الوجود، أما الأستعمار اللامرئي، على أي حال، يقنعــك أن القنانــة هــي قــدرك

والعجز طبيعتك: يقنعك أنه ليس من الممكن الكلام، وليس من الممكن الفعل، وليس من الممكن الوجود".

وفي حقيقة الأمر، نعرف جيداً أننا نواجه: الاستعمار الواضح واللامرئي معاً.. وهو ما يجعلنا نواجه حالة مدمرة من إرهاب معلن ومستتر معاً.. إرهاب يتخذ من (الثقافة) سبيلاً لأرهاب الآخرين عن طريق قتل المعطى الأنساني ومن ثم قتل الحياة كلياً!

ونتوقف عند (النظام /٢) حيث يكشف غاليانو عن عصر الحرباء التي تتقن فن الأخفاء، وثقافة القناع واللغة المزدوجة والحساب المزدوج والاخلاق المزدوجة، أخلاق للكلام، وأخلاق للفعل، واخلاق الفعل تدعى الواقع!

يقول غاليانو: "قانون الواقع هو قانون السلطة، وهكذا ينبغي الأ يبدو الواقع غير واقعي، وأولئك المسؤولون يقولون لنا، إن الأخلاق يجب أن تكون غير أخلاقية".

الواقع هنا، واقع إفتراضي، إلزامي، يسير باتجاه حربائي يلَون نفسه بأتجاه ما يلزم، وليس ما ينبغي أن يكون عليه الواقع وتحتمه الاخلاق وتؤكده المواقف.

ويقدم لنا غاليانو في نص (الأزهار) حدثاً مهماً في حياة الكاتب البرازيلي: نيلسون ريدريغويز الذي كان محكوماً بالوحدة لدمامة خلقته التي تشبه ضفدعة ولسان أفعى..

نيلسون هذا فتنته امرأة كانت تدعى اليونورا.. فراح يرسل اليها الازهار كل يوم، دون أن يكرر لوناً أو رائحة.. ويراقب الشرفة.. حيث ترمي اليونورا الازهار في الشارع لتسحقها السيارات.. وبعد أن أستمر الوضع خمسين يوماً، لم ترم فيه الازهار.. عندئذ قرع نيلسون الجرس وانفتح الباب.

بهذا المعطى الأنساني الدافق، قدم غاليانو المشاعر الانسانية عندما ترق وتصبح التقاء حميماً ينبه ويتحرك ويعلن عن ضرورته واستجابة وإرادته..

ونتأمل (التحدي) / النص الذي يبدأ بهذه العبارة:

"لم ينجحوا في جعلنا مثلهم" وكان الناس في الزمن الديكتاتوري في الأوروغواي: يتناولون الخوف بدلاً من طعام الأفطار. والخوف بدلاً من الغداء.. والعشاء.. لكن هؤلاء الناس لم يصبحوا مثلما يريد خصومهم.. فقد كان حجم التحدي أكبر وأهم بكثير من حجم التمني والترف.

فالشعوب إذا ارادت أن تكون حرة، ضحت وتخلت عن أبسط مستلزمات الحياة من أجل الوصول الى حياة جديدة، حياة أناس لهم إرادتهم وحضورهم.

وعندما ننتقل الى الكتاب الثاني لغاليانو: (كلمات متجولة)؛ نجد أنفسنا أمام نصوص قصيرة موحية، لا تختلف كثيراً عن (كتاب المعانقات) بكثافة لغتها، وإحاطة نصوصها بجوانب وصور حياتية دائمة العمق وباذخة المعنى ومشرقة العطاء، كأنما تحلق بأجنحة كلمات عذبة.. ذلك أن الكلمة عنده تعني الروح وأن : "كل من يكذب أو يبدد الكلمات يخون الروح" كما ورد في نص (نافذة على الكلمة /٣).

وفي نص (نافذة على الديكتاتوريات اللامرئية) نقرأ:

"الأم المضحية تمارس دكتاتورية العبودية /الصديق الموسوس يمارس ديكتاتورية أعمال المعروف / الفضيلة تمارس ديكتاتورية الديون / الأسواق الحرة تسمح لنا أن "نقبل الأسعار المفروضة علينا / حرية التعبير تسمح لنا أن نصغي لاولئك الذين يتحدثون باسمنا / الأنتخابات الحرة تسمح لنا أن نختار المرق الذي نطبخ به".

تأمل من طراز خاص، لم ننتبه إليه، وكان غاليانو أكثر منا قدرة على تفجير حقيقة لا مرئية للديكتاتورية النامية في كل واحد منا.. الأمر يجعلنا نتبين الحقائق الكامنة في كل واحد منا.

وفي (نافذة على الممنوعات) نقرأ النص:

"على حائط بمطعم في مدريد علقت لافتة تقول: الغناء ممنوع / على حـائط في مطار ريودي جانيرو علقت لافتة تقول: ممنوع اللعب، بعربات الأمتعة / هكـذا لايزال هناك بشر يغنون، وبشر يلعبون".

اللعب ممنوع، والطعام ممنوع.. الممنوع قائم ومرفوض وملزم على كـل شيء.. ولكن مع ذلك هناك إمكانية للتحدي، وتجاوز الممنوع.. والقـدرة علـى الغناء.

على هذا النحو يقدم غاليانو المواقف الانسانية وهـي فـي أدق أمورهـا وأحرجها، معلناً صورة البهاء في قلب أكثر الأشياء قسوة ودماراً.

ونتوقف عند نص عذب يحمل عنوان: (قصة إنبعاث الببغاء) حيث نتبيـن سقوط ببغاء في إناء يتصاعد منه البخار.. فاذا الأشياء المحيطة كلها تقف معـه وتعينه على تجاوز محنته حتى وجدنا في نهاية الأمر أن:

"الببغاء الذي ولد من الحزن إمتلك ريشاً أحمر من النار / وريشاً أزرق من السماء / وريشاً أخضر من أوراق الشجرة / ومنقاراً قاسياً من الحجر وذهبياً من البرتقالة / وامتلك كلمات إنسانية لينطق / وماء من الدموع ليشـرب وينتعـش / وامتلك نافذة مفتوحة للهرب / وفعل ذلك هارباً في عصفة الريح".

وواضح أن تقديم غاليانو للببغاء، تقديم لأنسانية الانسـان عندمـا يعينـه الآخرون على قيامة الحياة وتجاوز إشكالات الأخفاق والمحن.

نص يكثف كلماته، باتجاه صياغة جملة معبرة موحية.. تبـوح بالسـري الكامن في داخلها.

أما نص: (نافذة على رجل ناجح) فقد جاء فيه:

"لا يستطيع أن ينظر الى القمر دون أن يقيس المسـافة / لا يسـتطيع أن ينظر الى شجرة دون أن يفكر بالحطب / لا يستطيع أن ينظر الى لوحـة دون أن يحسب السعر / لا يستطيع أن ينظر الى قائمة طعام دون أن يحسـب الحريـرات/ لا يستطيع أن ينظر الى امرأة دون ان يحسب حساب المجازفة".

الرجولة الناجحة عند غاليانو بهذه المقاييس، وعلى وفق هذه الأسس.. وهي في مجملها غنية بالمعاني، مستقرة في نظم الاشياء والنظر إليها نظرة عميقة ومتأنية ولصيقة بالناس والأشياء، بحيث لا تبدو هامشية، وإنما عميقة وفعالة، وتنم عن وعي ودراية. وتتغير المفاهيم في نص (نافذة على الجسد):

"تقول الكنيسة: الجسد خطيئة / يقول المعلم: الجسد آلة/ تقول الاعلانات: الجسد مشروع تجاري / يقول الجسد: أنا مهرجان".

وجهات النظر نحو الجسد متباينة، وكل يأخذ ما يلزمه ويعبر عنه.. لكن الجسد نفسه لابد أن يكون مدركاً ذاته.. إنه مهرجان هذا الكون الذي يحتفل بحضوره وأهميته و... يفتح غاليانو (نافذة على الخوف) بقوله:

"الجوع يتغذى على الخوف/ خوف الصمت يدوي في الشوارع/ الخوف يهدد:/

إذا أحببت، تصاب بالأيدز / إذا دخنت، تصاب بالسرطان / إذا تنفست، تتلوث/ إذا شربت، تحصل على حوادث / إذا أكلت، ترتفع فيك نسبة الكولسترول/ إذا عبرت عن نفسك، تسرّح/ إذا سرت، تُسرق/ إذا فكرت، تقلق/ إذا شككت، تجن/ إذا شعرت، تعاني من الوحدة".

إذا.. هنا شرطية، إحباط، تحذير، إيقاف.. يضعها غاليانو أمامنا، فـأذا إستجبنا لـ (إذا) كنا كمن يقتل قناعاته وآماله وتوجهاته.. بمعنى أن يظل دون فعل ودون إرادة ودون قدرة على فعل شيء.. وبالتالي ستؤدي (إذا) إلى شلّ ارادته.. حتى الموت!

وتقترب (قصة الطائر الذي فقد ساقاً) في نصها من الحكاية الشعبية العربية التقليدية في إحالاتها.. فقد كانت كسرت الفراخ البيوض لتخرج وتتحدد في العش.. ولكن (تنكوينا)/ الطائر الانثى تجمد أحد ساقيها في الثلج بينما كانت تبحث عن طعام، فاشتكت الى الثلج، فأحالها للشمس، وهذه الضباب، الريح، الحائط، الفأرة، القطة، الكلب، العصا، النار، الماء، البقرة، السكين، الأنسان.

تنكوينا.. غنت لله فسمعها فسألته الانسان، السكين... وقال الله "آه يا تنكوينا، عليّ ان أخلق الأنسان لكي يخلقني".

ذلك أن تسلسل الامور حد الأنسان، ثم الأله الذي خلق الأنسان، إنما كان الله على معرفة بما كان.. وكان الأنسان يستعيد مجد الله.. مجد أن تكون الحياة بهذا التسلسل العظيم وهذه العلاقة الوطيدة بين الأشياء، ضمن إرادة تواصل مهمتها.

من هنا وجدنا في (نافذة على الذاكرة /٥) ما يؤكد المعطى الابداعي القائل:

"يسافر ضوء النجوم الميتة/ وبضوء روعتها تبدو حيّة/ الغيتار، الذي لا ينسى رفيقه، يعزف الموسيقى دون يد/ يسافر الصوت، تاركا الفمَ خلفه".

ضوء النجمة لا يموت إذن، والغيتار لا يعرف النسيان، والصوت يبوح.

هذا هو الأستعداد الحقيقي على بعث الحياة من ركام الأشياء كلها.. وهذا هو مجد أن تولد الاشياء من رحم الموت نفسه.

إن إدواردو غاليانو / الذي يترجم الى العربية لأول مرة ـ حسب علمنا ـ وبكثافة لغوية صاغها مترجم بارع مثل: أسامة أسبر؛ له فضل إكتشاف غاليانو أولاً، ومن ثم تقديمه بهذا الأمتياز اللغوي البارع في إيجادد. والمفكر العميق الذي أحاط بأسرار الحياة، وقدم بوحاً إنسانياً ومن أعماق الذاكرة والأحاسيس... أيقظ الذاكرة وفجر المعاني. غاليانو مبتكر نصوص عالية الأمتياز والأرتقاء وتوليد الكلمة الفاعلة الموحية.

والمترجم كان أميناً، إنيقاً في إنتقاء كلمات من حدائق القاموس العربي الجميل والعميق.

قراءة في: "عقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر"

لم تكن العملية الارهابية التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في ١١ أيلول ٢٠٠١ التي استهدفت مبنى التجارة العالمي ووزارة الدفاع (البنتاغون) هي الأولى من نوعها التي تمارس العنف لمواجهة السياسة العدوانية التي تعتمدها أمريكا ضد الشعوب.. وإنما كانت بمثابة رد فعل معاكس ومضاد لتلك السياسة، فضلاً عن اتخاذ العنف وسيلة من وسائل القمع والتجني المستمرة التي تعتمدها الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني.. مثلما يعتمد الارهاب أداة لايقاع الأذى بالافراد والدول.. على مرّ الأزمنة.

لكن عمليات الارهاب اتسعت وصار الحديث عن الارهاب يسبق كل حديث، بات معنى الارهاب يأخذ مفهوماً أحادياً تعتمده أمريكا وتسعى الى تعميم فهمها له وأنه هو المقبول دون غيره..

ان تحديد مفهوم (مع أو ضد أمريكا) نوع من الأرهاب الذي تمارسه أمريكا ضد العالم كله.. ووضع المنظمات الفدائية الفلسطينية وحركات التحرر في العالم في خندق الارهاب، لا يمكن ان نعده إلا ممارسة ارهابية بشعة.

ولأن كلمة (ارهاب) هي الأكثر تداولاً في حياتنا الراهنة، فقد توجـهت دور النشر لاتخاذ هذه المفردة عنواناً لمطبوعاتها.. تنديداً بالارهاب وتوظيفاً تجاريـــاً يروّج للمطبوع ويمد في مساحة انتشاره.

ولا نحسب ان كتاب "المحاكمة والارهاب" يخرج عن هذا الاطار، ان لم يكن العنوان لاحقاً بالكتاب وليس من صلب موضوعاته التي تتناول: "عقلية التخويـــن في الخطاب العربي المعاصر" للكاتب العربي السوري: تركـــي علـــي الربيعـــو(*)، فالربيعو يأخذ على الثقافة العربية منذ المقدمة على انها "ثقافة محاكمـــة، ثقافـــة تموضع الآخر في قاعة للتدريس، فـــي محكمـــة، فـــي ســـجن بـــهدف التـــأديب والمحاكمة" إلا انه في الفصول التسعة التي يتضمنها الكتـــاب لا يشـــير إلا الـــى اختلافات الرأي واجتهادات في وجهات النظر..

ومهما كانت هذه الاختلافات ساخنة، او في حالة تقاطع كـــل مـــع الآخـــر، فإنها لم تكن بأي حال من الأحوال.. ارهابية، وليس من المنطـــق ان نعـــد كـــل اختلاف مع الآخر، محاولة لارهابه والضغط عليه وممارســـة العنـــف الخفـــي أو المعلن ضده.

نعم.. لقد مورست عمليات العنف ضد المناوئين للافكار القائمة فـــي كـــل بلدان العالم وفي كل الأزمنة، وهي مؤرخة ومعلومة لكن المؤلف أهمل الاشـــارة اليها كلياً، وأخذ يشير الى المناقشات والجدل القائم بيـــن اعـــلام الفكـــر العربـــي الراهن، وعد تلك المناقشات والردود.. ممارسات ارهابية!

(*) المحاكمة والارهاب / عقلية التخوين في الخطاب العربي المعـــاصر. تـــأليف: تركـــي علـــي الربيعو، نشر: دار رياض الريس ــ بيروت . ط1/حزيران ــ يونيو ٢٠٠١ ــ ١٧٥ صفحة متوسطة.

يقول عن ثقافتنا العربية انها: "ورثت عن الاستشراق وعن عوامل أخرى هذا الميل الى المحاكمة.." وان هذا: يدفعنا الى وصفها بأنها ثقافة محاكمة وارهاب فكري يتزيا بزي الحداثة ليضفي على ارهابه مزيداً من المشروعية والتبرير".

واذا كان الربيعو يعد كل جدل.. ارهاباً، فهل يعني انه يريد القبول بكل رأي يطرح، وان نقبل بكل ما يقوله حتى لا نكون ممن يمارس الارهاب عليه أو على سواه ممن يختلف معهم فكرياً؟

ان الربيعو يناقض نفسه في مواقع كثيرة من فصول كتابه، يقول: "المختلف منفي ومطرود ومطارد، والآخر هو الجحيم كما يقول سارتر "ثم ينتقل للوقوف عند ثلاثة نماذج هي: "ادوارد سعيد وتهمة العمالة لقوى اجنبية، وعند أنور عبد الملك المتهم بالتهمة نفسها وعند محمد عابد الجابري بوصفه الممثل الجديد للاستغراب الشرقي.. "مشيراً الى ان مهدي عامل يكتب في مجلة الكرمل الفلسطينية عن ادوارد سعيد ان: "منطق سعيد، هو منطق التأويل الذي يستبدل التناقض المادي في حركة التاريخ الموضوعية بتناقض شكلي في صيغة اما.. وإما "ويعلن مهدي عامل تضامنه مع صادق جلال العظم في "تكفير وتخوين ادوارد سعيد".

والاجتهاد في تحليل خطاب سعيد، اجتهاد لصالح العلم والمعرفة والحقيقة، على ان هذا الاجتهاد لا يجيز لصاحبه التنديد بالآخر وتكفيره وتخوينه.. إيماناً بان هذا الاسلوب يعد اسلوباً ارهابياً وقمعياً للرأي الآخر.

كذلك لا يمكن القبول بما نقله الربيعو عن الطيب تيزيني.. وصفه للجابري كونه: "ضحل فكرياً وساذج ولا يملك المقدرة على تملك النص ولا على

قراءته..". فمثل هذا الوصف يخرج عن اطار المناقشة، ليتحول الى لغة عدوانية لا علاقة لها بالمعرفة والجدل الموضوعي.

يقول الربيعو: "الاختلاف مطلوب، فهو اغناء لواقع نريده هكذا، أما القراءة التي تقود الى الخلاف، وتؤول الى احضان العقلية التآمرية، وتستمد وجودها من ارادة نفي تتحكم فيها، فهي بدورها تدمير لواقع وطموح، انها نظرة احادية وحدية تقطع بسيفها كل اشكال التباين والاختلاف وتحيلنا على ساحة من المواجهة بين من أملنا فيهم خيراً".

ولكن المؤلف يصل الى صيغة من التعميم يطلقه على الحركة النقدية العربية في التسعينات كونها: "نزعة خفية وعلنية تهدف الى محاكمة المثقف العربي والحجر عليه وتضميخ نصب الخطاب العربي المعاصر بدمه" ليصل الى تحديد ما أسماه: "نزعة تدميرية في خطابنا النقدي المعاصر" دون ان يبرهن على هذا الاستنتاج التعسفي. وبينما كان الربيعو قد عد ادوارد سعيد ضحية للآراء القاسية والممارسة الارهابية، نجده ينقل عن كتاب ادوارد سعيد (الثقافة والامبريالية) اشارته الى رواية (قلب الظلام) لجوزيف كونرادو (روضة مانسفيلد) لجين اوستن امتداد للامبريالية وميدان لدراسة الغرب.. في حين نجد حسن حنفي "يجعل وبحكم اهتمامه من الفلسفة الغربية ميداناً للنقد ولوضع اللبنات الاساسية لعلم الاستغراب، وذلك بهدف الحد من مركب النقص عن الأنا، وهذا ما يفعله سمير أمين في نقده للتمركز الأوروبي الثقافوي".

هاتان الرؤيتان تشيران الى عمق المنظور الذي ينطلقان منه.. وعبر هذا الجذر يمكن النظر الى الافكار وادارة النقاش حولها.

ومرة أخرى يعمم الربيعو ما قد يغالي ويتطرف بشأنه بعضهم، إلا ان هذا لا ينبغي الى حد: "اعلان موت المجتمع التقليدي العربي" والمطالبة بحرقه أو أن:

"المثقف الثوري العربي قد ملَ الركض من حول الغابة فراح يطالب بحرقها" ذلــك ان من يطالب بــ (الموت) و (حرق الغابة) هو جزء، أو نتـاج لـهذا المجتمـع، ولهذه الغابة وليس بوسعه الانسلاخ عنه، لأنه إذا فعل هذا وقطع جـذره، صـار هجيناً وعرضة للسقوط والانهيار مع هبة أول ريح تواجهه.

واذا كانت: "صورة هتلر والى حد كبير بسمارك، ظلت تغذي لدى المثقـف العربي القومي والأمير معاً ميلاً الى ممارسة دور والى جعله نموذجاً يحتذى" فـان مثل هذه الصورة ينبغي ان تأخذ شكلاً وفهماً ووعياً وموقفاً آخر.. ذلك ان صورة الماضي الدامية، كانت مضادة لكل ما هو انساني وسلمي..

ان تلك الصورة تشير الى: "عنف الخطاب العربي ولا معقوليته، عن فقـرة النظري بتبعيته المطلقة للنموذج السلف، عن أساسه الهش الذي يجعلـه يتحطـم على صخرة الواقع كزجاج ردىء، عن انفعاليته وغضبه الجامح الذي يدفعه فـي لحظة غضب الى نفي الآخر وتشريده وتذويبه، عــن نظرتــه الدونيــة لآخريـن اصيبوا لاحقاً بالعدوى منه" وتظهر هذه الصورة جلية في رأي عبد الله العلايلـي: "كل تجمع ملّي أو عنصري يعتبر جريمة قومية..".

فهل يمكن إن نعد مثل هذه القناعات إلا مظهراً من مظاهر الغلّ والتعسـف والارهاب؟ وينقل المؤلف عن فهمي جدعان قوله: "ان العقــل ليــس هــو سـيد الاحكام، وانه ليس أكثر من آلة أو أداة فحسب، وهو أداة ابستمولوجية في افضل حالاته يمكن استخدامها للخير أو الشر على السواء، اضف الى ذلك ان العقلانيـة لا تجسد الا مطلباً، واحداً من مطالب الكينونة البشـرية ويتمثـل فـي الحاجـة الطبيعية الى المعرفة الموضوعية المستندة الى احكام العقل الموضوعـي حينـاً والى متطلبات وضغوط العقل الذرائعي حيناً آخر".

واذا ناقشنا هذا الرأي، نرى ان فهمي جدعان يضع الخير والشر في ميزان العدل! العقل الموضوعي مقابل العقل الذرائعي، وان العقل أداة معرفية فحسب! ان الاحتكام الى العقل، يعني الاعتماد على دقته وسلامته وصوابه لما يمتلكه من قيمة معرفية تستطيع ان تفرق بين الخير والشر..

الشر احتكام الى المعطى السلبي، والاستنتاج التدميري والزائف والقمعي، اما الخير والموضوعية والسلم فهم اعتماد على العنصر المشع والنبيل والحي في الانسان السوي الراجح العقل.

لذلك لا يمكن وضع كلا العاملين في منطقة واحدة لموازين العقل والتسليم الى الهوى والعاطفة والرغبة العاجلة في آن واحد معاً.

ويشير الربيعو الى ما كتبه ريجيس دوبريه في نقده للعقل السياسي "مشبهاً السياسي المعاصر بالساحر، فالساحر بقدرته العجيبة على امتلاك الكلام يسيطر على الاشياء ويوجهها، وهكذا الفعل السياسي الذي يمتلك القدرة على تحريك الجماهير والسيطرة عليها من خلال امتلاكه الكلمة أو وهم امتلاكه اياها ويذهب دوبريه الى ان سحر القول في السياسة يدعو الى التفكير السحري في الأمر السياسي، وليس هناك في هذا الصدد من انفصال بين السحر والدين والأيديولوجيا" ومعلوم ان السحر ايهام، سقوط في الوهم، وليس قناعة عقلية.

بينما السياسة مران في اتخاذ المواقف وقناعة ذهنية يصل اليها المرء بعد ادراكه لفحواها.. واذا ما تحول السياسي الى ساحر، تحول في الوقت نفسه الى محتال، الى خدّاع من طراز خاص.. ومن ثم تصبح السياسة وهماً وجنّة مضاعفة وصور مغيبة!

اما وصف الجابري، الخطاب السياسي العربي بـ (الضحالة) وانه خطاب (غير صريح) أو ان هذا الخطاب يعتمد (التعميم والابتعاد عن الواقع) كما يصفه

آلن غولد شليغر في (سيميا الخطاب السلطوي) وان "العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب هي علاقة أمر ونهي، والجواب المقبول والوحيد هو الامتثال والقبول" ان دواعي أو دوافع مثل هذا الخطاب يكمن في الالزامية الحتمية التي تشكل جوهره. وهو في هذه الالزامية يظل خطاباً ساكناً تحكمه والنصية الثابتة التي ترفض التأويل والاجتهاد في صياغة معانٍ جديدة ومواكبة على وفق طبيعة العصر. من هنا كان مثل هذا الخطاب الاحادي يمارس صيغته التعسفية ضد كل من يختلفون معه أو يضعون أو يرسمون لرؤية أخرى.

هذه الأحادية في كل خطاب مهما كان مصدره، يمارس ارهابه على الخطاب الآخر، بمعنى انه يريد تصفيته ليحتفظ بنفسه دون سواه، وهو ما تمارس عقلية الارهاب الأمريكي الراهن، الذي واجه الارهاب للسبب نفسه.

ان الربيعو يحدد تعريف الارهاب السياسي او العنف السياسي بانه: "منهج نزاع عنيف يرمي الفاعل بمقتضاه وبواسطة الرهبة الناجمة عن العنف الى تغليب رأيه السياسي أو الى فرض سيطرته على المجتمع أو الدولة من أجل الحفاظ على علاقات اجتماعية عامة أو من أجل تغييرها أو تدميرها" ـ كما اشار الى ذلك آلن غولد شليغر ـ

والواقع ان أي نزاع يمارس العنف من شأنه تمزيق العلاقات الاجتماعية بدلاً من توحيدها، فالمجتمع ـ أي مجتمع ـ لا تبنى علاقاته إلا في ظروف مؤاتية ومصالح متوافقة ومشتركة وسليمة ومقبولة من قبل الجميع.

ان مجتمع العنف والارهاب هو مجتمع التمزق والانقسام والتشرذم.. بينما مجتمع الاستقرار هو مجتمع تتفاعل فيه الآراء كافة وتشترك في بناء وجوده كل القوى بوصفها تنتمي الى سيادة وطن موحد.

واذا كان علي حرب يعتقد ان: "مشكلة المثقفين هي من أفكارهم، فهم ضحايا أفكارهم أو انماطهم في التفكير، وهذا ما يجعلهم في كثير من الاحيان باعة أوهام وحراساً لأفكار عتيقة وبالية..".

اذا قال علي حرب كما نقله لنا الربيعو، فان اشكالية هذا القول تكمن في جوهره وليس خارجه.. المثقفون يجددون افكارهم، ويكتسبون معارف جديدة.. واذا لم يفعلوا ذلك جعلوا من افكارهم، أفكاراً ميتة يتجاوزها العصر بين مدة وأخرى.

المثقفون الجادون والمخلصون في ايصال رسالتهم الانسانية، يحرصون بالتأكيد على نشر آرائهم، مثلما يصغون الى الآراء الأخرى.

هذا التفاعل في الآراء هو الذي يشيع في الناس لغة الحوار والتفاهم والتكامل.. بعيداً عن الالزام والاكراه وممارسة أسباب التعسف والارهاب في فرض هذا الرأي أو ذاك.

ان مشكلة كتاب تركي على الربيعو، كونه يحاكم نفسه أكثر مما يحتكم الى الآراء الواردة فيه، وإلا أين هي صور الارهاب في الزام عدد من المفكرين العرب في تبني وجهة نظر وهمية، أو معاداة مفكر مثل جومسكي في أمريكا لمجرد أنه لا يتطابق مع السياسة الأمريكية او نفي وطرد وسجن وقتل عشرات الابرياء في كل مكان لا لسبب، إلا لأنهم يملكون رؤوساً يفكرون بها، ويرفضون ان يفكر الآخرون نيابة عنهم..؟

ان (عقلية التخوين) عقلية ارهابية تنادي بأحادية الخطاب.. وللباحث الدقيق نماذج كثيرة في مسيرة التاريخ.. توضح وتؤكد وتبرهن على حقيقة الارهاب الذي طال الانسانية على مدار الزمان والمكان.

الخسائر التي تسببها الثروات!

بات من المعلوم جيداً ان الثروة البترولية التي يمتلكـــها العـرب، تشـكل محورا رئيساً في رسم السياسة العربية والعالمية. ويقدر ما تحققه هــذه الـثروة من الرفاهية لتلك الاقطار العربية، بقدر ما تلحق الاذى في حياتـــها الاجتماعيـة واستقلالـها السياسي والاقتصادي ويكشف كتاب: "البترول والاخـــلاق" للدكتـور: انور عبد الله(*). ابعاد الاشكالات التي تواجه العرب نتيجة لاكتشاف هذه الـثروة، كما يوثق جملة من الممارسات السلبية التي مارسها عدد من المهيمنين على هذه الثروة الامر الذي اساء الى شخصياتهم والى بلدانهم..

في البدء يقدم المؤلف موجزاً تاريخياً عن استخراج وانتاج البترول .. فـ "في القرن التاسع عشر /١٨٧٥م في بولونيا وامريكا.. تكاثرت شركات التنقيـب وتم اكتشاف حقول جديدة في مناطق عديدة من العالم، ولكن البترول ظل محصور الاستعمال ولم ينتشر على المستوى العالمي الا في اوائل القرن العشرين والتحديد عام ١٩١٣م حيث أبتدأ عصر البترول.. اثناء الحرب العالمية الاولى.. واضحـى من يملك ينابيعه مالكاً لمفاتيح انتصاره في الحرب. وادى فيضان البـترول فـي

(*) البترول والأخلاق / د انور عبد الله ــ الحقوق محفوظة للمؤلف / ١٩٩٣ ــ لم يذكر الناشر ولا البلد الذي صدر فيه الكتاب!

مجتمع الجزيرة الى: "تفكك الروابط الاسرية الاجتماعية وبروز مجتمع التخمة والتبذير".

ويرى المؤلف ان هذا المجتمع الذي اكتشف البترول في اراضيه كان "بطي التحول" محتفظاً بجمله وخيمته الى جانب اجهزته الحديثة وبضاعته الاجنبية وحياته الباذخة وتنوع مائدة طعامه وتخمة معدته.. بينما تمتد تقاليد السلف الصحراوي وسيادة القبيلة والتمايز بين سكان الحواضر وسكان البادية... وبينما كانت الموارد الاقتصادية تعتمد على: النتاج الرعوي، الزراعة، والتجارة، والحج.. وبقاء "الجمل الرمز الواضح لوسائل الإنتاج" في حين برز التناقض بين: الاخلاق والقيم الصحراوية القائمة على الاعتزاز بالنفس وعشق الحرية والعراقة والقبلية والفروسية واحتقار الحرفية، والاقطاع القائم على روح الذل والخنوع وعد الفلاح ملحقاً بالارض.

وجاء البترول ليخلق فئة محافظة، ترفض كل ما هو حضاري، الى جانب طبقة ثرية.. اصبحت فيما بعد "ركيزة سياسية قوية لحماية المصالح الامريكية" في ظل "غياب معارضة سياسة منظمة.." واصبح المفتي الاكبر محمد بن ابراهيم يوضح ويؤكد: "اننا اذا اخطأنا في الحساب، فلأن قلوبنا لاهية في ذكر الله" وتم تبرير تلاعب بعض رجال الدين باموال الاوقاف على وفق مفهوم: "عفا الله عما سلف، ارسلوا من يعلمهم الحساب".

فمثل هذا التبرير غير المحكوم بالعدل والمنطق.. من شأنه ان يوسع قاعدة الخطأ.. بسبب وجود من يبرر الخطاء بدعاوى غير منطقية وغير سليمة.. ويمضي المؤلف قائلاً: "لو سئل ماركس او اسكار لانجه او غيرهما من علماء الاقتصادي / هل من الممكن ان تتحول شرائح من البروليتاريا ومن المعدمين الفقراء، الى مصاف الطبقة البرجوازية الكبيرة في ليلة وضحاها، دون الاستيلاء

على فائض القيمة ودون سرقات ظاهرية؟ لأجاب بسخرية ومرارة: نعـــم ممكــن ولكن في جنة عدن..".

انه الانتقال الموهوم، والظاهرة التي سادت في الحيـــاة الدنيـــا والتـــي لا يحكمها الصدق والعدل والمنطق.. انها الاستحالة التي انجزت فعـــلاً!! واصبـح بمقدور هذه الفئة التي اكتنزت سريعاً، وفي غفلة من الزمـــان، ان تقيـم وليمــة لاطعام قرية صينية، او مدينة كاملة في افريقيا ــ كما ينقـل لنــا المؤلـف عــن فيلبون.

وفي المجتمعات البترولية ــ يقول المؤلف ــ "توفرت خصلة جديدة اثــارت دهشة الاقتصاديين في عصرنا الراهن، واحتار البعض في ايجاد التفسير العلمـــي العقلاني لهذه الظاهرة اللعينة والملازمة للمجتمع البترولي ــ العربي، فعلى الرغم من معرفتهم بان هذه المجتمعات.. مجتمعات استهلاكية مكعبة، أي أنها تبذر فـــي رمال الصحراء اكثر مما تستهلك، شكلت هذه الظاهرة الطابع المميز للمجتمعـــات البترولية الهشة التي اقترن فيها نزول الثروة البتروليـــــة الهائلـــة مــع انعـدام التخطيط العلمي وفقدان السمو والطموح في بناء المجتمع والانسان بما يتناســب وتحديات العصر.. وتم اتخاذ نهج آخر قائم على فتح اوسع الابواب امام الاستيراد والتسابق فيما بينهم على كمية الاستهلاك والتبذير والابهة الفارغة.. مما شـــجع على التوغل في النهج اللاعقلاني واللامسؤول".

ووجود مجتمع استهلاكي، من شأنه ان يعطل الطاقة المنتجة ويحولها الـــى عناصر لا هدف لها من الحياة سوى الاستهلاك الكسول.. الأمر الذي يجعل طاقات الافراد غائبة واقتصاديات البلاد مبددة ومستثمرة من قبل دول اجنبية وتعتمد على المادة الدولية الموجودة في تلك البلدان، واعادة تصديرها اليهم على شكل ســلع مصنعة وبيعها الى تلك البلدان المنتجة للنفط ولكن باسعار مضاعفة.. الأمر الـذي

يدر ارباحاً هائلة تفيد منها الدول الاجنبية التي تتولى استخراج واستثمار النفط.. ويجعل منها دولاً فاعلة في رسم السياسة التي تريدها نافعة لها ومؤكدة لشرعية وجودها في نهب اقتصاديات تلك البلدان المنتجة للبترول!.

وكان انعكاس هذه السياسة البترولية على المجتمع كالآتي:

- تدني مكانة الام في العائلة.
- جمود راطبة الأخوة.
- ظهور الطفل البترولي.. الذي يتعلم على يد شيخ، ويربى على يد مربية أجنبية!

و.. كان من جراء ذلك.. انتشار امراض جديدة منها:

- مجتمع.. تتحكم فيه علاقات انتاج متخلفة.
- ايديولوجية سلفية جامدة.
- الاستعداد للاستسلام المحكوم بالقدر والغيبيات.
- فقدان الحس والنشاط والحيوية والابداع.
- ظهور الفرد في حالتين متناقضتين / فهو نصف متحضر، ونصف بدوي.. الأمر الذي جعله يصاب بأمراض: فقر الدم، أم[illegible] انتشار التراخوما والبلهارزيا في الواحات..
- بقاء النعرة القبلية والتعصب العشائري.
- ظهور أمراض: العصاب وانفصام الشخصية، الادمان على المخدرات، الانتحار، الخوف، الانزواء، انتشار الغيبيات.
- انتشار الجريمة.. وفقدان الأمن.

ويناقش المؤلف.. وضع المرأة في المجتمع البترولي.. الذي يكبل المـــرأة ويحجم وجودها.. وبات هذا المجتمع يسعى لغرس الطاعة العمياء التـــي ينبغـــي للمرأة ان توليها نحو زوجها أو ولي امرها..

كما قدم قائمة طويلة بالمحرمات التي يفرضـــها مجتمـــع البـــترول علـــى المرأة.. حتى يجعل منها كائناً مغيباً كلياً إلا في ناحية واحدة هي خدمة الرجل!!

لكنه الى جانب ذلك، يشير الى نواحٍ ايجابية عديدة في المجتمع مثل:

- انتشار التعليم النسوي.
- تحسين الوضع المادي المعيشي.
- مساهمتها في الحياة الاجتماعية.
- ساعدت الثروة البترولية على سفر المرأة واحتكاكها بالعالم الخـــارجي الامـــر الذي وسع ثقافتها وأذكى فيها الاحساس بتأكيد شخصيتها.
- اسهامها ـ على تواضعه ـ في الحياة الثقافية.. وبروز عدد مـــن الطبيبـــات والمعلمات والصحفيات.. لكن وفرة المال جعلها في كثير من الاحيان، تتخلـــى عن حريتها وعملها حتى انسانيتها مقابل المال، حتى اصبح (المـــهر) مؤشـــر قبول، والوظيفة أو العمل.. من الأمور غير المرغوبة عند المرأة، كما جعلـــها تسرف في المأكل والملبس والبذخ والافراط غير المسؤول..

وظهرت فتاوى غريبة نشرتها صحف ومجلات بترولية تقول:

"راتب الزوجة حق خالص للزوج، لأن الزوجة وما تملك، ملك لزوجـــها" و "ليس للمرأة حجم انتاج في أي عمل سوى الكلام الفاضي والمشاركة الفعلية لـــها في طاعة زوجها فقط" و"المرأة ليست حريـــة بالثقـــة" لكـــن ردود فعـــل المـــرأة البترولية كان حاداً:

"ارجع الى ناقتك، داوها من الجرب" و "انك ترفض الفتاة المتعلمة لأنك تخاف منها" و "خذوا زوجي واعيدوني للجامعة".

هذه المفرقات.. الموثقة من قبل المؤلف، تشير الى انعدام التوازن الاجتماعي بسبب فقدان السياسة المحكمة والوعي الاقتصادي المتوازن..

ويرى المؤلف.. انه اذا كان الرق القديم قد اختفى، فان بوادر ظهوره على نحو آخر باتت واضحة للعالم من خلال: الخدم، العمالة الناعمة، الفقراء.. وتشير الصحف الصادرة في الاقطار البترولية الى سلسلة من اعلانات التحذير التي تدعو لعدم التعامل مع (المخدوم)!

ونتيجة للاسراف برزت ظواهر غريبة في المجتمع البترولي.

يقول المهندس الشهير: حمدي ذياب / "طلب مني احدهم، ان اعمل له بيتاً على شكل فيل، فقلت له مندهشاً: امهلني شهراً.. فجمعت اغراضي وسافرت قبل أن يأتي آخر يطلب مني ان اعمل له بيتاً على شكل حمار!".

وينقل المؤلف عن زوجة موسرة، تنتمي لعائلة بدوية ارستقراطية تملأ الحوض بالعطر الباريسي الفاخر للاستحمام..!

وفي صورة إخرى نقرأ ما يأتي: "دخل نديم على أحد الموسرين فوجده وحيداً في مجلسه يبكي، فاستغرب النديم قائلاً "ما يبكيك وانت بهذه النعمة والرفاه؟ فأجابه الموسر: هذا هو الذي يبكيني / كل ما اطلبه يتوفر لي".

واذا عرفنا ان معنى (السعادة) عند ابن خلدون: "حصول النعيم واللذة باستيفاء كل غريزة ما تشتاق اليه من مقتضى طبعها وذلك هو كمالها" فإن السعادة قد تحولت الى نقمة على الذين يعيشون في ظلها بسبب عدم ادراكهم لكيفية العيش سعداء.. في عالم يحتاج ان ندرك فيه تماماً "كيف ينبغي ان نعيش بسعادة تامة بعيداً عن أية مشكلات يمكن ان تحول دون تمتعنا بالسعادة.

ان كتاب: "البترول والاخلاق" قد يبدو للوهلة الأولى انه يحـــاول ان يديـــن دولا وشخصيات مترفة، إلا ان التوغل في عمق صفحاته، يجعلنا نــــدرك الجـــهد المبذول لتقديمه على نحو موضوعي يكشف من خلاله عن الظواهر التي خلقـــها اكتشاف البترول في مجتمعنا العربي، بهدف التوجه لمعالجتها معالجـــة جــادة.. خاصة وان سلسلة من الدراسات تؤكد ان البترول يمكن ان ينضب وانه لابد مـــن البحث عن سبل لايجاد البدائل.. حتى لا نفاجأ بعقبات يصعب علينا معالجتها فـــي مجتمع بات الاستهلاك احد أسوأ مظاهره.. التي تنخر فيه وتجعله ملحقا بــالآخر.. من دون ان يكون فيه الانسان كما ينبغي له ان يكون.. فاعلا ومؤثـــرا ومنتجـــا وحرا في تقرير وجوده.

مشاريع المياه في استراتيجية (اسرائيل)[*]

متى اعترفت بوجود الأخر، اعترفت في الوقت نفسه بحقوقه.. فلا حقوق لاحد عندما لا تعترف اساساً بوجوده. الكيان الصهيوني، من ابرز النظم العنصرية التي لا تعترف اصلاً بوجود الآخر.. فكيف تعترف بحقوق لمن هو ملغى؟

وكتاب: "لا أحد يشرب / مشاريع المياه في استراتيجية اسرائيل "لطارق المجذوب، يحتوي على مؤشرات وبيانات وجداول وارقام ووثائق وحقائق كثيرة دالة على حجم الاهداف التي تتخذها (اسرائيل) لتحول دون وصول ماء العرب للعرب! ويكمن السبب في ذلك الى اهداف استراتيجية تعنى بايجاد ثروات مائية للاقوام الصهيونية التي نزحت من شتى الاراضي واتخذت من ارض فلسطين (وطناً) بديلاً عن اوطانها السابقة..

وتعد المياه في مقدمة ما ينبغي على (اسرائيل) توفيره لهذه الاقوام بغية شدها وتثبيت وجودها في (الوطن الجديد). ومثل هذا الامر يتطلب ان تعد (اسرائيل) خطة متكاملة تمنع بموجبها تدفق المياه الى العرب، وتسعى لتوفيرها لسواهم!

(*) لا أحد يشرب / مشاريع المياه في استراتيجية اسرائيل، تأليف: طارق المجذوب ـ شركة دار الريس ـ بيروت . ط١٩٩٨/١ ـ ٣٠٢ ص٣.

انما ترى: "ان مستقبل فلسطين باكمله هو بين يدي الدولة التي تستطيع بسط سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الاردن".

هذا الامر يجعل (اسرائيل) ترفض الانسحاب من الاضفة والقطاع: "من دون احداث تعديلات نوعية على حدودها تسمح بالاحتفاظ بجزء من مصادرها المائية. ومن المهم ان يقوم الخبراء في المياه بدور حاسم في تعيين الحدود النهائية لاسرائيل". ومع ان الموارد المائية لـ (اسرائيل) يصل الى ١٨٥٠ مليون م٣ (٤٦%) من نهر الاردن (٣٥%) من ابار الضفة الغربية و (١٥%) من ابار الساحل و(٤%) من مصادر مختلفة، الا ان (اسرائيل) اعلنت عن "حاجتها الى ٣٥٠ مليون م٣ والمتوقع ان يصل الى المليار في نهاية القرن العشرين"..

هذه (الحاجة) التي تعلنها (اسرائيل) جعلت تركيا تعيد النظر في سياستها المائية وتخلق ازمات جديدة مع العراق وسوريا.. وتتفق مع (اسرائيل) لتزويدها بكمية من المياه تتراوح بين: (٢٥٠ ــ ٤٠٠ مليون م٣ سنوياً)!

ووضعت (اسرائيل) العديد من المخططات والمشاريع للاستيلاء على مياه لبنان.. وهيمنت فعلا على عدد من الروافد من نهر الاردن (الحاصباني والوزاني) وعدَت ذلك ضمن (حزامها الامني) ثم راحت ترسم خطتها للسيطرة شيئاً فشيئاً على نهر الليطاني مغيرة في طوبوغرافيا المنطقة.. كما وضعت تكتيكاً (مرناً) عند (مباحثات السلام) من شأنها ضمان اكبر قدر من المياه لصالحها.. وصممت ونفذت مشاريع عديدة تستثمر المياه افضل استثمار.. كتوليد الكهرباء وبناء الخزانات.. وتشكل مياه الجولدن ثروة لـ (اسرائيل) الامر الذي يجعلها تبحث عن ذرائع "تخفي اطماعها المائية" وترسم الخطط لتحويل الموارد المائية لصالحها.. وفي وقت "تتظاهر بالرغبة في الانسحاب من الاراضي العربية تقدم

على فرض واقع استيطاني في المنطقة ذاتها، والمشاريع السياحية التي ترعاها..".

كما برزت أطماع (إسرائيل) في مياه النيل (منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال عام ١٨٩٧ ورفع شعار: حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل) إلى جانب أطماعها في مجرى نهر الأردن وبحيرة طبريا والتي تشكل نسبتها ٣٧% من موارد (إسرائيل) المائية، فضلاً عن مياه الضفة الغربية ومياه اليرموك..

وفي فصل بعنوان (المياه جسر عبور اسرائيلي إلى المجتمع العربي) يقول طارق المجذوب: (تمر المنطقة العربية على صعيد الإمكانات والحاجات المائية، بمرحلة عصيبة، فقد أصبحت على قاب قوسين أو أدنى من أزمة حادة تتجلى في تقلص حصة الفرد من المياه) ويرى المحللون (بأن المنطقة ستواجه في نهاية القرن العشرين نقصاً سنوياً مقداره مئة مليار م^3).

أما الكيان الصهيوني، فيمضي في أطماعه المائية.. إذ يجري الحديث عن (مشروع مياه قناة البحرين ـ مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الميت بقناة مائية..) و (مشروع (غور) أو نهر الأردن الجديد) و (مشروع القناة المائية العازلة في الجولان) و(مشروع الأدراج الحرارية لتحلية المياه في دول الخليج).

مثل هذه المشاريع وسواها، تعمد (اسرائيل) الى بسط نفوذها في المنطقة العربية والهيمنة على مصادر المياه كلياً..!

ازاء هذا الواقع.. واقع سلب اعظم ثروتين وهما: النفط والمياه.. وما الذي يمكن للعرب فعله في التصدي لهذه الاطماع الاجنبية التي تحاول ايقاف التنمية العربية المنشودة عبر الاستثمار الامثل للثروتين..؟

ان الاسئلة المطروحة الان:

ـ الى اين تسير مشكلة المياه في الاقطار العربية؟
ـ وما هو مستقبل العرب في ظل التجزئة، والتنسيق الاقليمي، والوحدة العربية؟
ان "ميزان المياه.. ان يكون لمصلحة تركيا او اثيوبيا او اسرائيل"!
ويحذر المؤلف من المشروع المائي التركي ولاسيما (شـــروع جنـوب شـرق الاناضول / الجاب) والذي "سيكون له في المستقبل القريب قيمة اكبر مـن قيمـة النفط، لان المياه ثروة نادرة جداً في بلدان الشـرق الاوسـط الخمسـة عشـر". ويوضح مشروع الجاب كونه: "مشروعاً تنموياً ضخمـاً علـى مجـاري دجلـة والفرات في تركيا ويشمل ١٣ مشروعاً رئيساً للري وتوليد الطاقـة الكهربائيـة وسيروي المشروع زهاء ١,٧ مليون هكتار من الاراضي التي هي حالياً اما غـير مزروعة واما قليلة المياه، وحجم الانفاق والمتطلبات المالية للمشروع هائلة بكـل المعايير، ووصل مجموع الانفاق منذ عام ١٩٨١ الى ٩ مليارات دولار، وتقـدر التكاليف.. تصل الى حدود ٣١ مليار دولار". وهذا يعنـي ان المنطقـة العربيـة ستعاني من عجز مائي مرتقب، وان هناك مواجهة نقص وشـيك فـي الطاقـة، وستكون اقتصادات الطاقة الكهربائية في العراق ومصـر وسـوريا والأردن فـي ازمة حادة. يدعو المؤلف الى تلافي النزاعات المرتقبة بالتعاون الاقتصادي بيـن دول المنطقة والاستفادة من الثروات المائية في تنمية هذه البلدان المجاورة بمـا يخدم مصالحها جميعاً. ان الطروحات التي يقدمها هذا الكتاب، طروحـات بالغـة الدقة والاهمية وفيها من التفاصيل ما يجعل القارىء يتبين فداحة الازمـة التـي سيواجهها العرب في مستقبلهم القريب، وذلك جـراء الاساليب التـي تتبعـها (اسرائيل) وتركيا.. للهيمنة على موارد المياه بوصفها ثروات (وطنية) خاصة بها وليست ثروات دولية تشترك في استثمارها دول المنطقة كلها.. ان دراسة متأنية، وموقفاً ثابت، وعقلانية في رسم افاق مستقبل سلمي قائم على التعـاون والفـهم المشترك.. من شأنها ان تجعل المنطقة تعيش حالـة امـن ورخـاء وازدهـار.. وبعكس ذلك فان ازمة المياه ستكون هي المشكلة التي ستؤدي الـى كثـير مـن المحن والمصاعب وعدم الاستقرار.

كيف يتم نهب الشعوب.. بأسم المعونات الإنسانية؟[*]

يثير عنوان كتاب غراهام هانكوك: (سادة الفقر) الكثير من الأسئلة.. فقد ظلت كلمة (السادة) تطلق على الاغنياء لأمد طويل.. وإذا بهانكوك يطلقها على ظاهرة الفقر.. التي ينوء تحت ثقلها كثرة من البشر في انحاء العالم. وعندما نقرأ الكتاب نفاجأ بأرقام ووثائق هائلة يصعب علينا ان نصدق كل ما ورد فيها، وذلك بسبب غرابتها وبشاعة صورتها وتداخلها في شؤون عديدة وقضايا صعبة عند وضعها في موقع المنطق والحقيقة..

ألا ان الخبرة الصحفية الطويلة التي امتلكها غراهام هانكوك وعمله في وكالات العون والغوث ووجوده في تماس مباشر مع الناس في بلدان العالم الثالث الى جانب عمله في الوكالات الانسانية، جعلتنا نصدق ما ذهب اليه من حقائق وأرقام وأحداث ووثائق.. بحيث أصبح الكشف عنها مثار تساؤلات ملحة..! يقول هانكوك: "هذا الكتاب موجه ضد مجموعة البيروقراطية الفنية التي اختطفت من قلوبنا الرحمة، والبيروقراطية التي أعني هي اولئك الذين يريدون المعونة الغربية

---

[*] سادة الفقر ـ تأليف: غراهام هانكوك، ترجمة: د.: ناصر السيد ومسمار السفيد، دار الحداثة /بيروت. ط١ / ١٩٩٤ ـ (١٩٠) ص.ك.

ثم يرسلونها الى فقراء العالم الثالث بطريقة وصفها (بوب غيلدوف) مرة: (تشويه لفعل الكرم الأنساني)".

ولهذا السبب ـ يوضح هانكوك ـ كان "هجومي منصب بصورة مبدنية على منظمات العون الرسمية".

وحين نتواصل مع كتاب (سادة الفقر) نتبين كم كنا في حالة غياب تام عن العالم المحيط بنا، وكم استغفلتنا (المنظمات الانسانية) وكم كانت لا إنسانية في تعاملها مع البشر في انحاء العالم.. وكم كان مفهوم (الدعم) و (المساعدة) و (المعونة) التي يعلن عنها.. كاذبة!!

كذلك.. نتبين حجم الخسائر التي تدفعها البشرية من الأرواح والدماء والثروات والتضحيات.. وكم يغدق على نفر محدود من الأموال باسم فقراء العالم.. حتى يكونوا هم (السادة) على الفقراء ـ العبيد!

وليس بوسع قارىء هذا الكتاب المهم والمثير والنابه إلا أن يتساءل عن الأسباب التي تكمن وراء الصمت عما ورد فيه من حقائق.. يقول هانكوك:

"ان الغذاء المقدم من المجموعة الأوربية كهدية، عادة ما تصحبه الكثير من الشكاوي من المنتفعين" بناء على قول عضو البرلمان الأوربي رتشارد بالف:

"(أنه من غير المقبول تماماً أن نقوم بتصدير غذاء لا نأكله نحن أنفسنا".

وفي أعقاب انتشار الإشعاع الصادر عن حادث شرنوبل في روسيا عام ١٩٨٦ تحولت كميات من الأغذية الملوثة التي تعد قانونية في أوربا إلى شحنات إعانة، ويكشف المؤلف عن (المساعدات) التي قدمتها إحدى المنظمات التطوعية الأمريكية الخاصة إلى كمبوشيا إبان المجاعة الكبرى هناك ٧٩ ـ ١٩٨٠ إذ تبين أن : "الغذاء كان قديماً لدرجة أن أصحاب حدائق الحيوان رفضوا إعطاءه

لحيواناتهم في سان فرانسيسكو، كما أن فعالية الأدوية قد أنتهت قبل خمس عشرة سنة".

ونقل المؤلف عن باربزلفيا، موظفة الصحة العامة في نيكاراغوا انه "في كل مرة يتم فيها منح الادوية تكون هناك جرعات اضافية من حليب المانيزيا.. وانه يمكن استخدامه في طلاء المبنى" و"قامت منظمات الاغاثة بشحن ٨٠٠ حقيبة من أغذية الاطفال الفاسدة لأحد معسكرات اللاجئين في هندوراس" و"تسلمت بتسوانا ٥٠٠ طن من الألبان المجففة التي لم تضف اليها الفيتامينات الأمر الذي يعد مخالفاً لأبسط القواعد البديهية".. وشحنت المجموعة الأوروبية (١٥) ألف طن من الذرة الشامي الى مناطق موزمبيق المتأثرة بالمجاعة و"عند وصول تلك الشحنة وجد أنها قديمة ومليئة بالحبوب المكسرة والأوساخ والطين وبذلك أصبحت غير صالحة لاستهلاك الانسان، وشحنة أخرى من (٢٦) ألف طن من الذرة الشامي أرسلت كمساعدة غذائية لشعب النيجر، تبين عند فحصها بواسطة المراجعين انها لا يمكن ان تكون مقبولة حتى كغذاء للحيوانات" وفي "عام ١٩٨٣ أوقفت المغرب استخدام (٢٤٠) طناً من الشحوم لصناعة الصابون تبين ان الزيت يحتوي على أربعة اضعاف اعلى معدل جرثومي مسموح به من قبل النظم الأوروبية، واتلفت تونس (٣٤٥) طناً من زيت الشحوم الأكثر خطورة لاحتوائه على نسبة عالية من البروكسيد وتلوثه بالديدان" وعن الامتيازات التي يتمتع بها موظفو الأمم المتحدة يقول المؤلف:

"اعفاءات جمركية في الكحول وغيرها.. ومرتبات عالية تبلغ في المتوسط (٥٥) ألف دولار سنوياً، وبالمقابل فان وزراء الحكومة الصوماليين الذين يتقاضون أعلى المرتبات، عليهم ان يعملوا خمسين عاماً ليحصلوا على المبلغ نفسه".

وعن ديون العالم الثالث التي تبلغ الترليون دولار يقول:

"ان اعادة دفع الارباح واصول الدّين تكلّف البرازيل مثلاً ٤,٥ مجموع العائد من صادراتها السنوية، وهو مبلغ يعادل الحد الأدنى لأجور ١٦ مليون عامل.." ويصل الى حقيقة مفادها: "ان العالم الثالث هو نتيجة للمعونة الأجنبية، ومن دون معونة أجنبية ليس هناك عالم ثالث".

وينقل عن السناتور هيوبرت همفري.. قوله: "لقد سمعت بان الناس قد يعتمدون علينا في غذائهم، فاذا اردت ان تنظر الى طريقة تجعل الناس ينحنون ويعتمدون عليك على أساس تعاونهم معك، فان الاعتماد الغذائي سيكون رهيباً".

ويقول جون كينيدي عام ١٩٦١: "ان المعونة الأجنبية وسيلة يمكن للولايات المتحدة عن طريقها ان تثبت مركز نفوذ وسيطرة حول العالم، وأن تدعم عدة دول قد تنهار بالتأكيد وتنظوي تحت الكتلة الشيوعية، وبعد سبع سنوات أضاف نكسون: "دعونا نتذكر بان الهدف الرئيس من المعونة ليس هو مساعدة الأمم الأخرى بل مساعدة انفسنا أيضاً".

وعن عمل الأمم المتحدة يوضح غراهام هانكوك:

"ان العمل في الأمم المتحدة في أي وظيفة قيادية يعني الانضمام للارستقراطية المتميزة المنعزلة بصورة فعالة عن متاعب الحياة اليومية، ففي الفاو في روما هناك (٧٥٠) فرداً تتراوح مرتباتهم بين (٧٠ ــ ١٢٠) ألف دولار في العالم يقع بضمنهم (١١) مساعداً للمدير و(٣١) من كبار المديرين و(١٢٥) مديراً و(٣٦٢) ضابطاً كبيراً و (٢٢١) ضابطاً أول. ان أمين عام الأمم المتحدة يتقاضى ما يعادل ثلاثة أضعاف مرتب رئيس وزراء النرويج، وكثير من موظفي الأمم المتحدة في تزايد والذين في الدرجات الممتازة يتقاضون رواتب اكثر من أي موظف عام أمريكي عدا رئيس الجمهورية. أحد هؤلاء الرجال نائب السكرتير

العام الذي تقاعد مؤخراً بمصافحة وداع ذهبية بلغت نصف مليون دولار زائداً راتبا سنويا بلغ (٥٠) ألف دولار، ولم يمض وقت طويل حتى تم تعيينه مستشاراً بمرتب (١٢٥) ألف دولار في السنة".

مع كل هذه الأموال الضخمة.. ماذا فعل هؤلاء أمام: "(٤٠٠) مليون طفل في العالم الثالث لا يستطيعون الذهاب لأي مدرسة.. انهم فقراء جداً لدرجة انهم لا يستطيعون ان يأكلوا و(٢٨٠) ألف منهم يموتون في كل أسبوع بسبب الظروف المصاحبة لسوء التغذية"؟

ان ما فعلته منظمة اليونسيف عام ١٩٤٦ لأطفال بلجيكا.. مرعب، مرعب تماماً.. فقد كشف النقاب عن حلقة جنسية للأطفال، وأخرى لأخذ صور فاضحة وتم التستر عليها أمام "اموال أمريكية لدعم المنظمة"!

.. من هنا وجد كثرة من الناس في صوت (رانوي) / شيخ قبيلة اكسنفو البرازيلية خبر مفاده:

"لا نريد شيئاً من الرجل الأبيض، لقد جلب لنا فقط الموت والمرض والقتل، لقد سرق غاباتنا، وانه يريد ان يقضي عليها جميعاً".

ونجد في وصف البروفيسور بول سترتين من جامعة بوسطن ومستشار البنك الدولي من الدقة والموضوعية بحيث يمكن ان يوجز لنا الحقيقة، يقول:

"ان المرتبات العالية ومستوى المعيشة العالي الذي يعيش فيه هؤلاء الخبراء، يجعلهم بعيدين عن المجتمعات التي يعملون فيها، انهم كالزهرة التي ليست لها جذور سرعان ما تذبل".

وفي (الدعم) و (التنمية) نجد أن ما يسمى عجلة (التقدم والتنمية) تسحق آلاف الاميال من الغابات في اندونوسيا والبرازيل.. ويشبه عمل المنظمة (الانسانية) قنبلة هيروشيما.. وفي غانا تم بناء سد يعطي الكهرباء للمناطق

الأكثر رفاهية بينما يدفع الفقراء ثمن المشروع.. ويعاني كثرة منهم من العجز والمرض والعمى بسبب طفيليات الماء التي تسبب فيها بناء السد.. وزاد على مأساة الفقراء مأساة جديدة!!.. وهكذا يتم انشاء "مشاريع لا قيمة لها، بل هي أحياناً مؤذية لاولئك الذين يفترض ان يستفيدوا منها" انها "مشاريع تلبي حاجة بيروقراطيي الوكالات انفسهم واشباع رغبات العاملين النفسية والمهنية والحاجات التجارية للمتعهدين الذين تشتري منهم المعدات والخدمات.. انها ريح مريضة تلك التي لا تجلب لأحد خيراً".

ويكشف المؤلف بالأرقام حجم الفوائد التي تمنحها الدول الكبرى مثل أمريكا وبريطانيا وسواهما من (جهود المعونة) و (تقديم الخبرات) ويبدو الحصار مذهلاً!! أما مقر الأمم المتحدة في نيويورك.. فيكفي ان نعرف حجم النفقات السنوية فيه والتي تؤخذ من ميزانية المنظمة والتي تقدر بزهاء (٤٠٠) مليون دولار (١٢٥) الف دولار شهرياً قيمة غرامات وقوف السيارات!!

ولأن أمريكا تريد ان تحقق الفوائد لنفسها دائماً، نجدها وبأسم (المعونة) تقوم بانشاء مؤسسة التنمية الزراعية الجمايكية.. وتسبب في خسائر فادحة لجمايكا.. وعمدت أمريكا الى "خلط الجبن الذي عمره بين شهر وشهرين مع الكميات الجديدة" تفادياً للخسائر!

وفي الفلبين تم دفع (١٠٠) مليون دولار "للمجموعة الفنية التي استخدمتها ملكة الجمال السابقة راميدا ماركوس / في تجميل منازلها المفضلة..".

بينما كان حجم الدين الأجنبي ـ الذي تعاني منه الفلبين ـ قد بلغ (٢٦) بليون دولار تراكم حتى عام ١٩٨٦ عندما اقصى الرئيس فيردناند ماركوس".

و.. أنفق جان بيدل بوكاسا رئيس جمهورية أفريقيا الوسطى على نفسه مبلغ:

"(٢٠) مليون دولار كان من مجموع معونة ذلك العام ـ ١٩٧٧ ـ من أموال دافعي الضرائب.. وكان وضع التاج قد كلف (٢) مليون دولار" الذي زينت قمته ماسة عظيمة.

وقام لفّ نفسه بأردية وبكلفة (١٤٥) ألف دولار"!

وقد برر بكل هذه النفقات بقوله: "لا يمكن ان نصنع تاريخاً عظيماً بدون تضحيات.. وهذه التضحية مقبولة من السكان".

اما القرارات الضخمة لأفريقيا فقد ذهبت (للرجل السمين) بينما (الرجل النحيف) يعاني من الجوع.. وقد تم شراء أرضه في أزمة الجفاف بثمن بخس.. وهكذا تساعد المجاعة في ثراء الاثرياء!

وفي زائير ـ البيت الأكثر فقراً ـ لم يمنع (جوبوتو) ان يصبح أغنى رجل في العالم وتقدر ممتلكاته ـ محفوظة بوساطة المخابرات الغربية بعيداً عن زائير ـ (٤,٣) بليون دولار...

وفي هاييتي.. قدم صندوق النقد الدولي جزءاً من دين عاجل دفع بمبلغ (٢٢) مليون دولار.. "وبعد يومين اكتشف فريق من الخبراء ان الرئيس جان كلود دوفالييه قد قام بسحب (٢٠) مليون من هذا المال لأستخدامه الشخصي واختفاء (١٦) مليون دولار من وحدات حكومية، فضلاً عن ان البنك المركزي يدفع (١,٢) مليون دولار سنوياً.. كل ذلك حدث.. من قبل دوفالييه المساند لأمريكا".

هل يمكن المضي الى ما لا نهاية مع هذا الكتاب ـ الوثيقة، والذي يكشف عن الاساليب التي تمارسها أمريكا من خلال منظمة دولية يفترض ان تكون

معبرة عن آمال وطموحات الدول التي تمنحها الثقة.. فاذا بها تعبر عن سياسة أحادية لأمريكا وخدمة عملائها ودأبها على ان يسود الفقر في العالم، حتى يكون الامتياز لمنظمة ترعى مصالح أمريكا.. بكل السبل..؟ هذا الكتاب.. لا بد ان يقرأ من قبل كل انسان يبحث عن حقيقة ما يجري.. حقيقة السلب والنهب والاستغلال التي تمارس ضد الشعوب.

صنع عسكري وامتياز الجنرالات!

تكمن أهمية اصدار أي كتاب الآن.. وفي عصر نشهد فيه جملة متغيرات على صعيد التلقي ونقل المعلومات. وما يرافق ذلك من تأثيرات بالغة الأهمية على الأصعدة السياسية والاقتصادية والفكرية كافة، والأهم منها جميعاً. القيم الاجتماعية التي باتت تواجه سلسلة من المتغيرات المتلاحقة.

نقول.. تكمن أهمية أي كتاب جديد في مدى التأثير والفاعلية التي يشكلها أمام القارىء الراهن تحديداً، انطلاقاً من ان هذا الكتاب موجه الى قارىء يعيش جملة متغيرات معاصرة، وليس بمقدوره عزل نفسه عنها.

من هنا نجد في كتاب "صنع تركيا الحديثة"(*) الصادر حديثاً الكثير من الأهمية بوصفه يتحدث عن بلد بات يؤدي "دوراً سياسياً بارزاً" ويسهم في رسم السياسة العالمية الراهنة من جهة، الى جانب تأثير تركيا التاريخي في الحياة الاجتماعية العربية على مدى "ستة قرون من حكم السلالة العثمانية المتواصل.."

(*) صنع تركيا الحديثة ـ تأليف: فيروز أحمد ـ ترجمة: د. سلمان داود الواسطي ود. حمدي حميد الدوري، منشورات بيت الحكمة ـ قسم الدراسات الاجتماعية ـ بغداد ١٩٩٩.

والذي تحولت فيه الدولة العثمانية الى امبراطورية واسعة لمؤسسة عسكرية عظمى "فتحت بقاعاً واسعة في أوروبا وأفريقيا، لا بل هددت فينا مرتين: في العام ١٥٢٩ والعام ١٦٨٣.." ولعل كلمة (صنع):

"هي العملية التي تبنتها النخبة السياسية العثمانية ـ التركية مع بداية القرن العشرين".

ويؤكد المؤلف: فيروز أحمد ـ استاذ التاريخ في جامعة (ماساجوستس) في بوسطن ـ الولايات المتحدة، والمتخصص في الشؤون التركية، وله في هذا المجال كتاب: (الشبان الترك ـ ١٩٦٩) وكتاب: (التجربة التركية في الديمقراطية ـ ١٩٧٧) وهذا الكتاب الذي نحن بصدد عرضه ومراجعته والصادر في طبعته الأولى وبالانكليزية عام ١٩٩٣ في لندن يؤكد: "اتجنب عصر الطوعية الذي توحي به مصطلحات مثل (نهوض) أو (تطور) أو (نشوء) تركيا الحديثة، ان تركيا لم تنهض، كما يقال عادة كالعنقاء من رماد الامبراطورية العثمانية، بل انها (صنعت) على صورة النخبة الكمالية التي ربحت في نضالها الوطني ضد الغزاة الاجانب وضد النظام القديم".

ان هذا (الصنع) التركي، صنع عسكري، استطاع ان يشكل نفوذه وهيمنته عبر تاريخ تركيا كله.. حتى الحاضر، وربما المستقبل ـ وان كل هذا المستقبل غير محسوم، ولكن يمكن ان نتصوره على المدى القريب على الأقل وذلك من خلال حرص السياسة التركية على تحصين جيشها واقامة علاقات دولية تنتهج سياسة بناء مجتمع عسكري لا مدني.

وأمامنا تجربة حكومة رئيس الوزراء التركي سليمان ديميريل التي أطلحت بالجنرالات عام ١٩٨٠ وجاءت بحكومة مدنية.. إلا ان الصلاحيات الرئاسية لدستور ١٩٨٢، مكنت الجيش من معاودة نشاطه من جديد.. وضمن اجراءات

صارمة "اصبحت القوات المسلحة عمليا مؤسسة مستقلة بذاتها. ولم يعد بإمكان الحزبين الرئيسين: حزب العدالة وحزب الشعب الجمهوري ان يتلاعبا أو يناورا بالجيش لأغراض سياسية ضيقة، بل عد الجنرالات حراس النظام الجديد الذي خلقوه..".

ترى.. لماذا بقيت الهيمنة العسكرية هي السائدة؟

ان مؤلف الكتاب لا يجيب عن هذا السؤال المهم سوسيولوجيا كما ينبغي، وانما يدرس تركيا من منطلقه التاريخي حسب، لنتبين من خلاله استنتاجاتنا لمعرفة الجواب، وهو ان تركيا.. كانت وما زالت تخوض صراعات حادة بين قوميات عدة من جهة، والتوجه الإسلامي من جهة أخرى.. ومحاولة تركيا ان تظل بلدا علمانيا.. ولتظل فيه امتيازات الجنرالات هي المميزة والفاعلة في المجتمع التركي.. صحيح ان مصطفى كمال (أتاتورك) قد أقام نظاما جديدا بعد اطاحته بـ (الشبان الاتراك) عام ١٩٠٨ ومحاولته "رفض تلك التركة تماما وإلغاء النظام الملكي ونفي افراد السلالة الحاكمة وانشاء جمهورية علمانية". إلا ان اقطاعا بناه السلاجقة الذين قدموا من بلاد الاناضول واطاحتهم بجيش البيزنط عام ١٠١٧، جعل من سيادتهم في القرن الخامس عشر، سيادة القوي والمؤثر الذي لا يمكن اقتلاع جذوره بسهولة.. على الرغم من دحرهم من قبل المغول عام ١٢٤٣م.. فلقد ظل شعارهم: "إذا عدت سأكون غازيا، واذا مت سأكون شهيدا" مما جعل من قيادة (عثمان): "الرجل الذي اعطى اسمه لسلالة حاكمة دخلت اللغة الانكليزية تحت اسم السلالة العثمانية Ottoman" حتى صار لقب (غازي): "أكثر التركات وضوحا مما ورثه القوميون الأتراك برغبة وارادة عن العثمانيين، وتبنى الحكام العثمانيون، بدءا بعثمان، هذا اللقب واستخدموه مفضليه حتى على لقب (سلطان)" حتى صار: "من الدلالات الروحية والرمزية ما حدا بالجمعية الوطنية

ان تمنحه لمصطفى كمال باشا خلال الحرب ضد اليونـان، وعلـى الرغـم مـن التزامه بالعلمانية، فانه استمر في استخدامه حتـى عـام ١٩٣٤ حيـن منحتـه الجمعية لقب (أتاتورك) أو (الأب ترك) أو (أبو الاتراك)".

ويؤكد المؤلف: "ان مصطلحات (غازي) و (شهيد) تستخدم حتى هذه الأيـلم كلما حاربت القوات المسلحة التركية.." في دولة وصفت بانها كانت "عبر التـاريخ العثماني قوة ديناميكية، لكنها قوة كانت دائماً عرضة للتحويـر والتعديـل خـلال القرون ولظروف متنوعة" وقد وصفها ماكيافيللي قائلاً:

"إن الإمبراطورية التركية بأجمعها يحكمها سيد واحد، وكل الرجال الآخرين عبيده" وقال عنها الفرنسي جان بودن: "ان ملك الترك يسمى السـلطان الأعظـم، ليس بسبب حجم ملكه، وانما لانه السيد المطلق على الناس والممتلكات فيه".

ويرى: فرانسيس بيكون ان "أية ملكية ليس فيها طبقة نبلاء هـي محـض طغيان مطلق، كما هي الحال مع الأتراك، لأن طبقة النبلاء تحد من نفوذ السـلطان وتوجه عيون الناس بعيداً عن الخط الملكي".

وكتب هارنغتون.موضحاً: "السلطان الأعظم، ذلك هو اللقب الـذي يحملـه السلطان التركي بسبب ملكيته، ان امبراطوريته ملكية مطلقـة، إذ ليـس جـائزاً قانونياً في تركيا ان يمتلك أي انسان أرضاً إلا السلطان الأعظم".

هذه الرؤى مجتمعة، تجعلنا ندرك تماماً.. لماذا يتباهى التركي بكونه غازيـاً أو شهيداً. ان الغزو يعادل الشهادة.. في حين ينظر الى الغزو في عصرنـا علـى انه عدوان وهيمنة واغتصاب لحقوق الآخرين، وهو مـا لا تقبـل بـه الأديـان والأعراف والقوانين في العالم أجمع.. لكن اذا كان السلطان نفسه يحق له مـا لا يحق لسواه.. اذن يصبح من حق افراد مملكته امتلاك ما يملكـه سـواهم بكـل

السبل! وهذا ما كان ينبغي ان يحلله فيروز أحمد ويوصله الينـــا، لا ان يعــرض حسب، ولا ان يقدم صورة مجردة.. منتظراً من القارىء التحليل والاستنتاج!

بينما نجده ــ المؤلف ــ يحلل علاقة الأتراك بالغرب، فقــد اخــذوا عنــهم المظهر، إذ لبس عدد من الطبقات العليا التركية الســـاعات موضــة لا إحساســاً بالزمن.. وكان احساسهم قائم على الخوف من مصادرة الدولة لثرواتـــهم، كمـــا كانت هناك فكرة الرضا عن النفس وعدم الانتباه الى الآخر..

واستقبل الأتراك أفكاراً متباينة لم يهضموها جيداً بسبب عزلتهم وهيمنتـــهم واعتدادهم بأنفسهم.. من هنا "انتشرت الفاشية وحققــت شــعبية فـــي الأوســـاط الحاكمة" بينما "الفاشية لم تسمح بأحزاب للمعارضة. إلا انها سمحت بالنقد داخــل الحزب الحاكم، لكنها لم تسمح مطلقاً بانتقاد مبادئها الأساسية".

ترى هل كان هذا ما تريده السياسية التركية على مر عصورها؟

لقد عمدت العلمانية التركية الى جعل "الدين قضية ضمير شخصية وحـــرر نظرياً، في الأقل، من استغلال الرجعيين له".

وهذا حسن، فالنظرة الى الدين مسألة سمو روحية شخصية في حين نجـــد أن في الأفكار الوطنية والقومية والانسانية، مســـألة يفـــترض ان تكـــون قائمـــة ومزدهرة ومتطورة ونيرة لدى كل انسان.

واذا عرفنا ان: "الامبراطورية العثمانية متعددة الأديان، متعددة القوميـــات، وأخذت هذه المشاعر تذكي اليقظة القوميـــة والانبعـــاث القومـــي فـــي اوســـاط الجماعات المختلفة" فاننا لابد ان ندرك الى جانب ذلك كون "الأتراك أخر من تبنـــى القومية، ذلك لأن مصلحتهم كانت تقضي تشجيع النظام الكوزموبوليتي (العـــالي، أو المتحرر من الاحقاد القومية) الـــذي كـــانوا حكامـــه، لـــهذا فانـــهم شـــجعوا الايديولوجية السلالية.. العثمانية لأطول مدة ممكنة، وحتى حزب الاتحاد والـــترقي

الذي يراه الكثيرون بوصفه طليعة الشعور القومي التركي، هذا الحزب سمى نفسه (اللجنة العثمانية للاتحاد والترقي..) كما ان "مصطلح (تركي) في أواخر أيام الامبراطورية العثمانية كان مصطلح سخرية، يستخدم للبسطاء والاجلاف من الفلاحين والقرويين وسكان المدن الصغيرة، وكان الناس، اذا كان لديهم الاختيار، يفضلون ان يعرفوا بانهم (عثمانيون) أي اعضاء طبقة اجتماعية لها ثقافتها ولغتها (التي تسمى عثمانية) أو (عصملي) وليس (تركية) أي تتسامى على الحدود العرقية والدينية".

ونحن نعتقد ان السبب الذي يكمن في تفضيل (العثمانية) على (التركية) هو شموليتها واتساعها وقوتها وانتشارها بوصفها دولة (عظمى) والانسان بطبعه راغب بالانتماء لكل ما هو متفوق وقوي وشامل.

اما ان يعد المؤلف (التركية) لغة (الشعب) بينما (العثمانية) لغة (النخبة المثقفة) فهذا ما لم يثبت علمياً ولا تاريخياً. وانما يمكن وصفه في اطار التقاليد والاعراف الاجتماعية. ذلك انه لم تكن هناك (لغة تركية) ولغة أخرى يمكن ان يطلق عليها (لغة عثمانية).. ولا يكفي ان يقول شاعر وطني مثل: محمد أمين (يورداكول): "انا تركي.. ديني وقومي عظيمان" ليجعل من كلمة (تركيا): "الاسم الذي اتخذ للبلد المخلوق حديثاً" وان يتبناه (الوطنيون) "نقلاً عن الاسم الايطالي Turchia" فهل من (الوطنية) القبول بأسم للبلد الذي ينتمي اليه المرء؟ هذا ما لم يجب عنه المؤلف!

نعم.. "لقد انطوت (التركنة) على الفخر بتاريخ الاناضول (مهد الحضارة) وتقاليدها. وكان ينبغي اعادة اكتشاف كليهما أو حتى صنعهما. لكن (التركنة) عرفت ايضاً بمقابل بقية العالم الاسلامي، ومن هنا كان التأكيد على (العلمانية) أو في الأقل على الاسلام التركي".

ولكن مثل هذا الفخر يفترض ان يكون نابعا من أرض الوطن لا من وطن آخر مثل ايطاليا أو سواها..

كما انه لم يعرف أبدا بوجود اسلام تركي يختلف عن سواه من اسلام الشعوب الآخرى، ذلك ان الدين الاسلامي الحنيف جاء لكل البشرية من دون ان يخص قوماً بمعزل عن سواهم من الأقوام الأخرى.. وهذا ما كان على المؤلف مناقشته.

اما قبول العالم لتركيا عن طريق قبول مشاركتها في مسابقة لانتخاب ملكة جمال العالم جرت في ريودي جانيرو عام ١٩٣٠ اسفرت عن فوز ملكة جمال للعالم تحمل الهوية التركية بعد عامين من المشاركة.. فهذا أمر لا يمكن ان نعول عليه كثيراً ولا يمكن ان نعده جزءاً من الانفتاح بين تركيا والعالم.. بوصف مثل هذه المسابقة فنية أكثر منها سياسية. وان كانت السياسة احياناً تحتوي كل شيء!

كذلك لا يمكننا ان نعد تركيا بلداً غير اسلامي لمجرد ان العاصمة التركية وصفت في الثلاثينات كونها "مدينة بلا منابر.. باستثناء جامع الحاج بيرم في المدينة القديمة، وانه لم يكن ثمة جامع يستحق الذكر في انقرة الجديدة" في حين "منح الشرف لمعبد علماني هو ضريح اتاتورك الذي بني على تل مرتفع في المدينة، خاصة في الليل عندما يضاء".

ان الدين مسألة روحانية وليست شكلاً مظهرياً.. والاسلام الحنيف في تركيا يشكل وجودها الأساس رسمياً وشعبياً، وان كانت علمانية التوجه المعتمد لسياسة الدولة.

أما انتقال تركيا الى الانفتاح على العالم وعلى الغرب تحديداً فيبدأ من انهم "رحبوا بالرأسمال الأجنبي" وادركوا ان "تركيا التي دمرتها الحرب والتي تفتقر

الى رأس المال، يتعين عليها ان تستخدم الاستثمارات الأجنبية لبناء قاعدة اقتصادية حديثة" وهذا ما اوضحه مصطفى كمال قائلاً:

"اذا اردنا جلب السعادة لشعبنا في مدة قصيرة من الزمن، فعلينا ان نحصل على الرأسمال الأجنبي بأسرع ما يمكن، وان نفيد الى أقصى درجة من أية خبرة أجنبية تحقق الرفاه والرخاء لبلدنا.. ان موقفنا المالي حالياً لا يفي بمتطلبات بناء المؤسسات العامة ونصبها وتشغيلها".

من هنا، اذن، بدأت العلاقة مع الغرب.. علاقة قائمة على مصلحة متبادلة ونتيجة لذلك – يقول المؤلف "للدعم المادي والمعنوي الذي تقدمه واشنطن احست الهيئة العسكرية بالاطمئنان الكافي. واستمرت في سياستها العقيمة معتمدة على أهمية تركيا الستراتيجية المتزايدة في المنطقة لادامة علاقات عمل مع واشنطن".

ويخلص المؤلف في خاتمة كتابه الى ان تركيا هي حطام الامبراطورية العثمانية وانه لا يمكن التكهن بمستقبلها.. وعلى الرغم من ان "الجيش التركي يعد نفسه حامي الجمهورية وميراثها الكمالي" إلا ان عدداً كبيراً من المثقفين: "ما عادوا ينظروا الى الحكم العسكري كضمان ضد فساد النظام المدني وعجزه، بل استنتجوا انه عقبة في وجه الديمقراطية والمجتمع المدني، فالحكم العسكري – يقول المؤلف – أدى فقط الى تعميق المشاكل القائمة".

ان غنى المعلومات الواردة في هذا الكتاب. وجدية العرض التاريخي لقائمة من الكتب الأثيرة في ميدانها. وهو اذ ينقل الينا حقائق حية فانما يقدم لنا معلومات جديرة بالانتباه والاحترام وان كان قسم مما ورد فيه يحتاج الى وقفة متأنية ومراجعة ومناقشة حية ساخنة.. وهذا مؤشر سليم لكل كتاب من شأنه ان يسهم في إثراء المكتبة العربية.

العوامل والاثار الاجتماعية لتلوث البيئة*

ما من شيء أقرب وأهم وأكثر تأثيراً في الأنسان من البيئة التي يعيش فيها وينتمي اليها. البيئة سمة الانسان وجذره وأفقه كذلك.

من هنا كانت مسألة دراسة البيئة وعلاقتها الصميمة بالانسان هما المولدتان الدائمتا الحضور في علم الايكولوجيا او علم التبيؤ..

واقامة ندوة علمية من قسم الدراسات الاجتماعية في بيت الحكمة.لتدارس ابعاد البيئة وتأثيراتها في حياة المجتمع، تشكل اهمية كبيرة في حاضرنا الراهن ولا سيما اننا نواجه تلوثاً عاماً يجتاح ويؤثر في حياة الناس جميعاً، من دون ان يكون هناك وعي بيئي، ولا قوانين صارمة تحد من درجة التلوث التي باتت تشكل ظاهرة خطرة علي صحة المجتمع وعلى مجمل الحياة. هذه الندوة العلمية المهمة، والتي اعدت ابحاثها للنشر ضمن كتاب يحمل عنوان: (العوامل والاثار الاجتماعية لتلوث البيئة) تسهم إسهاماً فعالاً في اكتساب المرء معرفة بما يجري من حوله.. ليتنسى له الوقاية منها، والعمل على توسيع رقعة الاهتمام بتحسين البيئة وتوفير مستلزمات البيئة الصحية المعافاة. تضمن الكتاب / الندوة، سبعة بحوث هي:

(*) العوامل والآثار الاجتماعية لتلوث البيئة، تأليف: مجموعة باحثين، منشورات: بيت الحكمة / بغداد / ٢٠٠١م/ ٣٧١ص. م.

١. مفهوم البيئة في منظور علم الاجتماع / د. كامل المراياتي.
٢. التنشئة البيئية للاسرة. /د. خالد الجابري
٣. الاثار البيئية لتوطن الصناعات. /د. حسن الحديثي.
٤. المناهج التربوية حول البيئة في بعض اقطار الوطن العربي. /د. قيس عبد الفتاح.
٥. نظرة تحليلية للاثار البيئية للعدوان على العراق. /د. مثنى العمر.
٦. التلوث الجرثومي الناجم عن العدوان واستمرار الحصار. / د. هدى صالح
٧. الابعاد البيئية للعدوان على العراق. /د. كريم محمد حمزة.

يقول د. المراياتي: "ان روبرت اوين اول من ادرك بوضوح ان البيئة تصنع الشخصية" ونحن نرى ان البيئة هي المعلم الاول للانسان، انها الومضة البكر التي تكشف عن اسرارها، حتى يتعلم منها ومن ثم يتجاوزها ويتفوق في احيان كثيرة حتى يصبح سيدها والمستأثر بخيراتها والمتفاعل مع عوالمها..

هذه المعرفة المبكرة يفترض به ان يصونها، وان يكون باراً بها.. حتى يتبين ان البيئة انما وجدت من اجله.. فكيف يسهم في تخريبها، وكيف يتوجه الى استثمارها استثماراً سلبياً في الصناعات والحروب والمبيدات والملوثات.؟

واذا كان مفهوم الايكولوجيا او علم التبيؤ يقصد به ــ على حد قول د. المراياتي:ــ

"دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وبيئاتها"؛ فإن استخدام المصطلح تاريخياً ينسب الى "عالم البايولوجيا الالماني هيكل عام ١٨٦٩ وعندما استخدمه للاشارة الى علاقة الكائن ببيئته العضوية وغير العضوية.. وغالباً ما يتم الخلط

بين علم البيئة وعلم التبيؤ او الايكولوجيا، غير ان الدقة العلمية، تفرض علينا ان نميز بينها، حيث ان علم البيئة يهتم أساساً بدراسة البيئة الطبيعية بعناصرها العضوية والفيزيقية دون الالتفات الى تلك العلاقات التفاعلية الناشئة عن العيش المشترك. اما علم التبيؤ او الايكولوجيا فان اهتمامه ينصب على دراسة العلاقات التفاعلية الناتجة عن الاشتراك في العيش في موطن بيئي".

والباحث يركز بحثه بشكل اساس على الايكولوجيا، انطلاقاً من ان هذه العلاقات القائمة بين الكائن وبيئته، علاقة دائمة ومستمرة وتحمل الكثير من الاهمية لتطوير الكائن من جهة، وامكانات المعرفة في التطوير والرقي بالبيئة التي يحيا فيها.. وهو ما ينبغي للفرد والمجتمع والمؤسسات مجتمعة معرفته، ومن دون هذه المعرفة، فاننا نسهم بشكل أو بآخر في تخريب حياتنا بانفسنا!

لقد لخص لنا د. المراياتي بحوث (برجس) التي تفيد بان "ظواهر الاجرام والفساد والتفكك العائلي وظواهر السلوك المنحرف، انما تظهر في مناطق محدودة من المدينة وتحديداً في المناطق المتخلفة وترى ان التخلف هنا لا يقصد به المستوى المعاشي فحسب، وانما مستوى الوعي وانتشار الجهل والامية الى جانب العوز المادي، إذ تسهم مجتمعة في تخريب البيئة، بسبب الجهل في التعامل معها تعاملاً صحياً حضارياً.. وفي تحسين المستوى المعاشي لتلك الفئة، لابد ان تكون انعكاساته واضحة التأثير على الدراية والوعي في كيفية التعامل مع البيئة تعاملاً من شأنه ان يرقى بالانسان نفسه وبالبيئة المحيطة به، والتي لها تماس معه.. كذلك.

اما بحث د. خالد الجابري، فانه يقوم على فهم البيئة من منطلق: "ما هو موجود تحت الارض من موارد مادية معدنية ومياه وكل ما هو فوق الارض من تربة ومياه ونباتات وحيوانات.

وكل ما يحيط بالارض من جو وهواء وطبقة الاوزون المحيطـة بـالارض التي تحميها من الاشعاعات الشمسية الضارة" ويضيف: "انها مجمـوع الظـروف الخارجية والتأثيرات المؤثرة في حياة الكائن العضوي وتطوره" وانها "كل ما يثـير الفرد او الجماعة ويؤثر في سلوكهم، وقد ادخل علماء النفس في تعريفهم للبيئـة المصادر الداخلية للمثيرات، اما علماء الاجتماع بوجه عـام، فيؤكـدون دراسـة الظروف او الحوادث الخارجية عن الكائن العضوي، سـواء اكـانت فيزيقيـة ام اجتماعية ام ثقافية".

وتبدو هذه التعريفات متداخلة مع بعضها ومكملة للفهم الذي يريد البـاحث الوصول اليه، ذلك ان كل فرد لابد ان يتحرك وينطلق من داخل دائرة البيئة التـي ولد فيها وترعرع وانتمى.. وبالتالي تفاعل معها ووجد نفسه فرعاً اصيـلاً مـن فروع وجودها.

اما المقولة التي يوردها لاحقاً والقائلة: "هذه ارضك فاما ان تحبها واما ان تهجرها" فانها مقولة فيها الكثير من الجفاء، ذلك ان محبة البيئة، شأنها شأن اية حالة من حالات المحبة ليست ملزمة ولا اكراه فيها.. ولا يعنـي عـدم حبـها.. الوقوف على الضد منها وبالتالي هجرها.

الهجرة جفاء ومقاطعة ورفض وحواجز، والعيش في بيئة لا نحبها لا يعني ابداً انها تشكل حالة رفض، بل قد تكون حالة رفض، باتجاه العمـل للرقـي بـها والعمل على تحويل تلك البيئة من بيئة تعاني من سلسلة ظواهـر سـلبية، الـى سلسلة من الظواهر الايجابية والمغايرة نحو البناء السليم.

ويرى ا. د. حسن محمود علي الحديثي في دراسـته ان النظـام البيئـي يعكس: "العناصر المكونة له من خصائص طبيعية واوجه متعددة لنشاط الانسـان في اطار الحيز الجغرافي الذي يقوم به ذلك النظام..".

ومثل هذا التحديد ــ في راينا ــ يمكن ان ينظر اليه علــى وفـق توجـه اقليمي، في حين الافق الانساني يقتضي الانفتاح على جغرافيــة البشــر جميعــاً، وعلى بيئة نحترم براءتها من كل دنس بوصفها تاجاً من تيجان الحياة التي تحقق سمة وجود الكائنات جميعاً. حتى الضوضاء التي تشكل جزءاً من التلــوث الــذي يتحدث عنه الباحث.. لا يشمل ما يبنيه الانســان مــن مصــانع ومنشــآت "ذات تأثيرات سلبية لانها تعد نوعاً خاصاً من التلوث..".

هذه المصانع.. قد تكون خارج المحور الجغرافي الــذي نعيشــه.. لكنــه يهمنا، حتى الكلام الحاد الصارخ عبر الناس واجهزة الصوتيات.. هو جــزء مــن تلوث بيئي قد يكون بعيداً عن دائرة عالمنا الضيق، لكنه قد يجــد منــا الجفــاء والضجر..

البيئة.. وجود قد نعيشه او نحسه او نتماس معــه.. لكنــه يبقــى العــالم المدرك الذي نحتاج الى ترويضه، والى التعامل معه بطريقة مبتكرة يشارك فيــها الجميع كل حسب مسؤوليته ووعيه وإســـهاماته.. واذا كــان انشــاء (مجمــع عكاشات الصناعي للفوسفات) في العراق قد استثمر استثماراً كبــيراً لكونــه قــد "توطن في بيئة تتصف بخصائص اجتماعية اقتصادية تشير الى انعدام او ضعــف النشاط الاقتصادي، ومنطقة طــاردة للســكان بســب انعــدام فــرص العمــل او محدوديتها، حيث يرتكز الاستيطان على امتداد حوض نهر الفرات وبقية منطقــة الصحراء"؛ فان هذا لا يمكن تطبيقه على المصانع والمنشآت كافة بسبب الحاجــة الى الايدي العاملة والمواد الاولية.. ولكن الاهم والافضل الوصول الــى صيغــة علمية وصحية سليمة إذ تتوفر فيها المستلزمات الضرورية كافة التي تحــول دون تلوث البيئة.

وفي مناقشة المناهج التربوية العربية بشأن التربية يرى د. قيس عبد الفتاح مهدي ان "المناهج في دولة الامارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان اعطت لموضوع التلوث بجوانبه العلمية والعملية وتكوين الاتجاهات الايجابية للمشاركة في مسؤولية الحد من التلوث البيئي" وفي "قطر والاردن هناك اشارة واحدة الى التلوث" في حين "لم ترد كلمة التلوث ضمن المناهج التونسية" واكدت "المناهج في لبنان على الهدر والتلوث" في حين "اكد المنهج في العراق على الجانب العلمي الاكاديمي دون ان يعطي الجوانب العلمية اهمية تذكر".. جاء ذلك ضمن جداول وافية اعدها الباحث، ليصل الى نتيجة مفادها: "ان المعلومات والاحصاءات والعرض الاكاديمي لموضوعات البيئة سوف لا يسهم في توفير العناصر البشرية المؤمنة بأهمية وجدوى العمل على حماية البيئة وصيانتها.." وتوصي الدراسة بايلاء أهمية اكبر للبيئة في الكتب الدراسية العربية من خلال دراسة اهداف التربية البيئية ومفرداتها في مناهج العلوم الطبيعية..

ويقدم بحث د. مثنى عبد الرزاق العمر نظرة تحليلية للآثار البيئية التي واجهها العراق بعد احداث ١٩٩٠ مشيراً الى ان برنامج البيئة للامم المتحدة اليونيب Unep يفيد ان تدمير البيئة "يعتبر من النتائج الحتمية التي تصاحب الحرب، وفي حالات كثيرة يكون هذا التدمير مرتبطاً بالقتل كنتيجة عرضية للاعمال العسكرية ويكون في حالات اخرى عنصراً مقصوداً في استراتيجية احد اطراف الحرب "وهذا ما حصل للعراق.

إذ "بلغ مجموع الغارات ١١٥ الف غارة على مدى ٤٢ يوماً (أي بمعدل ٢٦١٩ غارة يومياً).. ومتفجراتها على شكل: قنابل عنقودية وشريطية ومغزلية وعنكبوتية المعدة لضرب المباني الكونكريتية فضلاً عن القنابل والقذائف المصنوعة من اليورانيوم المنضب ذي النشاط الاشعاعي".

وقد بلغ "الحجم الكلي للمقذوفات خلال المعارك العسكرية نحو ١٤٢٠٠٠ طناً من المتفجرات أي ما يعادل ٧ قنابل نووية من التي القيت على هيروشيما.. ويفوق من حيث الكمية، ما استخدم في الحرب العالمية الثانية بأكملها" وينقل الباحث عن أحد قادة سلاح الجو الأمريكي في هذه الحرب قوله: "أنها أول حرب في عصر الفضاء".

هذه الارقام تشير بالتأكيد الى حجم الخسائر التي ألحقت بالبشر والمنشآت والمرافق الحياتية كافة.. فضلاً عما تركته من تلوث هائل في البيئة.. من خلال هذه الحرب التي كانت أرض العراق وسماؤها.. منطقة تجارب اسلحتها الفتاكة كافة! أي سبعة قنابل نووية من عيار ٢٠ كيلو طن وهي القنبلة التي القيت على هيروشيما.

ويقدم د. العمر أنموذجاً آخر للتلوث البيئي الذي مارسته أمريكا في حربها ضد الشعب الفيتنامي باعتماد خليط من مبيد الحشرات أطلق عليه (العامل البرتقالي) ولمدة خمسة أعوم (٦٥ ـ ١٩٧٠) بهدف تدمير البيئة الفيتنامية، وجعلت الهنود المساهمين في ضرب العراق من السود واللاتينيين، وهم مواطنون من الدرجة الثانية.. والذين اصيبوا بتلوث اشعاعي..

وعمدت أمريكا التي تمتلك حوالي ٤٩٥ كيلو غرام من اليورانيوم المنضب الى انتاج قذائف ضد الدروع من الفضلات الناتجة عن عمليات التخصيب.. ووجدت الفرصة لاستخدام هذه القذائف في ضرب العراق. ويكشف الباحث عن الخطورة الصحية لليورانيوم المنضب "من لحظة اصطدام القذيفة بالدروع، اذ يرافق هذا الاصطدام تولد حرارة وضغط شديدين يحولان عنصر اليورانيوم المنضب الى مسحوق يتألف من ثاني أوكسيد اليورانيوم ($U^{٣} O^{٨}$) الذي ينطلق الى الهواء على شكل دقائق متناهية الدقة (أي غبار ذي نشاط اشعاعي) يتناثر

في الهواء في موقع أرض المعركة، وقد تبقى مدداً طويلة عالقة في الهواء والعامل الرئيس الذي يتحكم بهذه المدة الزمنية هو حجم الدقائق (أي أقطارها) وفي خلال هذه المدة يمكن ان تدخل الى داخل الجهاز التنفسي للانسان لتبدأ تأثيراتها الخطيرة على الصحة..".

وتؤكد أ. د. هدى صالح في بحثها ان العراق قد تعرض الى اشد أنواع التلوث خطورة.. اذ يؤدي وجود البكتريا والجراثيم الممرضة الأخرى كالطفيليات الى انتشار الأمراض الانتقالية والمعدية وتفشيها، ومما يضاعف هذا الانتشار هو تضافر عوامل التلوث مع عوامل أخرى أهمها نقص الغذاء والدواء..".

وتوضح الباحثة بعض الحالات المرضية المعدية مثل حالات الاصابة بالجرب إذ ارتفع العدد من صفر للعام ١٩٨٩ ـ عندما كان العراق خالياً منها لنجاحه في السيطرة عليها ـ الى ٣٩١٤٦ حالة عام ١٩٩٦ كذلك تضاعفت حالات الاصابة بالكوليرا والملاريا وشلل الأطفال.. وغيرها من الأمراض.

ومثل هذه الارقام وسواها مما وضعته الباحثة ضمن دراستها ومن خلال الجداول والاحصاءات التي اوردتها.. تتوضح حقيقة الواقع الصحي المتردي في العراق منذ عام ١٩٩١، حتى الآن.. ويحلل د. كريم محمد حمزة الأبعاد البيئية التي يواجهها العراق راهناً.. والتي لا تختلف كثيراً عن الاسلوب الذي اتبعه الكيان الصهيوني "عندما أطلق في الريف المصري جرذاناً كبيرة الحجم سريعة التكاثر راحت تأكل المزروعات وتدمر بيوت الفلاحين أو "تزويد مصر بمبيدات من انتاج صهيوني دمرت مزارع القطن طويل التيلة".

كذلك فان: "الدول الصناعية حين تخزن مخلفاتها النووية في بعض دول الجنوب، تدرك ان تلك المخلفات تهدد صحة بيئتها ونظامها الاجتماعي ولذلك (تصدرها) الى الجنوب في اطار حرب بيئية خفية".

ويحدد بالارقام حجم الضربات الموجهة للعراق.. بمعدل "غـــارة كـل ٣٠ ثانية و ٨٠ مليون من القنابل" وخلص الباحث الى استنتاجات مفادهـــا ان خطـر البيئة مازال قائماً في العراق. وكذلك تهديد الوحـــدة المكانيـــة والقتـل المباشـر والهيمنة على الثروات وتحقيق اضرار بيئة مختلفة.

ان هذه الندوة المعمقة، ومن خلال الدراسات المشاركة جميعـــها، تحقـق إسهاماً نوعياً مثمراً على صعيد دراسة البيئة من جوانبها المختلفة بهدف تعميـق الصلة بين الانسان وبيئته وخلق احساس مسؤول لدى كل انسان من أجل اسـهام الجميع في تنقية البيئة وصولاً الى بيئة صحية توفر للمرء العيش وسط اجـــواء نقية خالية من التلوث بعيدة عن كل ما من شأنه ان يحول دون انتشار الاجـــوأء الصحية المعافاة..

في كتابات الصادق النيهوم

يرى عدد من الدارسين، ان مفهوم "القيم" قائم على مجموعـــة الاعـراف والتقاليد التي يتفق عليها المجتمع.. وان هذه القيم يتم توارثــها والتمسـك بــها والسير في هديها على مدى اجيال متعاقبة.. الا ان مثل هذا الفهم.. فهم ســاكن، لا يعطي أهمية لمتغيرات الزمن وانعكاساته على البيئة وبالتالي على المجتمـــع.. كما ان متغيرات المكان، وتفاعل الاجيال والمجتمعــات وانفتاحــها علـى تقـاليد مجتمعات أخرى من خلال المعايشة والدراسة والاحتكاك المباشر والســفر.. مــن شأنها ان تحقق مفاهيم جديدة لمعنى "القيم".

الى جانب ذلك، نتبين ان المفهوم الفلسفي لـــ "القيم" يشير الـــى: "صفــات الموضوعات والظواهر المادية للوعي الاجتماعي التي تميز اهميتــــها للمجتمـــع ولطبقة ما ولانسان ما، والأشياء المادية تمثل انواعاً من القيم لأنها موضوعــات لمصالح بشرية مختلفة "مادية واقتصادية وروحية" فمثلاً الزجاج ــ حيــن يكــون وعاء للشرب ــ يمثل قيمة مادية أي قيمة استعمالية أو سلعية، والزجاجة كنتــاج بشري تمتلك ــ كسلعة ــ قيمة اقتصادية، أما اذا كانت الزجاجة موضوعــاً فنيــاً فتكون لها أيضاً قيمة جمالية، إلا ان الزجاج لا يبدو في كل هذه العلاقات مجـــرد شيء مادي، وانما يبدو أيضاً ظاهرة اجتماعية ــ موضوع استعمال سلعة وعمــلاً

فنياً ــ وهو أيضاً موضوع مصلحة انسانية ــ وبـــالمثل فـان ظواهـر الوعـي الاجتماعي أي الافكار هي قيم ــ يعبر فيها الناس عن مصالحـــهم فـي صـورة ايديولوجية"[1].

والى جانب هذه القيم المادية والاقتصادية والجمالية.. هناك "قيم اخلاقيـــة وقانونية وسياسية وثقافية وتاريخية، وقد تمثل افعال الناس والظواهر الاجتماعية خيراً او شراً اخلاقياً (القيم الاخلاقية) وتكون موضـــوع موافقـة أو اسـتنكار. ويخلق المجتمع نسقاً من المفاهيم الاخلاقية ــ المثل العليا والمبـادىء السـامية والمبادىء والتغيرات ــ لكي يوجه وينظم سلوك الناس، وهذه أيضاً قيم اخلاقيـة، والافكار القيمة تعكس بعض الواقع، فهي فضلاً عن ذلك توجه نشاط النـــاس، أي انها ذات طبيعة علمية"[2] .

ومن هذا الفهم الحضاري لمعنى القيم، نتوجه الى دراسة الافـاق الجديـدة التي استطاع كاتب عربي ليبي، انطلق من صحراء بلاده الى خضرة العالم.. ليقدم مناقشة صادقة ومريحة وجريئة لعدد من القيم والاعراف الساكنة فـي اذهاننـا.. ذلكم هو المفكر: الصادق النيهوم، الذي لا يعرفه إلا قلة من الباحثين الذين بذلـوا جهداً ذاتياً متميزاً لقراءته في مجلة "الناقد" وما اصدرته له من كتب منعـت فـي العديد من الاقطار العربية.. بسبب جرأتها وصدامها مع افكـار تقليديـة رافضـة سلفاً لكل ما هو جديد وقائم على الجدل والاجتهاد..

يناقش النيهوم مفهوم "السياسة" كونـها مفـردة مشـتقة مـن : "سـاس الحصان، بمعنى قاده الى موقع الماء" أي وجهه الى الخير، والى الفـائدة. لكـن

---

[1] الموسوعة الفلسفية / اشراف: م. روزنتال، ب. يودين /ترجمة: سمير كـرم، دار الطليعـة. بيروت ط٢/١٩٨١.

[2] المصدر السابق.

النيهوم يرى ان اللغة هنا: "مثل العكاز.. اداة تتوكأ عليها عبر جميع الطرق وتدق لك كل لأبواب، ولكنها لا تستطيع ان تقودك الى البيت الذي تقصده حتى تعرف انت طريق البيت وتدق بابه وتقصده.."[٣].

اللغة عنده وسيلة اذن.. لكن هذه الوسيلة.. عمياء، ما لم توجهها بصيرة العقل.. ولا سياسة بلا وعي.

ويضرب النيهوم أمثلة عدة للسياسات التي تعلن عن قيم انسانية فيما تمارس اساليب تسيء الى القيم.. وذلك من خلال اشخاص يفترض فيهم ان يكونوا القدوة الحسنة.

فالرئيس الهاييتي دوفاليه يقبض على كل كيس من الدقيق تنتجه مطاحن الدولة، وبلغ حجم مسروقات الرئيس ماركوس وامرأته نحو ثلاثة بلايين دولار، واستطاع شاه ايران تهريب ٢٥ بليون دولار[٤].

من رغيف الخبز تتم السرقة، ومن ثروات البلد هي ثروات الناس انفسهم تتم عمليات السطو والتهريب.. فكيف يسمح هؤلاء لانفسهم بالدفاع عن القيم وحقوق الناس من ابتزاز اللصوص الصغار؟!

وفي فهم النيهوم ان لقب "الرئيس" في القاموس الرأسمالي ليس مستمداً من لغة السياسة، بل من لغة الاقتصاد، فالرئيس بمعنى يترأس مجلساً "وليس يحكم مجلساً" مثل رئيس شركة مساهمة، وهو نظام لا يعطي الرئيس سوى صوت واحد في مجلس الادارة. ويشترط اختيار اعضاء المجلس نفسه في اقتراع عام

---

[٣] صوت الناس/ محنة ثقافية مزورة ــ الصادق النيهوم. منشورات دار الريس ــ لندن.

[٤] المصدر السابق.. كذلك جميع ما هو منصوص مأخوذ من "صوت الناس" الا ما نشير اليه لاحقاً.

امام جمعية عمومية.." ويضيف النيهوم قائلاً ان هذا اللقب "ينتحله الحاكم مدى الحياة ويورثه لأولاده.." و "بعصاته وكلابه يقود قطيعاً من الفقراء الخائفين".

"ومثل هذا الأنموذج القيادي، يقيد الحريات ويلغي القيم ويسوّد خصائص أدق المصطلحات.. بل يحاول احتواءها احياناً. فالانتخابات التي يفترض اتباعها على وفق الأسس الموضوعية، لكونها يفترض ان تجري بين خصمين لهما مصالح متعارضة.. خصمان يختلفان حول مسائل جانبية كثيرة، لكنهما ملتزمان دائماً بدستور واحد.. يضمن حرية رأس المال وحرية الكسب وحرية الاعلان وحرية القضاء" كما يقول النيهوم.. إلا ان ما نراه زائفاً نقبل به مع علمنا بعدم صحته ولا دقته ومثل هذا القبول، يقف على الضد من القيم كلها التي نؤمن بها والمتعلقة بالصدق والامانة والموقف الجريء والحازم.

بازاء ذلك نتساءل مع النيهوم: هل نحن عبيد أو رقيق؟

قد لا يجد بعضهم فرقاً بين الكلمتين، لكن النيهوم يفرّق، فهو يرى: "ان علاقة الرقيق بسيده علاقة استعباد، والعبد علاقة عبادة، فالرقيق ليس حراً في اختيار سيده، لأنه لا يملك حق الحرية لنفسه، اما العبادة، فان شرطها الاساسي ان تتم بالقبول وحرية الاختيار".

ويوضح النيهوم مسألة استعمال القرآن الكريم للكلمتين فـ "لا يستعمل القرآن الكريم كلمة عبد بمعنى رقيق، بل بمعنى مؤمن، وهو مواطن حر يختار مولاه بمحض ارادته، ويختار حكامه بمحض ارادته، ويعيش في مجتمع محرر من مصادر الاسترقاق، اما استعمال كلمة "عبد" بمعنى "رقيق" من "العبودية" وقصرها على معنى العبادة في مصطلحات مثل "عبد الله ، عبد الله ورسوله، وما ربك بظلام للعبيد" لان العبد الذي لا يظلم ليس مستعبداً أصلاً". مثل هذه الوقفة المتأملة. تجعلنا نراجع استعمالنا كثيراً من المفردات، وكثيراً من المواقف، وكثيراً

من الآراء التي يتم القبول بها من دون مراجعة.. في وقت نقتنع انفسنا بقيم ومباديء محددة، هي أساساً مغيبة عنا!

ويناقش النيهوم كلمة "إسلام" في لغة القرآن الكريم لكونها "لا تشير الى دين واحد، بل الى جميع الأديان منذ مولدها في فجر الحضارة، فالنبي نوح ـ وهو أول نبي يرد اسمه في كتاب العهد القديم ـ يقول: "أمرت ان اكون من المسلمين" (يونس ٧٢)، والنبي ابراهيم كان حنيفاً مسلماً، ويعقوب يقول لبنيه موصياً: "فلا تموتن إلا وانتم مسلمون" (البقرة ١٣٢)، وموسى يقول لقومه: "يا قوم ان كنتم أمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين" (يونس ٨٤)، والحواريون يقولون للسيد المسيح "امنا بالله بان مسلمون" (آل عمران).

من هنا نرى ان الاسلام دين شامل للانسانية جميعاً، لا يخص قوماً أو طائفة ولا يفرق بين الناس وهذه أعلى قيم الاسلام وأنبلها.. والتي تم تشويه صورته المشرقة في جوانب كثيرة.. منها ان "رجال الدولة، اسمهم في لغة القرآن الكريم اولو الأمر، وهو جمع لا مفرد له، فكلمة "ولي الأمر" جمعها "أولياء الأمور" اما "أولو الأمر" فانها مصطلح قرآني لا مفرد له، لأن دولة الاسلام لا يتولى أمرها فرد واحد، ومصدر هذا التشريع، ان الحاكم الواحد، مهما أوتي من حب العدل، لا يستطيع ان يكون عادلاً حقاً لسببين كافيين في طبيعة الفرد نفسه، السبب الأول، ان مفهوم الفرد للعدل مقيد سلفاً بمرحلة عمره، فالشباب يخطط لتغيير الدنيا لانه لم يتعرف على الدنيا بعد، والعجوز في السن يريدها ان تبقى كما هي، لانه لا يعرف دنيا سواها، رغم ان كليهما على خطأ ظاهر تجاه بقية افرد الأسرة الانسانية التي تضم اعماراً مختلفة أخرى.. اما السبب الثاني فيقوم على بطلان الحكم الفردي.. كما ان مفهوم الفرد للعدل مقيد ايضاً بنوع جنسه..".

ولكن ليس معنى هذا ان تقوم ادارة شمولية للاعمار جميعها كما يدعو النيهوم.. ولكن لابد من مرشد راشد العقل.. حكيم في توجيهه، وعادل في

احكامه.. كما انه ليس بالضرورة وجود رجل ليقضي بشؤون رجال يماثلونه، ولا امرأة تقضي بأمور النساء.

ان ما ذهب اليه النيهوم لتحقيق قيم العدل بين الناس، لا يمكن ان تفصل أو ينظر اليها على هذا النحو.. فمن يمثل الحق والعدل والمساواة، يفترض ان يكون نزيهاً، موضوعياً، لا يهدف الى تحقيق مكاسب لجنس أو فئة أو عمر زمني محدد: بل هو يهدف الى تعزيز قيم كلية لمجتمع كامل.

وفي مناقشته وسائل الاعلام الحديثة لكونها موجهة للبحث عن زبائن وليس عن اتباع.. وانها "اجهزة تخاطب الناس لكي تبيعهم بضاعة معروضة للبيع.. وخطتها في جذب الناس هي خطة البائع الذي يسليهم ويدهشهم ويغريهم ببرامج تزداد فعالية، بقدر ما تزداد اثارة، مما يعني في لغة الاعلام، اجتناب برامج الخطابة والوعظ.." فان النيهوم يبعد اجهزة الاعلام عن الحقيقة النزيهة التي يفترض ان تتحلى بها كما هو ظاهر.. ومهمتها ان تقرن ما تدعو اليه بالحقائق.. الأمر الذي يجعل منبرها يكشف عن الزائف المخبأ لكل ما هو فاسد.. ومحاولته التستر عليه، وهذا مالم يحصل في تلك الاجهزة التي تخضع لتوجيه من بشر يعيرون أهمية قصوى للقيم! كما ان الازدواجية، والبحث عن منافع ذاتية، ظواهر بارزة لدى الناس يعدون انفسهم من الحريصين على القيم.

فالمتنبي / المبدع الكبير "لا يشغل باله بما يحدث للملايين ولا يلاحظ فقر الرجال وبؤس النساء وتشرد الاطفال المتسولين في الطرقات، بل يركز عينيه على كافور وحده من دون سواه، مبدياً عجزاً ظاهراً عن الخروج بشعره من هذه الزاوية الضيقة، خلال مرحلتين:

في الأولى/ امتدح المتنبي بشخصية كافور واجتهد في نيل عطاياه باشعار مسطحة.

مــولاي هــل فـــي الكـــأس فضـــل أنالـــه
فـــاني اغنــــي منــــذ حيــــن وتشـــــرب.

وفي الثانية / عاد المتنبي، فهجا كافور واجتهد في ايذاء مشاعره شخصياً بأشعار مسطحة أخرى:

لا تشــتر العبـــــد إلا العصـــا معــــه.
ان العبيــــــد لأنجــــاس منــــــــاكيد

ان المتنبي.. هذا الصرح الثقافي الكبير، يتخلى عن القيم لمنــافع ذاتيــة.. وينظر الى جلال الاشياء من منظار نفسه، ويسخر شاعريته الأصيلة لخدمة أفكار وأشخاص وقيم يعرف انها غير حميدة.. وينظر الى "العبــــد" لا كمؤمــن متجــل ومنصرف للعبادة، بل كرقيق خاضع وتابع ذليل..

ويكشف النيهوم كذلك عن القيم المقلوبة التي يتم استخدامها:

فـ "(البيتً الأبيض) ليس اسماً بالمصادفة، بل جـاء رمـزاً لقيــام دولــة جرمانية مفتوحة للجنس الجرماني وحده لا غير ومغلقة في وجه كل جنس أخــر سواه من اجناس الهنود الحمر، وقد اختاره جورج واشنطن تخليداً لاســـم بيــت زوجته الثرية في فرجينيا".

البياض هنا ليس بمعنى النقاء والصفاء كما يبدو امامنا، بل هو العكس من ذلك على الضد من النقاء، ومن السلام المنشود للبشرية، انــه اســم عنصــري، واحادي الهدف، وذاتي المنطلق.

من هنا تغتال القيم لدى دولة عظمى مثل أميركا..!

وفي مناقشته القيم والاعراف الديمقراطية، يرى النيهوم: "ان مصطلح الديمقراطية أوروبي من دستور رأسمالي لا يحمي المغفلين، اما مصطلح الشورى فانه مستمد من دستور موجه لحماية المغفلين قبل سواهم".

ونحن نرى ان الشورى هنا بمعنى الاستشارة والاصغاء الى الرأي الآخر، وعدم اتخاذ قرار منفرد ومصادرة اراء الآخرين.. بل مناقشتها معهم.. وهذه سمة إسلامية متميزة في بناء قيم المجتمع، في حين نجد الديمقراطية تمتلك مشروعية التصويت الرقمي والاختيار الحر.. إلا ان هذا النهج يخترق ويصبح الزامياً في احيان كثيرة.

وينتقل النيهوم في مناقشة مفاهيم الوطن والمواطن إذ يرى:

"ان الدفاع عن الوطن لا يشمل الدفاع عن المواطنين في ثقافتنا العربية المعاصرة، ان الوطن الذي هو الأرض والماعز يصبح وطناً مقدساً له حرية مقدسة، اما المواطن شخصياً فلا أحد يقدس حريته، ولا أحد يعترف بهويته" ولكن هل يمكن التعامل مع الوطن خلواً من المواطنين، وهل يمكن النظر الى المواطن مجرداً من انتمائه الى وطن ما..؟

ان التفاعل بين الوطن والمواطن، حق قيمي قائم على وعي مشترك.. لذلك يصبح من حق المواطن الاعلان بصوت عال عن مشروعه الانساني في العيش بحريته.. وعلى الوطن ان يحتفظ له بالأمن والعافية والعمل والقيم التي يؤمن بها ويدافع عنها.

ومثل هذه المسألة لا تفترض اوامر يلزم المواطن تنفيذها، من دون ان يحقق له الوطن بالمقابل حقوقه المشروعة..

ذلك انه ليس من الحق والعدل ان ندعو الى القيم النبيلة القائمة على الصدق والنزاهة والامانة.. في ظل ادارة اقطاعية، وفي وطن يقمع حرية الرأي وفي نظام لا يحمي المواطن..

ان هذا التناقض من شأنه الاستهانة بالقيم كلها..

ففي مجتمع يجوع ابناؤه، تصبح السرقة مبرراً.

وفي مجتمع يزيف القضاء، يصبح الكذب والافتراء سبيلاً للخلاص. وفي مجتمع يقمع الحريات، تصبح عمليات الارهاب.. اعمالاً فدائية.

من هنا تجيء اراء النيهوم لكون "العرب قد خسروا مناخ الحوار الحر،

قد خسروا معه عقلهم الجماعي، وورطوا انفسهم في ثقافة فردية لا تعاني من غياب المواطنين الاذكياء، بل تعاني من غياب وسيلة التفاهم بينهم في مجتمع شبه أخرس.. وفي وطن خسر لسانه.. تصبح الفصاحة عقدة نفسية، ويتعلم الناس زخرفة الكلام في ثقافة لسانية مسطحة لا تهدف الى فهم الواقع ولا تستطيع ان تتخذ قراراً جماعياً بشأنه، بل تهدف الى تغييب القرار وراء ستار كثيف من الاراء النظرية التي لا تهمها نتائج النقاش، بقدر ما يهمها النقاش في حد ذاته"[٥].

---

[٥] الناقد / مجلة لندن. العدد ١٥ /ايلول ٨٩.. وكل ما يرد لاحقاً وموضوع بين قوسين، مأخوذ من "الناقد" ولاعداد مختلفة. تسنى لكاتب هذه البحث، قراءة كتاب واحد للصادق النيهوم "صوت الناس" الى جانب بعض كتاباته التي نشرها في مجلة "الناقد" اللندنية والمناقشات التي اثارتها تلك الكتابات في اعداد مختلفة.

اما كتب النيهوم الأخرى: "بهجة المعرفة، وأطلس الرحلات، وموسوعة الشباب، وفرسان بلا معركة، ونقاش، وتحية طيبة وبعد، ومن هنا الى مكة، والقرود، والحيوانات". فلم يتمكن من الحصول عليها وقراءتها ومناقشتها في هذا البحث، وهو نقص يعترف به الباحث، على أمل أن يسد هذا النقص مستقبلاً.

بازاء هذه الصراحة والصدق التي تحملها آراء النيهوم.. لابد من التصريح والدفاع عن قيم يحق للفرد وللجماعة معاً، الاعلان عنها بحرية، بوصفها جزءاً من التكوين الانساني في البوح.. دفاعاً عن قيم ومبادىء مشتركة.. لا تعتمد المظهر الخاشع، وانما المظهر المطابق لما يعتمل داخل الانسان، حتى يتكامل الوجود الانساني الأمثل.

وفي نظرته الى المجتمع العربي وقيمه، يقول النيهوم: "ان المجتمع العربي غير شرعي، خلقته مؤسسات اقطاعية معادية لمعظم مبادىء الإسلام، من مبدأ المساواة والشورى الى مبدأ تحريم الحكم الفردي وضمان حرية الحوار والقضاء، وقد تأسس على نظرية تحكيم القوة والتعصب الطائفي وتقديس الخرافة، وتحول منذ عصر الحجاج الى مجتمع من الصيادين قائم برمته على شريعة (اصطياد الفرص)".

مثل هذا المجتمع، لابد من اعادة بنائه على وفق قيم سليمة، فيها الشيء الكثير من الق قيم الماضي، وفيها الكثير من جوهر الحاضر واشراقات المستقبل، ضماناً لأجيال تريد ان ترى قيم الحق والعدالة والمساواة والمحبة.. والحرية والنبل والوفاء والامانة والاخلاص.. مجسدة، وواقعاً ماثلاً ومنظوراً.. وليس مجرد شعارات للاستهلاك والبهاء المرئي فحسب.

ومجتمعنا يدين الرشوة، يمارس هذه الظاهرة يومياً يحرم ارتزاق المرأة بجسدها، يمارسه معها سراً. ومجتمعاً لا يمنح فرص العمل للآخرين.. يجعل من الآخرين سراقاً وقتلة.

ومجتمعاً يأمر دينه بحرمان الطغيان، يتقرب للطاغية ويسميه "صاحب السعادة" بمعنى ان السعادة.. سعادة الآخرين ملك يديه.. وهو لا يحققها إلا لمن يطيعه ويؤازره لا لمن يختلف معه في الرأي..

ومجتمعا يعرف ان اكل السحت حرام وظاهرة اجتماعية سيئة، لكنه لا يتوانى عن اكله اذا ما وجدت الفرصة لذلك.

مجتمع كهذا يناقض نفسه، مجتمع لا يمكن له ان يركن الى قيم الفضيلة التي يدعو اليها في منابره كلها، ويحاول ان يدعيها امام عائلته والمقربين له.. ويمارس كل ماهو مخالف لقيم الفضيلة ..

مجتمع كهذا .. يغتال الفضيلة بدلا من الدفاع عنها،يخنق انفاس الحق .باسم اشاعة النظام،ويؤسر الجدة باسم المحافظة على قيم موروثه وتقاليد ثابتة..يسقط قيم العدل ،باسم الدفاع عن مبادئ مضاعة!

بإزاء ذلك كله يرى النيهوم ان "العبادة في اللغة ليست هي اداء الشعائر التي يفتي بها الفقهاء، بل هي اداء العمل الذي تقرره نتائجه الفعلية في أرض الواقع، واذا لم يتمثل هذا العمل في السعي الى توطيد السلام والعدل، بضمان حق الاغلبية في الحكم، فانه يصبح مجرد بديل شكلي عن السلام والعدل بالذات".

ومثل هذا المجتمع لابد ان يقوم على قيم تعترف وتناضل من أجل حرية الاقتراع، مجتمع تصبح العبادة عنده ليست مجرد طقس شعائري، بل اصغاء وانتباه وفعل وارادة تهدف الى تعزيز قيم السلام والعدل.

مجتمع يعرف "الفرق بين معنى (الخطأ) وبين معنى (الباطل) وان احدهما ظاهرة عابرة تنجم عن نقص في المعلومات، اما الآخر فانه تحريف عقائدي موجه عمداً ضد الانسان ومجتمعه معاً، فاذا زعم أحد ما ان الأرض هي مركز الكون، فان ذلك خطأ يمكن اصلاحه بقليل من الحساب والصبر، اما اذا زعم ان اليهود هم شعب الله المختار، فان ذلك باطل لا هدف له سوى اغراق مجتمع الانسان في حمام من الدم".

وتغييب هذه الحقائق مضاد للقيم التربوية والعلمية التي تنحو منحى المعرفة المنزهة التي يمكن ان تتجدد وتتأسس بالتجارب والتواصل في اكتساب المزيد من المعارف.

ان القيم النبيلة والمثلى التي نتفق عليها جميعاً، لابد ان تكون قيماً فاعلة ومؤثرة وحية. لذلك نجد في دعوة النيهوم الى ان : "الأمر بالمعروف قاعدة، والنهي عن المنكر قاعدة، والدفاع عن المستضعفين قاعدة، وان جميع هذه القواعد، لا يستطيع المسلم ان يحافظ عليها، إلا اذا كان شريكاً شرعياً في اداة الحكم".

ومثل هذه القاعدة لا يمكن ان يستجيب لها وينفذها، إلا اولئك الذين يؤمنون ايماناً مطلقاً بها، ويمتلكون القدرة على تطبيقها.. ولا يراد بأداة الحكم المطلوبة ان تتحول الى آلية ادارية.. تجيء لتنفيذ اطر خارجية، ثم تتحول بعدئذ الى قوة بيروقراطية قمعية.. لم يشر النيهوم الى امكانية ان تصل اليه أية قوة حاكمة تعتمد الشعارات البراقة، وسبل هدر حقوق الناس سراً ان ما ذهب اليه الصادق النيهوم، يعد محاولة فاعلة ومجتهدة في مناقشة اوهام بقيت لأعوام طويلة من دون ان تناقش، ومن دون ان يجرؤ أحد على لمس مطاعنها الاليمة.. حتى اذا تسنى لجهد النيهوم ان يرى النور، عندئذ راحت قوة الضلالة والسكون والسلفية ترفض كل جهد واجتهاد يقدمه، حتى حولت المنبر الحر الذي اتاحته مجلة "الناقد" وكتب النيهوم المنشورة، الى محاولات لتشويه وطنية النيهوم وعقائديته ونعته بشتى الصفات.. ومع ذلك بادرت المجلة الى نشر ما تختلف معه بهدف اتاحة فرص الحوار الذي ظلت تدعو اليه طوال اعدادها.

ان مناقشات النيهوم لقيم الحق والعدل والمساواة سواء في الدين أو السياسة او المجتمع او الابداع او السلوك.. من شأنها ان تفتح نوافذ جديدة

تتعلق بامكانية الاصغاء الى اولئك الذين نختلف معهم في الرأي.. نؤاخيهم وننتمي اليهم.. ولكننا الى جانب ذلك لا نريد ان نكون نسخة منهم، ذلك اننا جميعا نريد لشخصياتنا ان تحقق حضورها، ولأفكارنا ان تثبت صحتها، ولممارساتنا ان تجد صداها العميق لدى الآخرين.. وفي تحقيق قيم ومبادىء نحترمها جميعاً ونعزز وجودها وعن قناعة تامة وادراك نير.

وكل قيم لا تؤسس وجودها على منطق وعلى فهم مشترك.. هي مجرد تباه زائف، وحضور مؤقت.. من شأنه ان يشيع في المعارف كلها وفي شتى الميادين التي تحدث عنها الصادق النيهوم.. وهذا لا ننشده لمجتمع نريده الأكثر تفهماً لمهماته الحاضرة والمستقبلية.. وصولاً الى ازدهار تتعزز فيه ارادة الانسان المؤمن بالقيم النبيلة منجزة له ومنه.. ومن مجتمع يوصل قيمه الحميدة(*).

في: "يوميات لص" لجان جينيه

يعد المجتمع ــ زماناً ومكاناً ــ بمثابة الأرض البكر التي ينبت فيها الجذر الانساني ويعطي قطافه على مدى الازمنة والامكنة اللاحقة.

ومن النادر ان تتشكل رؤى الأفراد والجماعات خارج اطار المجتمع الذي يعيشون فيه ويتفاعلون مع خصائصه ومكوناته..

من هنا نتبين وجود قواعد وقيم وأعراف ونشأة.. يتفق عليها الجميع، ولا ينقطع عنها إلا قلة نادرة.. لتصبح هذه المجموعة مجال تندر القطاع الأوسع من المجتمع.

وعندما ينشأ المرء في بيئة معينة، لابد ان يكتسب خبراتها وتعاليمها ويوشم سلوكه بسلوكها..

وعندما نتحدث عن شخصية صائتة مثل الكاتب الفرنسي الراحل: جان جينيه (١٩١٠ ــ ١٩٨٦) ندرك جيداً الاسباب التي تكمن وراء ممارسته الشرور بانواعها: السرقة، والجريمة، والشذوذ، والادمان..

فقد نشأ جينيه في مجتمع يتنكر لسلالته. ولجذرد الأصل، وعده المجتمع لقيطاً لأن أمه تركته، ولا يعرف صلبه من أبيه. حتى ان ملجأ الأيتام تقاطع معه على الرغم من طفولته وهي في مراحلها الأولى .. وهو نفسه لم يختر هذا

الواقع وانما وجد نفسه فيه مرغماً ومن دون دراية منه.. لكــن كــان عليــه ان يواجه هذا الواقع المر وبالتالي كره مجتمعاً يكرهه اصلاً.. وعندما كشفت ســرقة بسيطة مارسها وهو في العاشرة من عمره.. لم يكن هنـــاك مــن يوجــه اليــه النصيحة، ومن يوجه اليه الصواب ويرشده الى قيم الأمانة والنزاهة والصدق.

لقد عاقبه المجتمع، وهو لم يدرك بعد معنى العقوبة، لقد سجنت طفولتـــه وجعلته يدرك مبكراً انه على تضاد بين مجتمع يفرض ارادتـــه عليـــه، ورغبتـــه الملحة في ان يعيش مثل سواه من الأطفال.

الصدمة الأولى، كانت معاقبته، وكانت هذه العقوبة الخطوة الأولـــى التـــي قادته الى أخطاء متلاحقة، والى تحديات مستمرة، والى تمرد بات يتكرر فيها كــل فعل يريد جينيه ان يحققه لنفسه، من دون ان يبذل أي فرد في المجتمع مساعدته في ان يحيا مثل سواه.. فهمت منذ صغري، ان كل منافذ الحيـــاة مســدودة فـــي وجهي، ذهبت الى المدرسة الرسمية حتى الثالث عشرة من عمري، افضل ما كان بوسعي التوصل اليه، هو ان اكون محاسباً او موظفاً صغيراً، ولذلك فقد أعـــددت نفسي لا لأصبح محاسباً، ولا حتى لأصبح كاتباً، بل لأراقب العالم"[1].

وكان من نتائج هذه المراقبة ان يبحث لنفسه عن سبيل الخروج من سجن متكرر ومن ترف السجن واللامبالاة المحاط بها.. وبات هدفه الأقصى من الحيـــاة: "النسيان، فاغلب اعمالنا لا وجود لها وخواء الحياة التائهة، ونحـــن لا نقـــوم إلا نادراً بالجهد المعتمد لتجاوز مثل هذه الحالة.."[2].

---

[1] حوار مع جان جينيه ـ اعداد: بيار ابي صعب ـ جريدة: السفير في ١٩٨٤/١٢/٢٩.

[2] رحيل القديس جينيه / فكرت ان ترتكب جريمة دون ضحيةـ حسونة المصباحي ـ مجلـــة: الدستور في ٥ أيار ١٩٨٦.

وهكذا "وهب حياته لشر وسلك اليه كل سبيل ممكنــــة" وأخــذ يقــول: "ان المجتمع يستنكر الشر والرذيلة ولهذا أسعى انا اليهما سعياً"[٣].

ولم يكن يتخذ الكتابة إلا لهدف واحد: "لم أكتب إلا لاخرج من السجن، لكـي ينظر الى حكامي كمجرم غير عادي، همي الخروج من السجن، وفي السجن كتبت خمسة كتب، وقد عفا عني رئيس الجمهورية فنسان أوريل بنفســه، وبالمناسـبة فقد استغرب ابنه بول الذي كان صديقاً لي ومديراً لمكتبه بان قال له: انه لا حــق لك في هذه الكتب ما دمت تمنع تداولها.."[٤].

وعلى الرغم من اهتمامه بكتاب مثل: سان سيمون، وشاتوبريان، ونرفـال، وبودلير وعدهم (تراثه) وعنايته بقراءة: سارتر، وبارت، وفوكو، ودريدا.. إلا انه يقول: "أنا لست مديناً لأحد، سوى للسجن وحده" وانه من: "سلالة المضطــهدين.. وكل الكتاب الكبار ينتمون الى هذه السلالة.." وانـــه .. لا ينتمـي لأحــد، فلقـد: "وجدت نفسي بلا اسرة أحمل اسمها. لم أعرف البحبوحة العائلية. درجت أولاً في مأوى المساعدة الاجتماعية.."

هذا الواقع فرض عليه: "لا أتحدث إلا عن الاوهام والاشياء الحقيقية تظــل قابعة في نفسي" وعندما كبر وانتشرت كتبه ولم يعد يحتاج للمال، أصيب بسرطان الحنجرة وبات يشبه "روكفلر.. الذي عاش أيامه الأخيرة وهـــو يقتــات ببيضـة مسلوقة كل يوم وإن على آنية من ذهب"[٥].

---

[٣] جان جينيه / شاعر الشر وأديبه / تأليف: سارتر ــ بقلم: د. محمـــود السـمرة ــ مجلـة: العربي/ حزيران ١٩٦٧.

[٤] جان جينيه في جحيم الحياة والكتابـــة / حـوار: احمـد المدينـــي، جريـدة: الثـورة فـي ١٩٨٢/١٢/١٠.

[٥] المصدر نفسه.

وبسبب فقدانه حنان الأم في طفولته، فقد بقي عنده هذا الـــهاجس طــوال عمره إذ لم تشغله المرأة أبداً إلا من خلال أربع نساء أثرن اهتمامه وهن: "مريـــم العذراء، وجان دارك، وماري انطوانيت، ومدام كوري".

كما يعتقد جينيه ان كتبه اذا كانت مثيرة لغرائز عدد مـــن القــراء.. فـــان السبب يكمن في كونها "مكتوبة بطريقة رديئة".

واذا كان من نتائج تنكر المجتمع له.. انصرافه الى الشر والجريمة، فإنـــه بازاء ذلك يعلن عن براءته ضمناً: "أفكر في جريمة دون ضحية".

وعندما وصفه سارتر بانه "يعيش الشر الى اقصاه" قال جينيه:

"اريد ان أقول انه علي ان اعيش الشر الى درجة انه مـــن المســتحيل ان ينفع ترويضي واعادتي الى صلب القوى الاجتماعية التي تجسد الخير، لا يعنـــي هذا بالنسبة لي أن أعيش الشر حتى لحظة موتـــي، وانمـــا ان اعيــش بطريقـــة تجعلني لا أجد ملجأ إلا في الشر، وليس في الخير اطلاقاً"[٦].

وفي موقع آخر يقول: "هجرتني قناعات اتشبث بها لكي أعيــش.. فمنـــذ الرابعة عشرة من عمري، عرفت انني لن اصبح سوى بوهيمـــي أو ســـارق.."[٧]

وحتى .. في تصوره اللاحق للشأن السياسي، نجده ينطلق في منهجـــه للسياســـة يقول: "لا أقصد بالسياسة تلك التي يصنعـــها رجـــال السياســـة، بـــل الاوضـــاع والظروف الاجتماعية التي تحرض على سياسة معينة" ولم يكن ليجد نفسه إلا من خلال تنظيمين ثوريين (الفلسطينيون والفهود السود)[٨].

---

[٦] رحيل القديس جينيه.. (مصدر سابق).

[٧] جينيه / عرض أخير خارج السجن ــ اعداد: فؤاد ابو منصور. جريدة الانوار في ٦ تشـــرين الثاني / ١٩٨٢.

[٨] حوار مع جان جينية .. (مصدر سابق).

وعندما جاء جينيه الى بلادنا مرتين: "مرة ارسلته بلاده (جندياً مكلفاً) الى سوريا أيام الانتداب الفرنسي، ومرة حين أرسل نفسه الى خيام اللاجئين وقواعد الثورة الفلسطينية، في المرتين، كان جينيه يعبر عن مستويين متصارعين من القيم، قيم الانتداب (الاستعمار) وشهوة التوسع عند الغرب الراسمالي وقيم أخرى اكتشفها المنبوذ بعد ان أخطأه الاعدام القانوني والمعنوي مراراً.. وثانية حين كان جينيه قد بلغ نفسه بالفعل، جاء لكي يشهد ويشارك، وشهد جغرافيانا وقد اكتست بالتاريخ، بصراعاته واشتباكاته ودم ضحاياه وصانعيه في آن واحد، وشارك، ولكن في زمن الجثث المبعثرة في شاتيلا وكان يقاوم كما يقول: الذباب والرائحة واسرائيل معاً"[9]. من هنا.. من هذه القناعة التي وصل اليها قبال للفلسطينيين "لم تموتوا. لقد مات الآخرون".. كراهيته للآخرين و"ولادته كالعشب البري بين الصخور، لم تأكله الابقار، التي عاش معها لأنه كان مراً، ربما لأنه كان مثلها محكوماً باللاحرية.. ولأنه رجل صنع في الهواء الطلق، في لحظة اكتئاب قال انه ولد في القبر"[10]. هي التي قادته الى التنكر والتنديد بالآخرين.. فيما وجد في الفلسطينيين قوة جديدة تريد الانفلات من واقع مر فرض عليها.. مثلما فرض عليه واقعه المرير..

ويكشف جان جينيه عن نفسه بشكل واضح وصريح في كتابه الأهم (يوميات لص)[11] الذي يختلف عن كتبه ونصوصه الابداعية جميعها.. إذ نتعرف مشاهد مأساوية وصدامات حادة يواجهها جينيه مع مجتمعه.. حتى ليجد نفسه

---

(9) جان جينيه / الموت على حافة الاسطورة ـ خيري منصور. جريدة الجمهورية في ٣ ايار ١٩٨٦.

(10) هناك موت فقط ولهذا مات جان جينيه / اورنيت بريس. جريدة الثورة في ١٣/٥/١٩٨٦.

(11) يوميات لص / جان جينيه: ترجمة: احمد عمر شاهين، دار شرقيات/القاهرة ط١/١٩٨٨.

في عالمه الأثير (السجن) وهو أهم بكثير من العالم خارج السجن.. ولذلك بات زملاء السجن وهم كيانه الافضل: "ولو رسمت سجينا لزينته بالزهور حتى يختفي تحتها ويصبح بدوره زهرة جديدة عملاقة" ومع علمه ان الرجال المحكومين بالشر، ليسوا دائما نبلاء. الا انهم يملكون فضائل الرجولة وهم يندفعون برضا ودون شكوى بأرادتهم أو بسبب حادثة فرضت عليهم. الى الخزي والعار، بقوة اندفاع عاطفة الحب ذاتها التي تطيح بالبشر" جينيه كان يدرك انه احد أفرازات مجتمع رفضه.. من دون وجود مسؤولية له عن الأسباب التي تكمن وراء هذا الرفض.. ان المجتمع هو الذي ينبغي ان يرفض، لأنه المسؤول عن كل ما لحق به من ضرر.. "لقد ايقظونا بسرعة دون اهتمام بقطع رؤوس احلامنا عن أمجادها".

الواقع وحده لم يكن كافيا للتدمير، وانما فرض المجتمع قتل الأحلام.. فأي عسف واجهه جينيه من مجتمعه؟

"لا اريد ان اخفي في هذه اليوميات الاسباب الاخرى التي جعلتني لصا، ابسطها جميعا الحاجة الى الطعام، وهكذا فان التمرد او القسوة او الغضب او اية مشاعر مشابهة لم تدخل قط مجال اختياري.. وبعناية شديدة وحرص غيور، جهزت لمغامراتي كما يجهز المرء مخدعه أو يرتب غرفة حبه. كنت أتحرق الى الجريمة. أطلق لقب العنف على كل عاطل عن العمل. تواق الى الخطر وهو عنف يمكن ان نلحظه في نظرة أو خطوة أو ابتسامة، تثير في داخلك زوبعة أو اعصاراً، عنف هادىء يوهن عزيمتك ويقلقك وتردد احياناً (ولد فريد من نوعه).

لقد كان جينيه يدرك جيدا ما يفعل، وان هذا الفعل لا يمكن للمجتمع ان يقبل به، إلا انه الرد الوحيد الذي وجده جينيه مناسبا للتعامل مع مجتمع يرفضه، وبالتالي كان عليه ان يبادل الرفض.. برفض مماثل برفض اكثر تحدياً وايغالا في

رفض الاستسلام والخنوع وطلب السماح والمغفرة.. في وجوده الآثم الـذي لـم يقترفه هو وانما وجد نفسه فيه.

لنتأمل صورة من حياته:

"كان القمل يسكننا، واصبح وليفنا، جلب الينا حضوراً وحيوية. حتـى انـه حين يتركنا تصبح ملابسنا بلا حياة، كنا نحب ان نعرف اين يجتمع لنشعر بـهذه الحشرات نصف شفافة، ومع انها غير اليفة، إلا انها كانت جزءاً منا.. كان القمـل العلامة الوحيدة لنجاحنا، نجاحنا السفلي، واصبح مفيداً لمعرفة انحلالنا، كـالنصر يعرف بمكاسبه من اللآليء، لذا غدا القمل ثميناً. كان عارنا وانتصارنا".

لقد وجد جينيه الفة في القمل.. بديلاً عن الفة المجتمع.. فأي قطيعة كـانت بين جينية والعالم الإنساني الذي لم يعد يحس به.. في ما يحس بحشرة تمتـص دمه!؟

كذلك يوغل في اعطاء معنى لعلاقته بالكائنات الاخرى:

"..كلما مررت بزهرة الجنينة التي تزهر في الاراضي البور، شعرت بوشائج عميقة تربطني بها ".

الزهرة البرية كذلك، الى جانب القمل.. في علاقات مع جينيه.. الذي افتقـد العلاقة الطبيعية مع كائنات تماثله في الأقل..!

كذلك مضى جينيه الى: "منطقة صخرية حادة تنطح السماء وتمزق لونـها اللازوردي، هذا العوز الخبيث الاعجف القاسي الذي يزدري رقتـي وانسـانيتي، اغواني ان أكون قاسياً، وأصبحت أقل وحدة حين اكتشفت فـي الطبيعـة إحـدى صفاتي الأساسية: الفخر وأردت ان أكون صخرة وسط الصخور، آنذاك سـأغدو سعيداً وفخوراً، لأني سأتحد بالأرض وألتحق برفاقي، فأنا أعرف مملكة المعـادن، سنتصدى للريح والمطر والصدمات..".

لقد قد جينيه من صلابة الصخر.. فلم يعد يحس بالشفقة، ولم يعد يعـــرف الرقة والرأفة والحنان.. بات صخرة، قطعة معدن صلبة، حتى تقوى على مواجهة سلبيات المجتمع منه.

كذلك تخيل جينيه "العالم الخارجي بغموضه واضطرابه.. أكثر اكتمالا فـــي الليل" وهي صورة قاتمة تتشكل في حياة جينيه... ذلك انه: "كلما كبر ذنبـــي فـي عيونكم، افترض ان تكون حريتي أكبر، وعزلتي أكثر كمالاً وتفـــرداً، واكســبتني ذنوبي حق الذكاء.." ويضيف: "شعرت وانا مهجور من العائلة، ان من الطبيعـــي ان أكون ناقماً على هذا الوضع.. وقادني هذا الى السرقة، ثم الســـرقة المقترنـــة بالجريمة، أو بموقف راض عن الجريمة.. وهكذا رفضـــت بحـــزم العـــالم الـــذي رفضني".

كان لابد لجينيه ان يوجد لنفسه حلولاً.. وان كانت هذه الحلـــول ســـلبية.. ذلك ان سلبياتها، بمثابة رد فعل لسلبيات ضدية تلاحقه.. "أسرق بمـــهارة لأقيـــم أودي.. أبحث أكثر من أي شيء آخر.. حتى أكون ضمير اللـــص الـــذي أكتـــب قصيدته".

انه ليجد نفسه في حالة ذهول.. لأسباب يوضحها:

"ذهلت لكوني تحت السماء، ذات النجوم نفســـها التـــي رآهـــا الاســـكندر وقيصر، وانا مجرد شحاذ ولص كسول، عبرت أوربا كلها بوسائلي الخاصة التـــي هي على النقيض من طرق المجد، وها أنذا أكتب لنفسي تاريخاً سرياً مفصلاً قيمـــاً مثل تاريخ الغزاة العظام، ولذا كان من الضروري ان تجعل مني هـــذه التفـــاصيل الشخصية الأكثر تفرداً وندرة، وواصلت تجربة أكثر طوالع السوء كآبة".

جينيه.. كان مشحونا باحاسيس استثنائية تفرق بينه وبين الناس الاسوياء، حتى ليعجب ان النجوم التي رآها الاسكندر وقيصر، هي النجوم ذاتها التي يراها هو.. هو هذا الكائن الذي رفضه المجتمع!

ويمضي في الكشف عن وطأة هذا الاحساس المخيم عليه:

"حاربتني الرياح والبرد والأشواك ونوفمبر. صعدت قمة كانت وراءها ايطاليا وحتى اصلها واجهت وحوشاً خبأها الليل أو كشفها، كدت أمسك قرب الاسلاك الشائكة لحصن حيث كان الخفراء يمشون ويتهامسون. كنت رابضاً في الظل وقلبي يدق. آمل قبل ان يطلقوا علي النار ان يدللوني ويحبوني، وان يكون الليل ممتلئاً بحراس مرحين. غامرت عشوائياً بالسير على الطريق. كان بالمصادفة الطريق الصحيح. أحسست ذلك من موقع باطن قدمي على أرضه الأمنية".

كل شيء حوله.. صار على جفاء في علاقته به. صارت الاشياء ضدية، وعليه ان يتعامل، ويتعايش مع ضده.. وهكذا كانت: "كل العجائب التي رأيتها جعلتني قلقاً، لكني تماسكت حتى اخترق ــ دون ان اضر بنفسي ــ سترها المألوف".

وبات يحرص على ايجاد مبررات لما يفعل: "ان المعيار الوحيد لأي عمل هو اناقته، وانا لا أناقض نفسي حين أعلن اختياري للخيانة، فهي قد تكون عملاً انيقاً جميلاً يعتمد على القوة العصبية والكياسة، وأرفض فكرة النبالة التي تحبذ بالتحديد، نوعاً من التوافق الشكلي، وتتجاهل جمالاً غير مرئي تقريباً، جمالاً لابد من الكشف عنه في مكان غير التصرفات والاشياء المهنية. لا أحد سيسيء فهمي لو كتبت (ان الخيانة جميلة).. الخيانة التي لا يمكن تبريرها بأي عذر بطولي..

النوع الحقير الذليل من الخيانة، التي تنبع من أحط المشاعر نبالة، الطمع، الحسد، الكراهية..".

وهكذا.. يضفي جينيه على أسوأ القضايا سلبية، قدراً من المشروعية، وكثيراً من الجمالية، مؤمناً في انه ما دام لقيطاً اجتاز طفولته وحيداً، ولأنه لص فقد اعتقد في تفرده، تفرداً في لصوصيته "وأعتبرت نفسي استثناء وحشياً.." هذا الاستثناء، لم يكن جينيه ينقاد اليه طواعية، أو بحثاً عن مجد خاص يباهي به نفسه. لم يكن كذلك، لكن ضغوط المجتمع عليه، المجتمع الذي لفظه والقى به في أماكن راحت تسحق وجوده شيئاً فشيئاً.. جعلته يتضخم ويبحث لنفسه عن سبل وادوات يستخدمها لمواجهة حياة مرة قاسية، امتحن فيها انسانيته، ومواقفه واصراره على ان يعيش.

من هنا لم نجد في صفحات "يوميات لص" كلها ما يشير الى عواطف خاطبت روحه، وحنان شاغل قلبه، وفرح ملأ عليه كيانه حتى ان عملية الكتابة ـ أصدرت الكتب الآتية: الحراسة العليا (رواية)، ويوميات لص (مذكرات / سيرة ذاتية)، ورسائل الى روجي بلان، ومسرحيته: نوتردام الودود، والمحكوم بالاعدام، واغنية حب، والزنوج أو السود، والخادمات والستائر، والشرفة. وسيدة الازهار (رواية)، الى جانب كتابين عن: رامبرنت، وجياكوميتي ـ كانت بمثابة علاج لمصيره السجين، ولفراغ روحه، وامتلاء صدره بالهواء الفاسد الذي أودى به الى سرطان الحنجرة.

لقد كان جينيه طوال حياته يحس بالاختناق.. ومع ذلك اصطفى لنفسه ان يكتب "أدباً مضيئاً من خلال عذابات ودماء مضيئة لم يفلح القهر عن ايقاف اشعاعها".

جينيه.. أنموذج الانسان الذي مارس المجتمـع عليـه كـامل الضغـوط.. وحاول ان يعطل فيه الانسان والمبدع.. إلا انه كان يشق دروبه بمشـقة نـادرة، وتمكن ان يواجه ذاك الرفض كله، تلك الحياة المدمرة كلها.. ويكتب كما لم يكتـب سواه.. حتى نبه سارتر ـ بما يملكه كله من ألق ومجد فلسفي معمق ـ للكتابـة عنه ووصفه في كتاب أثير، يعد من كتب سارتر المهمة (جان جينيـه / القديـس والشيطان) ذلك ان قدسية جينيه تنطلق من هذه العبقرية الكامنة في اعماقه، حتى اذا فجرها.. كانت معادلاً حياً لكل ما ارتكبه من أخطاء لا يرضى عنها الجميـع.. مثلما لا يرضى هو نفسه عن مجتمع كان من الممكن ان يسحقه الى الأبد.. لكنـه خرج من جحيمه مثل عنقاء.. معافى بكتبه.. معلولاً في عافيتـه حتـى انطفـأ، واضاءت كتاباته.

الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي

الدعاية والاعلان والاعلام.. سبل من اساليب المخاطبة التي لا يراد منها سوى التأثير في الشخص الاخر. ولا يهم في مثل هذه المخاطبة ان تكون سليمة التوجه، وصادقة العطاء، ونبيلة الأهداف، المهم فيها ان تحدث تأثيراً مباشراً في المتلقي وان يكون هذا التأثير لمصلحة مطلق الخطاب وليس لمن يستقبله..

صحيح ان شبكة المعلومات الحديثة لم تعزل الدعائي عن الثقافي، ولا المعرفي عن الاعلامي، ولا المفيد الجاد عن الممتع والهازل.. لكنها تركت للمتلقي حق اختيار ما يناسبه وتستجيب له نفسه وافكاره وتطلعاته. في حين يريد الخطاب الدعائي ان يحقق استجابة متفردة ومباشرة.. تؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق منفعة ذاتية أكثر من تحقيق منفعة لمصلحة الجماعة.

ويفصل كتاب: "قصف العقول / الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي "في هذا الشأن.

وتبدأ دعاية المنفعة.. سليمة من خلال اتخاذ عنوان جديد للكتاب يختلف عن العنوان الأصلي..

"قصف العقول" عنوان جديد اعتمده المترجم اختياراً واجتهاداً بغية اثارة انتباه القارىء العربي واجتذابه لاقتناء الكتاب. أما العنوان الأصلي فهو: Munitions of the Mind War Propaganda كما هو مثبت في مطلع الكتاب المترجم.

من هنا نتبين ان المترجم مارس دور الدعائي ـ وهو ما يندد به المؤلف ـ متجاوزاً طبيعة التوجه التي ينطلق منها هدف هذا الكتاب!

نعم.. ان المؤلف يصف الدعاية في كونها "اداة للاقناع السياسي، الايديولوجي النفسي وتعمل ـ الدعاية ـ في إطار ظروف تاريخية اجتماعية وسياسية وثقافية محدودة. لا يمكن ان تكون هدفاً في حد ذاتها للهجوم. وان المشكلة اللااخلاقية أو الفكرية لا تثيرها (الاداة). وانما قد يثيرها مضمون الرسالة التي تحملها لتلك الاداة.. ولكن.. لابد ان تكون هناك توجهات منطقية فاعلة في كل خطاب.. سواء أكان دعائياً أو ثقافياً أو كليهما معاً. إذ لا يصبح بمقدورنا فصل الدعائي عن الثقافي بوصفهما خطابين موجهين إلى سبل معينة يقصد بها اقناع الآخر..

على وفق هذه الفعالية التي تحققها الدعاية. يمكننا ان نعرف: "لماذا ظل الجيش الألماني يقاتل حتى النفس الأخير رغم انهيار وتلاشي كل أمل في النصر. بل حتى في هدنة تحفظ ماء الوجه؟ هل كان الالمان يدافعون عن هتلر أم عن المانيا؟ ولماذا حارب الروس بكل هذه الضراوة حتى النصر. ولم يحارب الفرنسيون اطلاقاً ـ في بداية الحرب؟ ولماذا كان الايطاليون يلوذون بالفرار حتى وهم متفوقون. بينما كان الانكليز يصمدون ويتماسكون حتى في حالة (تفوق الاعداء) الكاسح؟".

ان الأمر.. له تماس بفاعلية الدعاية وتأثيرها الفاعل في الآخرين.. صدقاً أم كذبا. ذلك ان الدعاية لا تعتمد على (جمود) اخلاقي ولا سمو في الوصول إلى اهداف تسمو بالأفراد والجماعات.. انها (ميكافيلية) الممارسة. إذ تعتمد سبلا شتى من أجل الوصول إلى ما تريده من اهداف ان: فيليب تايلور ــ مؤلف هذا الكتاب ــ يسعى الى دراسة جوانب مختلفة للتفاعل الانساني ــ سلمياً أو حربياً ــ ذلك ان كلا العمليتين.. ما هي إلا محاولات للاقناع..

نعم.. "الحرب في جوهرها تبادل منظم للعنف، والدعاية في جوهرها عملية اقناع منظمة. وبينما تهاجم الأولى الجسد. فإن الثانية تنقض على العقل، الأولى حسية. والثانية نفسية" ــ كما يقول المؤلف ــ لكن ما هو حسي قد يتداخل مع ما هو نفسي.. الأمر الذي يجعل لعملية التأثير.. هيمنة كلية. وثقلاً ليس من السهولة ابعاده عن الانشغال الذهني.

يتساءل تايلور: "اننا نعرف بالفعل ان التاريخ يكتبه المنتصرون على الارجح. وان غنائم الحكم التاريخي يجمعها المنتصرون.. فهل يعني هذا.. ان التاريخ دعاية؟" المنتصرون بالتأكيد لا يسمحون للحقيقة باختراق أمنهم وقوة بأسهم.. بأسم الموضوعية في كتابة التاريخ..

من هنا نتبين الفرق بين الدعاية والتربية..

"ان الدعاية تعلم الناس (ما) يفكرون فيه، في حين تعلم التربية الناس (كيف) يفكرون. ولا تستنكف الديكتاتوريات الحديثة من كلمة (دعاية) مثلما تستنكف منها النظم الديمقراطية. وربما يرجع هذا إلى أن الديمقراطية تقدس الوهم القائل إنه ينبغي السماح للراي بأن يتطور على نحو طبيعي لكن هذه (الديمقراطيات) تقع في (الوهم).. أو اختلاق الوهم والعمل على نشره واقناع الآخرين به.. الامر الذي لا يجعل (الديمقراطيات) تعمل بمعزل عن

(الديكتاتوريات).. والاختلاف الوحيد بينهما هو ان (الديمقراطيات) تعمل وفق (اوهام) في حين تعمل (الديكتاتوريات) على وفق مباشر يفرض الأمور فرضاً وبالقوة من دون انتظار نتائج الوهم الذي تمارسه (الديمقراطيات).

ويكشف المؤلف عن حقيقة مفادها ان "عبادة الحرب اقدم عمرا من عبادة السلام بكثير. ولذلك فإن الدعاية الموجهة لدفع الناس إلى القتال في الحرب عملية اقدم عمراً بكثير من الشكل غير المتطور بعض الشيء للدعاية الموجهة لحمل الناس على القتال من أجل السلام".

والحرب عادة هي من صنع الاقوياء. من حيث هم يهاجمون ويعطون المسوغات لهجومهم دعائياً. الأمر الذي يجعل مسوغات السلم ضعيفة؛ بسبب صدورها من موقع ضعف لا غير..

وفي أسوأ الاحوال يمكن للدعاية ان تنوع ضغطها على المجتمع لتجعله في زمن الحرب يفضل "الانضمام إلى المقاتلين بدلاً من البقاء في البيت".

وعندما تتنوع مثل هذه الصورة لدى المجتمع، يصبح من الصعب الاحتفاظ بموقف مضاد للحرب.. الأمر الذي يحوّل الرغبة الملحة للسلم الى رغبة مذلة وسلبية!!.. وعندما يستعرض المؤلف (الدعاية للحرب في العالم القديم) نجده ينتبه إلى سعي الانسان للسيطرة على الطبيعة لكونها هي الدليل على استخدام القوة.. إلا ان الانسان في الوقت نفسه استثمر تجدد الطبيعة استثماراً سليماً.. عن طريق زراعة الأرض.. واستخدام المياه.. وقد يكون مستخدماً لأدوات قتالية، لكنها ادوات مهنية كذلك.. ويشير: "أقدم ما بقي من أدلة مكتوبة على الاتصال الاجتماعي تأتي من منطقة ما بين النهرين القديمة في الألف الثالثة والألف الثانية ق. م "إلى الواح اعدت وكتب عليها بأدوات حادة.. ادوات تخترق قسوة الطبيعة.. الأمر الذي يجعل عملية مواجهتها مسألة منطقية.. ذلك انه ليس من

المعقول الاستسلام لتلك القوة والتلويح لها بغصن زيتــون حتــى تســتجيب لنــا وتؤدي لنا الخدمات التى نريد!

واذا كان فيليب المقدوني (٣٨٠ ــ ٣٣٦ ق . م) قــد "أســس أول هيئــة محترفة للمخابرات "فان هذا التأسيس قد حدد دور جهود رجل الدعايـــة لتحقيــق الوحدة الاغريقية".

وعلى وفق هذه المهمة يكون الدعائي حاملاً مهمة خداعة ومعتمداً علـــى سبل خفية في الايغال والانصراف كلياً إلى تحقيق المنجز وجعله فاعلاً.. لقد عمــد سيبيو/ العبقري العسكري، قاهر هانيبال إلى الدعاية.. فقد "إجتهد للتـــأثير علـــى عقول الرجال منذ البداية" كما روي عن الاسكندر "ان أمه حملت به بعد ان واقعها ثعبان".

ومثل هذه الدعاية تسعى الى اختراق مخيلة الناس واستقطابها.. بما هـــو نادر وخارق يدعو إلى الانبهار.. حتى يصل إلى اقناعهم بأنهم في حالة عجز امام قوى اللامألوف أو الندرة الفذة هذه.

وفي التأكيد الذي اورده اوغسطين (٣٥٤ ــ ٤٣٠) ان: "الحرب هي ثمــن السلم": مبررات لإشغال الحروب في الازمنة كلها!

كما ان "الدين، الحرب، الفروسية كلمات ثلاث لا يمكن فهم عقــول النــاس في العصور الوسطى المتأخرة من دونها".

وفي حرب المائة عام التي قامت بين الملوك الانكليز والفرنسيين، كان لابد من اعتماد الدعاية لادامة الحرب على مدى قرن كامل!

وهناك من يجد قناعته في الاستسلام إلى رأي ماكيافيللي: "الحــرب تكــون عادلة حين تكون ضرورية".. في حين لم يحدد اوجه الضرورة هذه واين تكمـــن (عدالة) هذه (الضرورة).. في حين وجد بعضهم قناعته فيما ذهب اليه ماكيـافيللي

من دون مراجعة.. ومثلما لم تكن هناك توجهات مضادة لما اكده جوزيف جوبلــز وزير الدعاية النازية ان "عبادة هتلر هي اعظم منجز" اتجهت الدعاية البريطانيـــة إلى دعوة تقول: "شجاعتك انت وابتهاجك انت، وعزيمتك انت، سوف تعـــبر بنــا الأزمة".

ان اساليب الدعاية التي يناقشها هذا الكتاب الذي يعود الـــى جذرهـــا الاول حتى لا تكون في ذاكرة القراءة لكونها وليدة الحاضر، وإحدى افرازاتـــه الســلبية انما هي في حالة انتقال وتطور من عصر إلى عصر.. وانه ما مـــن انســان أو مجتمع أو دولة استبعدت الدعاية أبداً ــ وان ادعت هذا ــ فإنما هو الآخر جـــزء من اسلوب دعائي معد ومرسوم.

إلا ان فيليب تايلور لا يناقش على نحو فعال مديات هذا التأثير فـــي واقـــع الشعوب والأمم.. انما هو يستعرض ما جرى، وليس اهم ما جـــرى ولا أول مـــا حدث.. ليكون مصدر تنبه ومراجعة.. ومن ثم يكون لـــ "قصف العقول" صفة هـــذا التأثير وفاعليته.. وهو ما كنا نبحث عنه في كتاب يحمـــل مثـــل هـــذا العنـــوان المثير..

كذلك لا نجد في الكتاب ما يجعلنا نقف عند أثر الدعاية التي راحت تغـــرس من خلال استخدام اجهزة الاتصال والمعلومات الحديثة تأثيرها الحاد والمباشـــر.. الذي بتنا نتلمسه.. في حين غيبه عنا كتاب نعتقد انه سيجيء بأكثر ممـــا نعـــرف ونعيش ونواجه من متغيرات دعائية شتى كل يوم.

ان فيليب تايلور / مؤلف هذا الكتاب، استاذ التاريخ الدولي الحديـــث فـــي جامعة ليذر البريطانية منذ عام ١٩٧٨، نـــائب مديـــر معـــهد دراســـات علـــوم الاتصالات في الجامعة نفسها.. لم يفلح تمامـــاً فـــي التوفيـــق بيـــن: (التـــاريخ والاتصالات) في كتاب يجادل ويعمق احساسنا بالتاريخ ومديات التـــأثير الدعـــائي

في رسمه.. كما اغرانا المترجم الاستاذ سامي خشبة وهو الاعلامي الذي غـــذى ذاكرتنا بعشرات الكتب المؤلفة والمترجمة .. لكنه في "قصف العقول" بـــالغ فـــي الصفة، وضيق في تناول الموضوع على نحو اكثر ايغالاً في نقل حقائق الاحـــداث والاشخاص ومناقشتها.. مقارنة بما يمكن للدعاية ان تحققه.

نهاية التاريخ والانسان الأخير*

على مدى اكثر من (٣٠٠) صفحة كبيرة، يتوصل: فرانسيس فوكوياما في كتابه الشهير "نهاية التاريخ والانسان الاخير" الى ان: نهاية التاريخ تعني "نهاية الحروب والثورات الدموية" وان "حياة الانسان الخير هي حياة الامان الشخصي والوفرة المادية".

مؤكدا ان السبيل الوحيد لمستقبل البشرية هو اختيار "الديمقراطية الليبرالية" بوصفها الأنموذج الامثل للعيش بسلام ورخاء وحرية.. متجاوزا مفهوم "الديمقراطية النيابية" التي تعني هيمنة البرلمان بوصفه السلطة المركزية في اختبار القوانين ونظام الحكم.. مهملا الاشارة الى "الديمقراطية الاشتراكية سبيلا من سبل الاصلاح الجديد.. معتبرا "الديمقراطية الليبرالية" منتهى التطور الايديولوجي للانسابية، والشكل النهائي لاي حكم انساني، أي انها من هذه الزاوية نهاية التاريخ: ويمضي فوكوياما في تفاصيل واراء مختلفة من اجل تعزيز وجهة نظره التي بدأت في مقال نشره في مجلة The National

* نهاية التاريخ والانسان الأخير /فرانسيس فوكوياما، الاشراف/ المراجعة والتقديم: مطاع صفدي، فريق الترجمة / د. فؤاد شاهين، د. جميل قاسم، رضا الشايبي، مركز الانماء القومي، بيروت ١٩٩٣.

Interest صيف ١٩٨٩ ثم طور ذلك المقال ليصبح في نهاية الامر هذا الكتاب الذي نناقشه.. والذي يقدم افكاراً قطعية من دون ان يبرهن عليها.

يقول: "ان الديمقراطية الليبرالية تبقى التطلع السياسي الوحيد المتماسك الذي يربط مناطق وثقافات مختلفة في جميع انحاء الكرة الارضية". ونحن نعتقد.. وعبر تجارب الشعوب وفي ازمنة مختلفة، اننا لا يمكن ان نجزم او نقطع بنظرية شمولية لجميع انحاء العالم، فمثل هذه النظرية من شانها ان تصطدم بالواقع الاجتماعي والطبقي الذي يفرز طبيعة الحكم الافضل كما يراها الشعب.. ويحددها على وفق ارادته..

وقد دلت التجارب الى ان غياب الاشتراكية في عدد من البلدان قد جعلها خاضعة لاهواء فريدة غير عادلة، وعرضة للنهب والابتزاز من قبل مجموعة من الافراد تتحكم في حركة الانتاج والسوق ويرى فوكوياما ان "الانسان وحده يستطيع ان يتجاوز غرائزه الحيوانية الخالصة ومن بينها بشكل رئيس غريزة البقاء ـ من اجل الالتزام بمبادىء واهداف اسمى واكثر تجريداً".

ونرى ان غريزة البقاء ـ كما يسميها فوكوياما ـ يعني بها غريزة البحث عن سبل الخلود والمجد، ومن هنا كان الابداع والفكر والعلم والبحث عن طريق من اجل بقاء الانسان اطول زمن ممكن.. أما الفناء فهو ظاهرة طبيعية ازلية لابد منها.. وعبرها يتساوى الانسان والمخلوقات الأخرى. ويتفق فوكوياما مع أفلاطون في نظرته الى الكائن الانساني في تكوينه من ثلاث مركبات هي: "جزء راغب وجزء عاقل وجزء يسميه تيموس أو روح الحياة" ويعتقد انه بالامكان الجمع بين الرغبة والعقل.. في حين يسعى الانسان الى الاعتراف بكرامته الذاتية أو بكرامة الشعب أو المبادىء التي يشحنها بالكرامة.

ولكن لماذا نعزل الرغبة عن العقل وعن الكرامة.. أليس من الأصح الجمع برغبة عقلانية تقوم على قيم الكرامة؟

ويشير فوكوياما الى هتلر الذي ذهب واتباعه الى الموت في ملجأهم في برلين بسبب ايمانهم بصحة عقيدتهم النازية..لكن بريق النازية والفاشية معاً تلاشى عندما ادرك الجميع ان الحرب "نزاع انتحاري مع النظام الدولي" وفي اعتقادنا ان "النظام الدولي" مفهوم سياسي غربي جديد لا يمكن استخدامه على أحداث تاريخية سابقة له.

وفي اشارة وحيدة / يتيمة يعترف المؤلف بأن "البرتغاليين مثل الالمان واليابانيين قبلهم، قد برهنوا على خطأ تحليلات المراقبين الغربيين الذين كانوا يعتبرون انهم غير مهيئين للديمقراطية كأن كل ما يقوله الغرب هو الصحيح عدا هذه المسألة.. بعد أن تساقطت الدكتاتوريات التي دعمها الغرب في بلدان كثيرة في حين يحمل المؤلف راية الغرب في "الديمقراطية الليبرالية"!! ويدين فوكوياما الدولة التوتاليتارية التي "تعمل على هدم المجتمع المدني بمجمله لتصل الى الرقابة التامة على حياة المواطنين" معتبراً وصول البلاشفة الى السلطة السوفيتية عام ١٩١٧، أنموذجاً.. وفي الواقع ان هذه الصيغة الرقابية الحادة.. والقمع الشامل للرأي الآخر.. كانت من أسباب تفكك الاتحاد السوفيتي.. في حين بقيت النظرية الاشتراكية قائمة ويحترمها القوميون واليساريون والأمميون على حد سواء.

ويورد مثلاً لحال (الانسان السوفيتي) الذي يماثل نزلاء مأوى المجانين في رواية كين كينري "تحليق فوق عش الكوكو (الوقواق)" الذين يخافون العالم الخارجي معتقدين ان الحرية ستجعلهم يفقدون الأمن.. والحقيقة ان هذا التصور لا نجده ينطبق على (الانسان السوفيتي) تماماً.. فبعد التفكك.. لم تكن هناك حرية

بالشكل الذي يحقق الرفاهية وسعادة الانسان.. بل كانت هنـــاك فوضـــى وعـــدم استقرار وعدم ضمان اقتصادي أصلا..

ويحدد فوكوياما اسباب تفكك الاتحاد السوفيتي بجملة أسباب نوجزها بمـــا يأتي:

".. أقتصادي، المآسي التي تركها حكم ستالين، امتيازات وفساد طبقة مـــن موظفي الحزب، اعتقاد لينين انه قد حقق شكلاً للديمقراطية من خلال دكتاتوريـــة الحزب أفضل من الديمقراطيات الشكلية في الغرب".

فهل نعد سياسة الغرب هي البديل الأفضل؟

تجيب الوقائع الى ان الغرب يعاني من مشكلات كثيرة منها: أزمة الحريـــة والمشاكل الاقتصادية والتفرقة العنصرية.. وهيمنة السياسة الصهيونية على صنع القرار الغربي.. ولا تقل تأثيراً عن (ما فيا القطن) الاوزبكستانية بادارة الســـكرتير الأول للحزب الشيوعي المحلي رشيدوف محمياً بعلاقته الشخصية مـــع الرئيـــس بريجنيف وابنته غالينا وزوجها اســـتطاع ان يـــتربع علـــى رأس امبراطوريـــة بيروقراطية فاسدة خلال سنوات عديدة.. نجحت في تزوير الأموال الى حســـابات مصرفية شخصية وادارة تنظيم بعيد عن رقابة موسكو ــ كما يشير المؤلف ــ.

ومثل هذه الفضائح وسواها نسمعه يومياً عن بلدان غربية رأسمالية التـــي يعترف فوكوياما انها ــ أي الرأسمالية ــ تعبير أتخذ "معنى احتقارياً علـــى مـــر السنين" و "اصبح من الضروري على وفق متطلبات العصـــر، اســـتبداله بتعبـــير اقتصاد السوق الحر"!!

فهل كل هذا الاحتقار للرأسمالية مجرد تشهير بها، أم انـــه حقيقـــة يريـــد فوكوياما ان يزيل عنها هذا التشهير سيىء الصيت؟!

ان ما ذهب اليه المؤلف كون: "التاريخ الانساني يجب الا يعد.. مجرد تتابع للحضارات المختلفة أو لمستويات الثقافة المادية، بل يجب ان يعد ـ بشكل أكثر أهمية ـ كتتابع لاشكال مختلفة من الوعي، فالوعي ـ وهي الصيغة التي تدرك بها الكائنات الانسانية مشاكل الخير والشر، والنشاطات التي تجدها مرضية ومعتقداتها بمختلف أنواع الالوهية".

ومثل هذا ينطبق على الشرق والغرب مع اختلاف في المستويات.. سلباً وايجاباً، قبولاً ورفضاً.. فمثال "الثورة الثقافية" الماوية في الصين ماثلة أمامنا عندما "أجبر المهندسون والعلماء على أعمال الزراعة وغيرها من المهمات المرهقة جسدياً، إلا ان المواقع التي تتطلب كفاءات تقنية كانت تعطى لايديولوجيين مضمونين سياسياً" والأمر لا يختلف كثيراً عندما نجد ولاءات تتقدم في الغرب لمجرد قربها من الصهيونية أو البيض.. في حين يتم ابعاد السود!.. يقول فوكوياما نفسه: "ان الأسود في نظر العديد من البيض ليس رجلاً مرئياً ـ بحسب تعبير رالف اليسون ـ فهو ليس مكروهاً فعلياً، وانما لا ينظر اليه ككائن انساني"!

اذن لماذا يتم التأكيد على قول نيشته: "ان الانسان لا يكافح من أجل السعادة، وحده الانكليزي يفعل ذلك"؟!

أليست هذه العبارة على النقيض تماماً من توجه الكتاب بكامله في النظرة الديمقراطية التحررية للعالم.. في حين يضعها ـ العبارة ـ في صدر أحد فصول الكتاب من دون ان يناقشها؟!

ومن جانب آخر يعترف المؤلف بـ "البنية الاجتماعية والاثنية لامريكا كانت مطواعة بما يكفي لتلافي حتى الآن ظهور طبقات حادة أو ظهور مشاعر

قومية بدائية مهمة أو اقليات لغوية، ونادراً ما واجهت الديمقراطيـــة الأمريكيـة نزاعات اجتماعية يصعب معالجتها، كما حصل في مجتمعات أخرى أكثر تقدماً".

أليست هذه البنية الاجتماعية مناقضة لما دعا اليه فوكوياما..؟ أليس هـذا اعترافاً ضمنياً باذابة القوميات في أمريكا!.. أليـس هـذا الأسلوب قمعيـاً.. لا ديمقراطي ولا تحرري ولا حضاري؟.. في حين تعني الحرية "غياب الاكراه" علـى وفق المفهوم الهيغلي الذي يعتمده المؤلف...

ان فوكوياما يؤكد انه "لن يبقى في نهايـة التـاريخ أي منـافس حقيقـي للديمقراطية الليبرالية بعد" بروز اتفاق عام يقبل بشرعية ادعـاءات الديمقراطيـة الليبرالية في ان يكون شكل الحكم أكثر عقلانية، أي الدولة التي تحقق بوجه أكمل الاعتراف العقلاني بقدر ما تحققه الرعية العقلانية".

لكن حقائق الأمور تشير الى انه ليس من المنطقي اعـلان عـن (اتفـاق) مسبق، واجماع كلي على رأي موحد في مسألة مصيرية تخص الجميع.. ان هـذا الأسلوب محاولة لكتم الأصوات الأخرى التي قد يكون لها فهم آخر ورؤية بديلـة لــ "الديمقراطية الليبرالية" التي يدعو اليها المؤلف.

ان فوكوياما يعرف جيداً بعض اساليب الامبريالية ويشير اليها نقـلاً عـن (شومبتير) كونها: "التهيؤ اللامتميز من قبل دولة للتوسـع اللامحـدود بواسـطة القوة".. أليس هذا الاعتراف عودة الى الكراهيـة والعـداء الـذي يوجـه الـى الامبريالية كما اشار اليه فوكوياما من قبل؟

ويذهب المؤلف الى المقارنة بين "رفض العبد في بداية التاريخ، المخـاطرة بحياته في المعركة الدموية لأنه كان هلوعاً بالغريزة، اما الانسـان الأخـير فـي نهاية التاريخ فهو يعلم ان لا فائدة من المخاطرة بحياته من أجل قضية ما، لأنـه يعلم أيضاً ان التاريخ كان مليئاً بالمعارك عديمة الجدوى".

على وفق هذا الرأي تبين ان فوكوياما يسعى لقتل الروح الوطنية وتدجين البشر جميعاً على وفق رأي واحد.. سبق ان رفضه في حين نجده هنا وفي مواقع كثيرة من الكتاب يتبناه ويعلن له السيادة الكاملة على العالم!

ان كتاب (نهاية التاريخ والانسان الأخير) على الرغم من كل الآراء المتناقضة فيه، والرأي الاحادي.. كتاب جدي ومعاصر ومثير للجدل..

هل نحن في عصر صراع الحضارات؟

عندما صدر كتاب روجيه غارودي (حوار الحضارات) مترجماً الى العربية من قبل: د. عادل العوا عام ١٩٨٧ واعيد طبعه عام ١٩٨٢؛ اثار الكثير من العناية. وذلك نظراً لدقة الدعوى التي جاء بها غارودي وسلامتها وموضوعيتها وسعة افقها في دعوته لاقامة حوار جاد ومخلص وبناء بين حضارات الشعوب والأمم وصولاً الى وعي متحضر وفكر يقظ نير..

الا ان الكتاب الصادر حديثاً بعنوان: (صدام الحضارات) لمؤلفه: صاموييل هانتنغتون والذي نشر في دورية (فورين افيرز) (Foregin Affairs) وترجم الى العربية بطبعة أولى عام ١٩٩٥ في بيروت، بعد نشره في مجلة (شؤون الأوسط)، العربية؛ يقف على الضد تماماً من كتاب غارودي المشار اليه.

ففي وقت يدعو غارودي الى حوار ثقافي مثمر، يرى هانتنغتون ان العالم مقبل على صدام وحروب وفتن.. جراء تعنت كل أمة وكل شعب في الاحتفاظ بحضارته، من دون القبول بتذويبها في حضارة كونية واحدة.

وقد أحس ناشرو هذا الكتابة بأهمية ما طرحه هانتنغتون في كتابه، فعمدوا إلى نشره. إلى جانب الآراء والمناقشات التي جرت بشأنه من قبل عدد من الباحثين المتخصصين، ليتسنى للقارىء الوقوف على وجهات نظر متباينة في هذا الشأن الذي ينبغي ألا يمر على نحو عابر.

وعندما نعرف منذ البداية أهمية المستويات الوسيطة في عملية صنع القرار السياسي الأمريكي ولاسيما مركز الدراسات الاستراتيجية.. ممثلاً بـ (مارتن انديك) المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى والمدير العام لشؤون الشرق الأدنى وجنوب أسيا في مجلس الأمن القومي الأمريكي، ندرك تماماً مرجعية هانتنغتون السياسية والفكرية في كتابة ((صدام الحضارات)).

وفي وقت كان المؤرخ الراحل يحصي في دراساته التاريخية (٢١) حضارة تعاقبت عبر العهود نجد هانتنغتون يحصي سبع حضارات هي: (الغربية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الإسلامية، الهندوسية، السلافية ـ الأرثوذكسية، الأمريكية اللاتينية).

وتقوم نظرته الكلية على أن: (النزاعات الكبرى في المستقبل ستدور على خطوط التماس بين الحضارات، بسبب الاختلافات الجوهرية بين الحضارات من النواحي التاريخية واللغوية والدينية والثقافية والتقاليد...).

ويحدد هانتنغتون مفهومه للحضارة كونها: (كياناً ثقافياً، فالقرى والأقاليم والمجموعات الأثينية والقوميات والمجموعات الدينية، لها جميعها ثقافات متميزة، وأن تكن على مستويات مختلفة من عدم التجانس الثقافي) ويضيف: (أن الحضارات هي أعلى تجمع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب، ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى). ومثل هذا كله.. يتطلب التفاعل والحوار وتبادل الخبرات بين الشعوب وليس إقامة حروب وخصومات دائمة بينها.. لان الحرب والأحتدام هدم للحضارة ذاتها، وتدمير للإنسان.. باني الحضارة ومبدعها الأول...

إلا ان هانتنغتون يقول انه (ستحدث أهم النزاعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى) من دون

ان يوضح اسباب هذا التقسيم. وهل هو قائم ومفصل ومضـــاد بعضــه لبعضــه الآخر؟!

صحيح ان (صفوة المجتمعات غير الغربية هي التي تنغمس في ممارســات الغرب أكثر من غيرها وتتلقى تعليمها في اكسفورد والسوربون أو ساندهيرسـت وتتمثل المواقف والقيم الغربية) بيد ان هذا لم يقطع صلتها بحضارتها وتقاليدهــا المحلية.. فلقد كانت تسعى لاكتساب خـبرات مــن دون ان تسـعى لاذابــة روح حضارتها في حضارة الغرب على الرغم من التقدم الذي قطعته، فمــا هــي أدلــة هانتنغتون على ان (الحرب العالمية التالية، اذا ما نشبت.. ســتكون حربــاً بيــن حضارات)؟

انه على قناعة تامة بان: (القوة العسكرية للغرب بلا منافس، وفي ما عــدا اليابان، فان الغرب لا يواجه أي تحد اقتصادي، وهو يــهيمن علــى المؤسســات السياسية والأمنية الدولية.

ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدوليــــة، وتتـم تســوية القضايا السياسية والأمنية العالمية بطريقة فاعلة بوساطة مجلس ادارة مكون من الولايات المتحدة وألمانيا واليابان). وهذا يعني كما يعترف هانتنغتون نفسه بــأن (القرارات التي يتخذها مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولــي، تعكـس مصــالح الغرب، وتقدم للعالم بوصفها قرارات تعكس رغبات المجتمع الدولي. بل ان تعبــير (المجتمع الدولي) نفسه اصبح اسماً جماعياً ملطفاً يحــل محـل (العــالم الحــر) لاضفاء مشروعية كونية على الاعمال التي تعكس مصــــالح الولايــات المتحــدة والدول الغربية الأخرى).

وهذا اعتراف ضمني يشير الى ان المصالح الدولية هـــي الأســاس الــذي يلعب دوره في رسم سياسة الدولة وفي اتخاذ قرارات الحرب والسلم كذلــك.. ولا

تتعلق المسألة بصراع الحضارات، ذلك ان حضارة كل أمة تنبني بـــالوعي.. ولا وعي من دون حياة سلمية آمنة.

واذا كان نموذج الاتحاد السوفيتي ـ السابق ـ ويوغسلافيا قد تم تجزينــها وتقطيع اوصالها، فإن هذا لم يكن بسبب حضاراتـــها المختلفــة، وانمــا بســبب السياسة والتدخل الغربي وتغلغله في حياة تلك البلدان وتفتيت وجودهـــا.. حتـــى اصبح غورباتشوف وحتى يلتسين.. وكأنهما جزء مـــن السياســة التـــي ترســم الولايات المتحدة استراتيجيتها..

نعم: (ان الحضارات حقيقة ومهمة. وان الوعي بالحضارة آخذ في الـتزايد) ولكن: (النزاع بين الحضارات) لن يحل (محل الاشـــكال الايديولوجيــة وغيرهــا للنزاع) ذلك ان النزاع قتل للحضارة.. وكل حضارة تريد ان تعيش لا ان تمـــوت. من هنا نرى ان نقل عملية الصراع مـــن (المصلحـــة الدوليـــة) الـــى (صـــراع الحضارات) نظرة لا تقوم علـــى أســس منطقيــة ولا نظــرة دقيقـــة لمعطيــات الحضارات.

أما سؤال صامويل هانتنغتون: "ان لم تكن الحضارة فماذا يكون؟".

فإن الجواب مرهون بالوقائع الراهنة التي تدل عليها الحروب التي شــنتها أمريكا وحلفاؤها ضد العراق مثلاً.. ولا يمكن بأي حال ان نعزوها بسبب يتعلـــق بالحضارة، بل لحماية المصالح الأمريكية في المنطقة.

نعم.. وكما يقول الأستاذ فؤاد عجمي من جامعة هوبكنز: (ان الحضارات لا تسيطر على الدول وان الدول تسيطر على الحضارات).

بينما يقول هانتنغتون بشأن رأي عجمي: (ليس من معنـــى للحديــث عــن الدول والحضارات من زاوية السيطرة بالطبع. ان الدول تحاول موازنة القــوى) و

(ان الدول تستجيب في المحل الأول للتهديدات المتصورة ـ وحينذاك كانت دول أوروبا ترى ان التهديد السياسي والايديولوجي يأتي من الشرق).

ان (التهديد) مرهون (بالسيطرة) وهذه (بالحروب).. أليس كذلك؟ صحيح ان الحضارة الرومانية القديمة، حضارة قوية وشاملة.. لكننا لا يمكن ان نعدها حضارة مهدت للهيمنة الامريكية. انها حضارة وليدة ظروفها وجذرها التاريخي مدى انحسر نتيجة لوعي لاحق من شعوب بدأت تنشيء لنفسها حضارة تناسبها ومبادئ وقوانين ترسمها وتسير في هديها.

وعندما يعترف فؤاد عجمي بهانتنغتون كونه: (واحداً من المع دارسي الدولة وأكثرهم تأثيراً) يعترف بجدية طروحاته ويناقشها بذات الاجتهاد الجاد الذي يحمله. لذلك يرى في ما ذهب اليه هانتنغتون من (ان الدول ستحارب من أجل الروابط الولاءات الحضارية في حين ان عجمي يرى (انها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق. وتتعلم كيف تنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة) اما (اخطاء التفسخ) كما يطلق عليها: كيشوري محبوباني ـ نائب وزير الخارجية وعميد كلية الخدمة المدنية في سنغافورة وممثل بلاده في الأمم المتحدة ـ فإنه يعتقد بصحة ما ذهب اليه هانتنغتون بان: (القوة تتنقل بين الحضارات) ولكنه يقرن ذلك بتحرك (الطبقات التكتونية للتاريخ العالمي بطريقة درامية، مثلما تفعل الآن. فإن التصورات الناجمة عن هذه التغييرات تعتمد على المكان الذي يقف المرء فيه..) ويقترن رأي محبوباني بمسألة مبيعات الأسلحة الأمريكية التي لا تشي برابطة مسيحية إسلامية، مثلما لا ترتبط مبيعات الصين من الأسلحة لايران.. فكلاهما ـ كما يعتقد ـ عمل انتهازي لا يقوم على تقمص عاطفي طبيعي أو على احلاف حضارية.. ان ذلك يخفي الطابع المختلف بصورة أساسية للتحدي الذي تطرحه هذه القوى) ويضيف قائلاً: (ان الحساب البسيط يوضح

حماقة الغرب. ان الغرب يضم ٨٠٠ مليون نسمة. ويشكل الباقي نحو ٤,٧ مليار نسمة، وعلى الساحة الوطنية لن يقبل أي مجتمع غربي وضعا يشرع فيه ١٥% من السكان لا ٨٥% الباقين. ولكن هذا ما يحاول الغرب ان يفعله على النطاق العالمي).

وفي مناقشته اللاحقة، يقول: ليوبينيان ــ قيادي صيني منشق ــ أستاذ كرسي ليفي في الحكم في جامعة جورج تاون وزميل أول في معهد المشروعات الأمريكية: ((يبدو ان النزاع الايديولوجي قد انتهى في الوقت الحاضر في الأقل ولكن التنازع بين المصالح الاقتصادية والسياسية يغدو أكثر شيوعاً على نحو مطرد بين الدول الكبرى في العالم، وتزداد حدته اكثر فاكثر، ولم تصبح الحضارة ولا الثقافة هي المصدر الاساسي للنزاع في العالم الجديد)).

اذاً الافكار والحضارة في مفهومها الواسع لم تعد هي المشكلة التي من اجلها يمكن ان يكون هناك نزاع بين الدول. النزاع الاقتصادي ــ سياسي، هدفه نفعي اولاً واخيراً.

وفي حديثه الساخن عن (حتمية التحديث) يقول: جين كيركباتريك ــ استاذ كرسي ليفي في الحكم في جامعة جورج تاون وزميل اول في معهد المشروعات الامريكية:ــ ((ان تصنيف هانتنغتون للحضارات المعاصرة مثير للتساؤل، وقائمته غريبة)) وتكمن غرابة كيركباتريك في تحديد هانتنغتون لسبع حضارات حسب!

ويضيف كيركباتريك:

((اذا كانت الحضارة تحدد بعناصر موضوعية مشتركة مثل اللغة والعادات والمؤسسات وتحدد بصورة ذاتية بالتطابق والتماثل. واذا كانت الجماعة في اوسع صورها هي التي يتوحد معها الاشخاص بصورة كثيفة، فلماذا التميز بين ((الحضاراة الامريكية اللاتينية)) والحضارة (الغربية) فامريكا اللاتينية. مثلها مثل

امريكا الشمالية. قارة استوطنها الاوربيون الذين جاءوا معهم باللغات الاوربية..)).

ان هذه المناقشة تكشف عن مدى الضلالة التي يسعى هانتنغتون لنشرها بعيدا عن الحقيقة والموضوعية.

اما: وجهة كوثراني ــ استاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية ــ فانه يضع تساؤلا بعنوان: ((صدام الحضارات ام ادارة الازمات؟)) ويوضح قائلا: ((مهمة عاجلة بدأها فوكوياما (نهاية التاريخ) وهي التبشر بانتصار الليبرالية كنهاية لصراع الايديولوجيات في العالم..) اما مشروع هانتنغتون وطروحاته بشان صدام الحضارات فانه ياتي بسبب: ((عجز الحضارة الغربية عن ان تصبح عالمية مستوعبة لتنوع العالم. وذلك بسبب تطابقها مع مشروعها الرأسمالي وتحولها الى دعوات ايديولوجية لهذا المشروع واستدخالها لمنطقة في الربح والسيطرة والاستهلاك، ومن ثم بسبب اعاقة هذا المشروع لخطط التنمية التي فشلت في بلدان الاطراف فشلاً ذريعاً، وتحولت في مظاهرها العلمية الغالبة الى حضارة (صورة) و(سلعة) يتجاذبها تناوب المتعة والملل السريعين لدى الميسورين، والحقد والجوع والعنف لدى المحرومين)).

انها سياسة المنفعة الاحادية، الغنى والثراء والرفاهية المنشودة على حساب شعوب وامم اخرى لا تمت بصلة للعالم الغربي والامريكي بخاصة!

ويناقش: محجوب عمر ــ مفكر مصري مختص بالقضية الفلسطينية ــ القاهرة ــ من زاوية: (الصراع العربي ــ (الاسرائيلي) وصدام الحضارات)). يقول:

((ان الثقافة /الحضارة هي ارث اجتماعي ومحصلة للنشاط المعنوي والمادي للمجتمع تراكم عبر مئات السنين)) ويضيف: ((الحضارات قد تندثر

وتنشأ وتنضج وتشيخ.. ولا يذكر احد ان حضارة ما قد اندثرت تماما، وانما يتفق الجميع على ان الحضارات التي نتحدث عنها الان هي امتداد لحضارات سابقة..))

ويخلص محجوب عمر من هذا الفهم الى ان: ((اهتمامنا بالبعد الحضاري في الصراع العربي (الاسرائيلي)، جاء كرد فعل او كاستجابة لاهتمام الغرب بهذا البعد المهم، وليس في ذلك عيب، وان كانت له محاذيره ومخاوفه والخوف ان يجرنا مفكرو الغرب الى جدل يوقعنا في مازق رد الفعل، وفي موقف الدفاع او يستفزنا لنندفع برد فعل نحو حفرة عنصريته هو. كما ان من محاذير الانطلاق من رد الفعل استجابة للتحرك في الغرب، ان نتأخر طويلا قبل التقدم بمشروعنا الحضاري المستقبلي الناضج، وليس لبناء الذات فحسب..)).

وتحذير محجوب عمر. تحذير مشروع ومنطقي.، لان فوكوياما، قد كشف قبل هانتنغتون عن النوازع الأمريكية في (نهاية التاريخ) بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، ليليه هانتنغتون بعدئذ ليقدم غطاء جديداً لاسلوب الابتزاز والهيمنة الذي تريد امريكا فرضه على الشعوب.. انها: ((اعمال ذات دوافع اخرى وتبرير لها (اقتصادية ـ توسعية ـ سياسية دولية او غيرها) او حتى كهدف في ذاته من ان يؤدي دوره في التأثير، وربما في اشعال صراعات وصدامات قد يقال ان القصد منها هو تغليب حضارة على اخرى او ترويج قيم حضارة على حساب اخرى، بينما حقيقة الدوافع والقصد لا يذكرها احد علانية..)).

وفي رأي الاستاذ: حسن عبد الله الترابي ـ الامين العام للمؤتمر الشعبي العربي الاسلامي ـ : ((ان الحركة الاسلامية تدرك الان انها ترث بعد ذلك الغرور، الانحطاط الحضاري..)) لكن هذا الادراك وحده لا يكفي ما لم يكن قوة فاعلة ومتحركة باتجاه الكشف عن ابعاد المؤامرة الكبرى التي تقودها امريكا ضد شعوب العالم باسم ((صراع الحضارات)) بدلاً من ((حوار الحضارات)).. فلقد

تخطت امريكا لغة الحوار الهادىء، وتوجهت الى اعلان صراعها مع الحضارات الاخرى وكأنها لا شأن لها بما يجري انما هي تشاهد وقائع صراع في حلبة فهل هو صراع حضارات، ام صراع مصالح واستغلال نفوذ وهيمنة مضللة على العالم باسم الاحتواء/ العولمة، وسيادة كلية على عالم منهار تحكمه امريكا وتبسط كل ثقلها المسلح ضده..؟ وقائع ما يجري في اماكن كثيرة من بلدان العالم.. تؤكد حقيقة ان امريكا تريد ان تتسيد على العالم.. وتدير البلدان على وفق مشيئة العدوان والاغتصاب والهيمنة الكلية.، فهل يصح هذا... هل يحكم العالم على نفسه بالموت.. الذي تملك ارادته امريكا وحدها!

مواجهة القرن الحادي والعشرين

تتفاقم يوماً بعد آخر سلسلة السلبيات التي تمارسها دول التحضر ضد دول الفقر والتخلف.. بمعنى ان القوي صار على حق بينما القوى الاخرى مهما كانت ممتلكة مشروعية وجودها،.. فإنها ليست على حق ابدا! ومع ان الاخر.. من قوى التحرر والدول النامية والشعوب المقهورة، تظل ترفع اصواتها.. الا ان احداً لا يصغي الى نداآتها حتى لا يقع في اشكالية مع الدول الاقوى.. التي صارت لا تصنع القرارات ضد شعوبها حسب وانما هي وحدها تقرر مصائر الشعوب وبالوسائل كلها!

وعندما يرتفع صوت متميز ودائم الحضور في كل المحافل الفكرية والمعرفية في بلده وفي بلدان عدة، يكون مثل هذا الصوت مدار اهتمام واصغاء، كونه مصدر معرفي بارز، وكونه من بلد غربي يعرف جيدا توجهات بلاده والبلاد الحليفة او التي هي على تماس مباشر معها. هذا الصوت البالغ الاهمية هو صوت المفكر الفرنسي: روجيه غارودي الذي ادانه الغرب لانتقاله من اقصى اليسار الى اقصى اليمين، وانه مفكر غير مستقر ذهنيا عند موقف محدد.. من دون ان تجد في هذا الانتقال سبيلاً معرفياً وبحثاً عن حقيقة بدأت ملامحها تتضح امام الشعوب.

روجيه غارودي، اصدر مؤخرا كتابا جديدا بعنوان: "امريكا طليعة الانحطاط/ كيف نجابه القرن الحادي والعشرين" ترجمه الى العربية: صباح الجهيم وميشيل خوري ـ دار عطية، دمشق ١٩٩٨.

وتكمن اهمية هذا الكتاب في كشفه حقائق عدة، ووقوفه عند مواقع حساسة ومواقف ومؤشرات بالغة الدقة.. واستقرائه السياسة الامركية الراهنة والموجهة لمعالم القرن الحادي والعشرين.

ينقل غارودي في مطلع كتابه قولاً للفيلسوفة والكاتبة اليهودية الفرنسية سيمون فيل جاء فيه: "نحن نعلم جيداً ان امركة اوربا بعد الحرب خطر شديد جدا، ونحن نعلم تماماً ماذا سنخسر ان حدث ذلك.

ان امركة اوربا تحضر من دون شك لامركة الكرة الارضية.. وهكذا ستخسر الانسانية ماضيها. وهذا يعني ان غارودي مقتنع تماماً بما ذهبت اليه سيمون فيل عن المستقبل الذي يهدد اوربا وامكانية امركتها.. وهو ما دأبت على العمل بموجبه امريكا بشان دعوتها الى "العولمة" ببعدها الاحادي المتفرد.

ثم يبدأ غارودي الفصل الاول من كتابه بطرح هذا السؤال:

"ما هي الرؤية" التركيبية للعالم الذي ينكشف في نهاية القرن العشرين، عن هذه الاحداث المتباينة ظاهرا؟ ما هي القضايا الرئيسة التي تتراءى لمستقبل قريب؟ هل سنشهد حرباً عالمية ثالثة من طراز جديداً؟".

ان سؤالاً واحداً يطرحه غارودي.. يمكن ان يضفي الى مجموعة اسئلة وذلك بسبب التوجه اللامحدود واللامنطقي واللاانساني الذي باتت ممارسة امريكا له جداً واضحة وجد "مفهومة النتائج المتوخاة!

وينقل غارودي عن هانتنغتون قوله: ان حرباً ثالثة ان نشبت ستكون من طراز جديد: فلن يكون منشؤها منافسات اوروبية داخلية، انما مجابهة حضارات

بين "المركز / الغرب" و "المحيط / البلدان المستعمرة سابقاً انها "الحروب المحضرة" كما يسميها هانتنغتون.. وهو ما ذهب اليه: اين بيرفت في صحيفة الفيغارو "ت٢/ ١٩٩٠ بشأن ضرب العراق مشيراً الى ان هناك "مجموعتا ضغط قويتان تدفعان الولايات المتحدة الى اثارة النزاع: اللوبي اليهودي، ولوبي رجال الاعمال" وهي ذاتها "النقطة الحساسة" التي جددها المؤسس الروحي الصهيوني تيودور هرتزل بشأن: "استحكام محصن امامي للحضارة الغربية ضد بربرية الشرق".

والأهم من ذلك ما ذهبت اليه مجلة "كيفونيم" مجلة المنظمة الصهيونية العالمية في شباط ١٩٨٢ داعية الى "تحطيم جميع الدول المجاورة من النيل الى الفرات" والعمل على "سرقة كل شيء من تلك البلاد، حتى مستقبلها". وصارت الدعوة الى "مكافحة الارهاب" و "التدخل الانساني ذريعتان جديدتان للاستعمار الحديث المتكامل".

من هنا نتبين الاسباب التي تكمن وراء الاستراتيجية الامريكية العالمية في ضمان امن "اسرائيل" وتنمية تسلحها الذري.. الذي كشف عنه الفيزيائي مرخلدي عنونو عندما كتب في صحيفة "لندن صندي تايمس" في "٥ ت١/١٩٨٦" مشيراً الى اهمية الترسانة الذرية "الاسرائيلية" القادرة على مسح جميع المدن حتى سد اسوان في مصر..

الى جانب ذلك تسعى امريكا الى تحقيق هدفها في "وحدانية السوق" وذلك عن طريق توسيع سوق المخدرات وسوق التسليح. ويشير غارودي الى ان: رقم مبيع المخدرات في الولايات المتحدة حالياً، هو من ذات مرتبة رقم مبيعات السيارات او الحديد او الفولاذ، ويتزايد الاستهلاك كلما فقدت الحياة معناها بتأثير البطالة او الابعاد او ان الهدف لزيادة الاستهلاك.. لانجاح تجارة كبرى. ويندد

غارودي بالثقافة ويعدها "ثقافة منحطة" كونها "لا تلعب أي دور منظم فـــي حيـــاة المجتمع".

لكنه ينتقل الى: توكفيل / الملاحظ الاول لامريكا والأكثر بعد نظـــر ــ كمـــا يقول غارودي ــ منذ عام ١٨٤٠ في كتابه: "الديمقراطية في امريكا" جوهر الالية التي تعتمدها امريكا وهي بعد في طور النشوء، يقول توكفيل: لا اعـــرف شـــعبا يحتل فيه حب المال اكبر في قلوب الرجال كهذا الشعب ــ يقصد الشعب الامريكـــي ــ انه تراكم مغامرين ومضاربين وهذه هي أسس "الانحطـــاط الثقـــافي" ــ كمـــا يحددها غارودي ــ.

ويكشف المؤلف عن تاريخ الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر كونـــه تاريخ ابادة الهنود الحمر، فمنذ سنة ١٨٠٠ الى ١٨٣٥ ابعدت جميـــع القبـــائل الهندية الى ما وراء نهر المسيسبي في شروط نقل واســـتقرار اســـتذكرت عنـــد الابعادات الهتلرية، وبعد عام ١٨٤٠ واقامة شبكة الخطوط الحديد، جرد الــــهنود الحمر من اخر اراضيهم، واحتجزوا في مناطق محـــددة لا يتجاوزونـــها وابيـــدت قطعان الابقار الوحشية التي كانوا يستمدون غذاءهم والبستهم ومساكنهم.. منـــها، ولم تنته مقاومة الهنود المسلحة الا بمذبحة كني في عام ١٨٩٠، كذلك نجـــد ان تاريخ الولايات المتحدة هواية "تاريخ استغلال العبيد السود، وخاصة في زراعـــة القطن، وهذه هي السمات الرئيسة لسياستها الداخلية، اما في السياسة الخارجيـــة فان غارودي يحددها بـــ ابعاد اسبانيا والبرتغال عن امريكا حتـــى تتمكـــن مـــن التغلغل الاقتصادي وتحكمها سياسيا "وتتحكم بالقادة، طاردة انكلترا مـــن اجـــل ان تحل محلها في استثمار الثروات البترولية.. وصارت "اسطورة الولايات المتحـــدة "محررة" اوروبا خداع مضاعف.. ولا ادل على ذلك من القاء القنبلة الذرية علـــى مدينة هيروشيما في ٦ اب ١٩٤٥ لتمسحها من الخريطة وتقتل ٧٥ الف نســـمة،

تبعتها بعد ثلاثة ايام بالقاء قنبلة مماثلة على مدينة ناغـــازاكي لتلقــى المصــير ذاته.. بينما كان امبراطور اليابان يعرض استسلام بلاده.."!

وفي بعد اخر يؤكد غارودي قول نعوم جومسكي: "من الاصح القول انــه لا يوجد واحد من الف قادر على التفكير في راس مخالف، ما دام نظام الرقابة علــى الفكر يمارس سلطته بشكل فعال".. حتى اصبح "فجر الرأسمالية" ـ كمــا يقــول هوبز ـ قائم على: "حرب الجميع ضد الجميع" انطلاقا من ان السوق ينـــم عــن منطق حربي لا عن منافسات وتطلعات.. بل مصالح تتقاطع تماما مــع ســواها.. حتى بدا: تدمير العالم من اجل تأمين حاجات الاقتصاد الامريكي فــي حيــن كــان العالم الثالث لوحده يسدد لامريكا عام ١٩٨٨ فوائد واقســاط ديــون بمبلــغ ٥٠٠ مليار دولار زيادة عمّا تلقاه من توظيفــات ماليــة! ومثــل هــذا يكشــف عــن الاستمرارية المأساوية منذ ان كتب كريستوف كولومبس الى ملك اسبانيا قــائلا: "الذهب اثمن من جميع الممتلكات، من يمتلكه يحصل على جميع ما يحتاجــه فــي العالم. بما فيها وسائل انقاذ الارواح من المطر "ويرى رونالد ريغان: ان ازدهـــار الولايات المتحدة وقوتها هما دليل على انها امة مباركة من الله وقد تجرأ مطــران اسباني وشجب هذا التصريح وعده تجديفا": لان غنى الولايات المتحدة وقدرتـــها ليسا واردين من مباركة الله، وانما من استثمار العالم، ولا سيما العـــالم الثـــالث بتبادلات غير متساوية، وفرض استيراد المنتجـــات الامريكيـــة، وغــزو رؤوس اموالها للبلدان ذات اليد العاملة القليلة الاجور وارتفاع معدلات قروضها. هذه هي حصيلة خمسة قرون من الاستعمار ـ كما يقول غارودي ـ ومــن ثــم: "تــأمين هيمنة الولايات المتحدة عالميا".

من هنا كانت "وحدانية السوق" تتطلب النظر الى كل من يعارضها: شــيطانا ايا كانت مزاياه او اخطاؤه او جرائمه، وكل من لا يؤمن بهم..او يحاول التخلــص

من هيمنتهم يعد هتلر جديدا سواء أكان: اصوليا ام عراقيا ام صربيا ام ســـاندينيا ام معارضاً بيرويا، وكما يسخر برتولدبريشت: لقد اقترع الشعب ضـد الحكومــة، فالحال الابسط.. هو حل الشعب.

ان امريكا تضع "خصومها" في خندق واحد.. ولا يهمها ان تلغي شــعوباً.. من اجل تحقيق مصالحها..! وترى ان "الحق.. هــو الحــق الاكــثر قــوة" وان الديمقراطية التي تدعو اليها امريكا هي:

"ديمقراطية السادة، البيض لا السود، الاغنياء لا الفقــراء". ومثــل هــذه السلطة تنظر الى السياسي.. نبيا مادام لا يفكر بتغير السلطة وبالفنان عندما يعني بتأكيد خصوصيته الفنية.. يكون مبدعاً مادام لا يجعل من عمله انعكاساً للواقع..".

ان الايمان على وفق هذه المفاهيم هو "الفعل الذي به يفرغ الانسان ذاتــه" لا ان يؤكدها.. ويشكل حضورها.. كما ان: التاريخ الرسمي الذي يعلموننا اياه في المدرسة او في الموسوعة، كتبه دائما المنتصرين، وارادوا دائماً ان يظــهروا ان سيطرتهم كانت نتيجة لتفوقهم ثقافياً، لا أسلحتهم فقط. بحيث انهم لم يرووا لنــــا بين جميع الممكنات البشرية الا الممكنات التي انتصرت وان التاريخ هو تــاريخ السيطرة. وهكذا يستنتج غارودي حقيقة ان: طمـــوح الولايــات المتحــدة الــى السيطرة العالمية اصبح من الوضوح بخراب الحياة التي يطمحون الى تصديرهــا الى العالم بأسره وفرضها عليه بحيث يمنعها من الشعور بأنها أصبحت في طــور التبعية ان لم تكن مستعمرة حتى اذا علمنا ان ٨٠% مــن المــوارد الطبيعيــة لا يستهلكها سوى ٢٠% من السكان.. ونتيجة لهذا الانشطار يموت كــل يــوم ٤٠ الف كائن بشري من سوء التغذية او الجوع.. هكذا ينمو الغرب!

هذا هو العالم كما تراه امريكا.. وكما تريده.. عالمــاً مســحوقاً منــهاراً، مدجناً، يبيع خيراته وموارده، الى جانب امنه واستقلاله وارادة ابنائه.

عالم لا شخصية له، ولا وجود لمثله وقيمه.. انما هو وحـــدة صغـــيرة او جزئية في الكونية "العولمة" التي تريد امريكا ان تهيمن عليها لتكون سيدة العـــالم بلا منازع. فيما يكون العالم كله في موقع متدن لا يخرج عن كونه مجموعة مـــن العبيد مهمشة انسانيا. مقتولة في كرامتها وعزة نفسها.ان كتاب غارودي.. هـــذا كتاب مهم، وتكمن اهميته في الحقائق والارقام والادلـــة التـي يوردهـــا بعمـــق وتحليل.. لاسيما وانه على تماس مباشر بالاساس او المصدر الذي يناقشه بعلمية ودقة فكرية رفيعة المستوى..

وفي كتابه: "حفارو القبور. نداء جديد الى الاحياء"* تناول فيـــه غـــارودي العديد من القضايا الراهنة والملحة، وكشف بدقة عن قضايـــا عالميـــة وعربيـــة ساخنة.. مشيراً الى ان طموحه: "اتباع طريقة عيـــش اخـــرى مطابقـــاً الابعـــاد الانسانية كلها، ابعاد الفن والحب والسياسة والايمان".

وفي اشارة الى العدوان على العراق قال: "ليس تدمير العراق ســنة ١٩٩١ سوى حرب من نوع جديد لا ترتكز على استعمار دول اوروبية متنافسة كبريطانيا وفرنسا بل على استعمار جماعي متعدد الجنسيات تحت سيطرة الاقوى: الولايـــات المتحدة". وعندما يأتي هذا الكلام على لسان شخصية متسعة الافق مثل غارودي، فإنما يؤكد الوجه الحقيقي للتدمير وابعاده.. حيث تنمو دول قليلة علـــى حســـاب دول كثيرة لتعيش حالة تخلف اقتصادي، وتقدم ثرواتها الطبيعية الى تلك الـــدول المهيمنة على امنها ووجودها وثرواتها.

وكشف غارودي عن قيام الولايات المتحدة بســـجن العـــالم (الاســـرائيلي) فاينانو، لانه فضح اسراراً تتعلق بتسليح (اسرائيل) واحتفاظها بمئة رأس نـــووي،

---

* حفارو القبور نداء جديد الى الاحياء / غارودي / تعريب: رائيل الهاشم، منشورات عويـدات، بيروت / باريس ط١٩٩٣/١.

في حين يتم تهديد العراق اذا ما اشتبه بتحضيره برنامجاً نووياً.. الامر الذي جعل "قانون الاقوى" هو القانون السائد انطلاقاً من ان (اسرائيل)، على وفق ما جاء به مؤسسها الروحي: تيودور هيرتزل:

"سنشكل حصنا لاوروبا في وجه آسيا، سنكون حارس الحضارة في وجه الهمجية".. ومن هنا يتعزز التعاون ويصار الى وجود (اسرائيل) في موقع القوة، ودلل غارودي على السبل التي تتبعها الولايات المتحدة للسيطرة على الشعوب.. إذ اصبحت مهيمنة على نفط المكسيك بعد ازاحة الرئيس كاردونا. وعلى نفط فنزويلا بمساندة حكومتها.

وينتقل غارودي للحديث عن تفكك الاتحاد السوفياتي وطبيعة الماركسية قائلاً: "ليس ماركس من اخترع (صراع الطبقات) فقد كتب بيار لورد سنة ١٨٨٣ ان الصراع الحالي الذي يتواجه فيه البروليتاريون والبورجوازيون هو صراع من لا يملكون ادوات انتاج بوجه من يملكونها".. وان "ماركس ليس اول من فضح اكاذيب الحرية، فقد كتب القس لاموني سنة ١٩٣٨ (بين القوي والضعيف، الحرية تقمع والقانون يحرر)".

الا ان هذه المرجعية التاريخية التي يأتي بها غارودي لا تقلل من اهمية الدعوات التي جاء بها ماركس.. بل ان اصوات عدة تتواصل.. من شأنها ان تتقدم.. لاسيما وان غارودي يدرك جيداً: "ان العالم مهدد بدخول زمن الانحطاط بسبب سيادة الولايات المتحدة العالمية وتوحيد السوق". وفي زمن كانت فيه قنبلة هيروشيما قد قضت على (٧٠٠) شخص بظرف لحظة، وعدت هذا العمل تقدماً تقنياً مهماً بالنسبة لجينكيز خان الذي لزمه سبعة ايام لتشييد هرم من (١٠,٠٠٠) جمجمة عندما غزا اصفهان.. في حين اصبح في مخزون الطاقة النووية ما يساوي مليون قنبلة كقنبلة هيروشيما، أي القدرة التقنية على القضاء

على (٧٠) مليار انسان: اثنتا عشر او خمس عشـــر مـــرة اكـثر مـــن البشـــر الموجودين على الارض. انها تملك اذا القدرة على محو كل اثر للحيـــاة". وفـــي موضوعات اخرى يتناول غارودي جوانب ثقافية واجتماعية مختلفة، الامر الـــذي جعل من هذا الكتاب، كتاباً شمولياً خالياً من التخصص.. يقول غارودي في حديثه عن الفن:

"(فهم) التحفة الفنية ليس مسألة فكر فحسب، فهذا العمل يتطلب مشـــاركة الانسان بكليته وأولاً مشاركة جسده.. فعبد مكبل رسمه مايكل انجلو يشع بقوتـــه وجهده في المكان المحيط به، لا اقرأ هذا الاسم كما اقرأ كتاباً في علم التشـــريح، فجسدي مأخوذ في حقل الطاقة هذا فالشعر من دون تأمل فكري بارتجاج وتوتـــر في صدري وذراعي وفخذي، وتستولي خطوط القوة على اعصابي وكأنني مرغـــم على تحمل مسؤولية فك هذه الروابط" ومثل هذا التوضيح الذي يورده غـــارودي، من شأنه إزالة الغشاوة عن كثير من التساؤلات التي تستنطق الفنـــون مـــن دون معرفة لغة الفن وخطابه..

وفي دعوة له للانتقال (من اللغة الى الحوار) يتساءل غارودي: "ألم تـــؤد استمرارية السيطرة الى استمرارية منحرفة؟

في الماضي: كنيسة، اله، ملك، اليوم: ثقافة، تقنية، نظـــام عـــالمي. فـــلا خلاص خارج الكنيسة، ولا حضارة خارج الغرب. ودائماً خارج حقيقتي، الخطـــأ، ودائماً شعب مختار: عبري، مسيحي، غربي"!

وفي هذا المنظور ليس من حوار ممكن، ليس من حوار بين الديانـــات، لان الديانة هي التعبير عن الايمان بلغة ثقافة من الثقافات". وعبر هـــذه التســـاؤلات، يبحث غارودي عن حلول، عن حوار حقيقي... لا يرى الخطأ خارج ما نعرفـــه... فكل من لا يتقن فن حوار.. حفار قبور.. ذلك ان حفاري القبور على مر الازمنـــة

لم يعرفوا الحوار، الامر الذي جعلهم يقاتلون باسلحة الخوف، فـــي حيـن يشــكل الحوار، السلاح الاقوى.. من هنا يصبح كتاب غارودي.. دعوة ملحة للحور مـــع الآخر.. بعيداً عن تخطي الآخر والاعتداد بالذات كونها تملك المنطـــق الصحيــح حسب. كتاب غارودي.. كتاب يجيب ويسأل في شؤون نحتاجها راهناً.

كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟

ما الذي نعنيه بـ (الحضارة) وماذا يقصد بـ (المسألة الحضارية)؟

زكي الميلاد يوضح في كتابه الموسوم: المسألة الحضارية / كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟"*

يقول:

"المسألة الحضارية نقصد بها الرؤية لمشكلاتنا الحضارية وعلاقتنا بالعالم على ضوء هذه المشكلات والتفكير في سبل النهوض والبناء الحضاري الجديد" ويضيف قائلاً: "كما ان المسألة الحضارية تعني ان نفكر على مستوى الحضارة، وان نعيد صياغة اسئلة الحضارة بعد هذه التغيرات والتبدلات التي تعصف بالعالم..." بينما نتبين مصطلح (حضارة Civilization): "يعني عملية التحضر أو التقدم، التحول الانساني من مستوى الى مستوى آخر. يقال الحضارة البدائية، حضارة الآلة...حضارة شعب أو منطقة.. كما يعني التهذيب والتأديب. ابن خلدون أول من طرح موضوع الحضارة والتحضر في مقدمته بين البداوة والعمران...".

* المسألة الحضارية / كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟ تأليف: زكي الميلاد، منشورات: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء ــ ط١/١٩٩١، عدد الصفحات: ١٤٤ ص. ك.

ـ وعلى وفق ما أورده: سامي خشبة في (مصطلحات فكرية) / أقرب المصادر الينا ـ لكن الاستاذ زكي الميلاد يمتحن الأسئلة بأجوبتها.. لا بالاسئلة المثيرة للجدل والانفتاح على مزيد من الرؤى والأفكار.

ان مجمل مناقشته قائم على ما يقوله فوكوياما في (نهاية للتاريخ) وغارودي في (حوار الحضارات) وهنتنغون في (صراع الحضارات).. وهي جميعا ليست الافكار المطروحة كلها في المسألة الحضارية التي يراد من خلالها انتقال العرب ـ تحديدا ـ من واقعهم ـ دون تحديده ـ الى واقع المتغيرات ـ غير المحددة كذلك ـ!

في حين تتطلب المسألة الحضارية في أي مجتمع، ادراك دوره في بناء الحياة، في انتاجه أسس الحياة، لا استهلاك ما هو جاهز ومعروف ومتداول، الحضارة.. أي حضارة، معرفة بالشيء، ادراكه، ومحاولة الإفادة منه على نحو سليم وتطوير عملية الافادة هذه بما هو أكثر جدوى وأدق ممارسة.. لاسيما واننا نشهد أمامنا انتقالات في مجتمعات كانت تعد متخلفة، فإذا هي تسابق الزمن وتقف في موقع المنافسة مع أكثر الدول تماساً مع التقنيات ويكتسب تجربة. يقول كاستورياديس ـ نقلاً عن زكي الميلاد:

"ان ماركس ينتمي في العمق الى الفضاء المعرفي للرأسمالية ويسبح في حوضها ويتنفس هواءها، فالفكرة الاساسية لديه كانت هي تأمين الوفرة الاقتصادية، أو تنمية قوى الانتاج، وهذه هي فكرة الرأسمالية انه يختلف عن الفكرة الرأسمالية في مسألة توزيع الثروة فحسب" فإذا عرفنا انه "كلما أثرى العالم الرأسمالي، كلما غرقت بلدان الجنوب بالفقر، ان سكان البلدان الرأسمالية المصنعة لا يتجاوز سبع سكان البشرية (سبعمئة مليون من أصل خمسة بلايين) ومع ذلك فهي تحتكر معظم ثروات الأرض "أمام هذا الواقع الرأسمالي المهيمن

على خيرات الشعوب والأمم، الا ينشد كل فرد متحضر كل سبيل للخروج بقناعات جديدة، باجتهادات متميزة؟

نقول: الرأسمالية تحفر قبرها بأيديها.. وكلما كررنا القول نجد الرأسمالية تمتد في اجساد البشرية، حتى تصاب بالتخمة، فيما شعوب بكاملها تموت من جوع ومرض وجهل!

زكي الميلاد.. يدعو الى "ثقافة كبديل عن السياسة في معالجة الازمات العالمية" وكأن السياسة لا علاقة لها بالثقافة.. وكأن الثقافة تمتلك عصا سحرية تعالج بإمساكها أزمات العالم؟

يضيف.. داعياً الى "ثقافة تتناول الانسان بكليته، جسداً وروحاً وعقلاً ووجداناً.. ليشكل هذا المفهوم عاملاً قوياً في العلاقات الدولية يتمثل في اعلان الحق بالثقافة.." إلا انه لا يملك الشجاعة للبوح كون الثقافة لم تكن في أي وقت بعيدة عن القرار السياسي في كل زمان وكل مكان...

صحيح ان الثقافة يمكن ان تستوعب السياسة، ولكن ليس بمقدورها ان تحكم السياسة وتصل بها الى بر السلام. السياسة دائماً ترسم برنامجها على وفق معايير معينة تدركها الثقافة جيداً لكنها تختار الصمت في احيان كثيرة.

وعندما يقف زكي الميلاد أمام (العولمة) يجد فيها: "محاولة لتشكيل رؤية جديدة ومختلفة نحو العالم، والنظر اليه ككل واحد، وجعله اطاراً ممكناً للتفكير، مع وجود آليات وتقنيات لها قدرة التعامل مع حقائقه ومعطياته وعناصره".

لكنه لا يناقش مسألة التوجه الاستعماري كهدف أساسي لسياسة العولمة الأمريكية.. بمعنى احتواء العالم في سياسة احادية رأسمالية.. وانما هي: "نزعة التمركز حول الذات.. وعلاقة الغرب بتاريخ الأمم والحضارات كان محبطاً ومروعاً للغاية، حين أظهر سلوكاً استعمارياً متوحشاً، وحول ثقافته الى امبريالية

وتقدمه الى توسيع وسيطرة خارج محيطه الغربي". كما هو الحال الآن مع التجربة اليابانية.. مثلاً.

أما الواقع العربي.. فما زال في حالة تجزئة وانشغالات جانبية، تحول دون اللحاق بركب الحضارة المتسارع..

زكي الميلاد يرى ان: "العقل الغربي عقل نقاد خصب للتحولات، وهذا ما يفسر حركة التحولات السريعة في تلك المجتمعات".

العقل.. هو إذن الذي يعزز مكانة التحضر، العقل الجدلي الذي يسمو باتجاه ما هو أهم وأفضل وأدق والأكثر صدقا في منطوقه وتطبيقه.

نعم.. "المعيار هو العقل.. فالمجتمعات حتى تتقبل المتغيرات بحاجة الى ثقافة متجددة توفر الاستعداد النفسي، بالاضافة الى عامل الفاعلية الاجتماعية التي تجعل المجتمع في حركة مستدامة تتولد منها هذه التحولات.. ذلك ان التحولات لا تنشأ في مجتمع ساكن وراكد".

من يوفر هذه الثقافة، وهذا الاستعداد النفسي؟

من ينشد الحضارة، اذا كانت الحضارة بالنسبة اليه مجرد ثوابت لا يمكن القبول بأجراء أي تغيير عليها؟

زكي الميلاد.. كان ينبغي عليه اثارة الاسئلة بغية بعث الحوافز والهمم والسعي للخروج من دوائر العتمة والسكوت والسكون والخشية من المستقبل والخوف من التحضر وتقنياته الحديثة.

ولكنه بدلاً من اثارة أسئلة العقل، يثير أجوبة القهر والكسل، يقول: "الحضارة، وأية حضارة لا تسقط إلا بعامل حضاري مركب..".

فهل تتقاطع الحضارة مع الباعث الحضاري الجديد، وهل ان ميلاد وعي حضاري جديد يلغي بالضرورة حضارة ما قبلها.. لصالح ما بعدها..

ان كل حضارة امتداد طبيعي لما قبل.. ومن ثم لما بعد..

وفي اشارة الى سقوط الاتحاد السوفييتي كونه كان سقوطاً سياسياً وفكرياً وثقافياً.. كان فيه الكثير من المغالاة.. ذلك ان النظام السياسي المغلق هو الذي سقط، فيما الافكار المرنة، المتحركة، المكتسبة من فلسفات سابقة حق طبيعي لكل فرد.. ولكل مجتمع.. الدوغمائية هي التي سقطت / العقائدية الجامدة التي فهمت بها الماركسية هي التي أدت الى نتائج الانهيار.

الافكار.. كل الافكار.. تتطور، تتغير، تتوسع.. لكنها لا تلغى، الالغاء، الحذف الكلي.. قتل عمد للعقل الانساني وهو يفكر، وهو يعمل، وهو يزداد خبرة، الغرب يمارس ذات السياسة بقناع جديد اسمه (العولمة).

ان الغرب كما يقول زكي الميلاد: "ليس فقط حاول ان ينفرد بالحضارة، وإنما قاوم انبعاث الحضارات الأخرى، وقام بأكبر عملية تدمير للحضارات في العالم".

اذن سياسة الغرب عبر (العولمة) لا يمكن ان تكون مسألة حضارية، وإنما هي مسألة هيمنة واستغلال وعبودية ونهب لثروات الشعوب.

ان (العولمة) كما يقول د. محمد عابد الجابري "تفي للآخر واحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الايديولوجي، اما (العالمية) فتفتح على العالم، على الثقافات الآخرى، واحتفاظ بالخلاف الايديولوجي".

لكن زكي الميلاد يأتي بمفهوم "التعارف هو أحد أرقى المفاهيم وأكثرها قيمة وفاعلية ومن أشد ما تحتاج اليه الأمم والحضارات..".

فهل يمكن، وهل هناك بلد لم يعرف بلداً آخر في ظل عالم قائم على الاتصالات السريعة والمصالح المشتركة، ان دعوة زكي الميلاد جاءت متأخرة أكثر من ألف عام..؟!

واذا كان قد عرف جيداً ـ كما يقول ـ ان: "ثـورة المعلومـات.. تنتصـر لعامل الزمان على حساب عامل المكان، وان تدفع بتقدم العلم علـى الجغرافيـا"؛ فإن مسألة ربط (الحضارة) بمفهوم (التعارف) تبدو هازلـة ومتـأخرة ومجانبـة لمنطق العصر.. وللمسألة الحضارية التي يناقشها في منظور مستقبل يتوجه اليـه عالمنا المتغير..

كتاب الاستاذ زكي الميلاد: "المسألة الحضارية" يناقش جوانـب حضاريـة مهمة وساخنة بمعرفة سلفية، وبادوات الماضي وأسلحة كاسـدة.. ممـا يجعـل المسألة.. اية مسألة يناقشها عصية على المنطق.. غريبة على عقل نيّر يشـهد متغيرات جديدة كل يوم..

المعلوماتية بعد الانترنيت:
طريق المستقبل(*)

المعلومة.. فعل مضاف إلى العقل، من شأنها ان تشكل إضافة جديدة إلى ما ألفناه وعرفناه.. حتى إذا حلت المعلومة، حلت معها إضافة لم تكن مسبوقة من قبل. هذه المعلومة أو المعلوماتية.. صارت سمة العصر الراهن واهم المزايا التي تحكم هويته وتعبر عنه..

اننا أمام معلومات تتشكل في كل لحظة، وصار بمقدور أجهزة (الانترنيت) وسواها من الأجهزة الحديثة، إنجاز ما لم يكن بالإمكان إنجازه في سنوات.. ومثلما شكلت مرحلة الزراعة التي حققت استقرار الإنسان عند أرضه، ثم انتقاله إلى مرحلة الصناعة والتفاعل مع المكننة، صار للمعلوماتية حضورها في تأسيس سمة هذا العصر المتغير سريعاً وسط معلومات تسعى لتشكيله من جديد..

ويأتي كتاب: "المعلوماتية بعد الانترنيت / طريق المستقبل" لبيل جيتس ــ مؤسس شركة ميكروسوفت عام ١٩٧٥ والخبير في شؤون البرمجيات.. ليشير إلى مديات المستقبل ولما بعد أجهزة الانترنيت التي لم يمض على وجودها اكثر من عشر سنوات.. حتى ان بعض الدول لم تعرفها بعد..

(*) المعلوماتية بعد الانترنيت / طريق المستقبل، تأليف: بيل جيتس، ترجمة عبد السلام رضوان ــ سلسلة: عالم المعرفة /١٩٨٨م.

ان ما يهدف اليه بيل جيتس قائم على النظر إلى المستقبل من خلال تقنية المعلومات التي تستهدف تحقيق متغيرات سريعة على صعيد بناء المستقبل المرهون بالمدى الشاسع الذي سوف تقطعه الالية الجديدة ومتغيراتها اللاحقة. يقول جيتس: "بمرور الوقت ستجد الالات مكاناً في حياتنا، لا لأنها تقدم وسيلة مريحة ومفيدة وموفرة للجهد فقط، بل لانها تدفعنا إلى افاق إبداعية جديدة، اننا نستشعر المحبة والود معها، وتحتل مكاناً مأموناً إلى جوار ادواتنا الأخرى، ثم ينشا جيل جديد بصحبتها، مغيراً اياها ومضيفاً طابعاً انسانياً عليها.. باختصار يلعب معها..".

إذاً هي وجود قائم.. لابد منه، لابد من معايشته والتفاعل معه.. الالة إمكانية موجودة ومتجددة وفعالة.. وليس من السهل تجاهلها أو التخلي عنها.. انها فاعلية الحاضر وارادة المستقبل.. وبعكس ذلك نظل في موقع ساكن، وفي عالم منسي، وفي غربة بينه وبين عافية المستقبل اشواط ليس من السهل على المرء اهمالها وعدم الالتفات إلى معطياتها المبدعة.. انها كما أشار الطيار والروائي الفرنسي انطوان دوسان اكزوبيري: "شيئاً فشيئاً ستصبح الالة جزءاً من الإنسانية".. جاء ذلك في سياق حديثه عن "الطريقة التي يميل بها الناس الى الاستجابة للتكنولوجيا الجديدة..".

ومع ان جيتس لا ينكر دور الإنسان في اثارة الانتباه، الا انه يعد ذلك من الحالات الاستثنائية، يقول:

"كانت فرحة شيرهام ملك الهند كبيرة باختراع أحد وزرائه لعبة الشطرنج، حتى انه سأل الرجل ان يحدد أي مكافأة يشاء، فقال الوزير: أسألك.. ان تعطيني حبة قمح عن المربع الأول في رقعة الشطرنج، وحبتين عن المربع الثاني، واربع حبات عن المربع الثالث، وهكذا.. فيتضاعف عدد حبات القمح في كل مرة حتى

يكتمل حساب الحبات عن مربعات اللوحة الأربعة والستين، وتأثر الملك كثيراً بتواضع الطلب وأمر بإحضار جوال من القمح".

ان الطلب، لا يقل أهمية عن الاختراع.. فكلاهما حكما بمنطق العقل.. فإذا تبين الملك متعة الشطرنج وعقلانيته، فان الطلب (المتواضع) فوت عليه فرصة ان يفكر على نحونا به.. ذلك ان مخترع الشطرنج كان من الذكاء بحيث بدد الثروات وشغل أوقات الناس بعد الحبوب.. فكان الضياع.

هذا العقل المدبر.. هو ما نحتاجه ونحن نستخدم المعدات المعلوماتية الحديثة التي يمكن ان تلحق الأضرار، مثلما تلحق كماً هائلاً من الفوائد..

ويتقدم جيتس بدروس جديدة منها: "النجاح معلم سيىء للغاية، فهو يزين للأذكياء ان يتصوروا انه ليس بالإمكان ان يخسروا، وهذا أيضاً دليل غير موثوق إلى المستقبل، فما يبدو انه اليوم المشروع التجاري الأمثل أو آخر أشكال التقدم التكنولوجي، ربما اصبح في غضون فترة قصيرة عتيق الطراز..".

هذا يعني اننا لا نتعلم من النجاح الذي قد يرضي بعض طموحاتنا، بقدر ما نتعلم من الأخطاء والعقبات التي تواجهنا.. مما يدفعنا إلى تجاوز هذه الأخطاء، والبدء بنشاط حي مثابر فعال.. من شأنه تعزيز الحاضر والامتداد إلى رؤى المستقبل. من هنا يمكن ان نتخذ الأجهزة المعلوماتية سبيلاً لتحقيق السعادة لنا في التعليم والترفيه وبناء بيوتنا على وفق ما نريد بحيث نعدها "ماكينة للعيش فيها" على حد تعبير لوكور بيزيه ـ أحد كبار المعماريين في عصرنا ـ كذلك: "لن يكون الهدف من التكنولوجيا الأكثر تقدماً التي ستتوافر في المنزل مجرد استباق مشاهدة تطبيقات الترفيه، وانما ستساعد أيضاً على تلبية الحاجات المنزلية الاعتيادية: التدفئة والاضاءة والراحة والملاءمة والمتعة والامن.. فهذه التكنولوجيا سوف تحل محل الأشكال التكنولوجية الأقدم التي نعدّها شيئاً مسلماً

به في الوقت الراهن، وليس طويلا ذلك الوقت الذي مر منذ تلك الفترة التي كان من الممكن ان يندهش الناس فيها".

نحن اذن أمام متغيرات سريعة "ستترك اثرا كبيرا في مناحي حياتنا كلها في السنوات القادمة.." ومهمتنا "توظيف الأشخاص الأذكياء والعمل معهم والاستمتاع بالتعلم منهم".

ان الفرص التي ستتيحها أجهزة المستقبل، من شأنها ان تحقق انتقالات هائلة على الصعد كافة ولاسيما العلمية والطبية والفكرية والتربوية وستوفر للإنسان الوقت الكافي للانصراف إلى شؤون الثقافة والإبداع والراحة الجسدية والعقلية والى مزيد من المتع...

وما لم يكن لينجز في أشهر أو سنوات، سيصبح بالإمكان إنجازه في لحظات.. حتى ان بعضهم صار يفيد بان الأجهزة المعلوماتية.. من الممكن ان تتفوق في ذكائها على الإنسان نفسه.. في حين ندرك جميعاً ان الإنسان هو الذي ابتكرها وصار يسهم في تطويرها وتجديد كل شيء فيها. ان طريق المستقبل، طريق محفوف بالنباهة، بالاستثمار الأمثل للوقت، بالاستعداد الأكثر للعمل المنتج، بالتوجه الأكثر عمقاً، الأكثر دلالة وأهمية على بناء الإنسان عقلاً وفعلاً ومسؤولية.

هذا الطريق يرسمه بيل جيتس في هذا الكتاب الذي يقدم فيه تجاربه الحية مع أجهزة المعلومات، وتطويرها بشكل مستمر واستثمارها لخدمة الإنسانية.. فكيف بنا ونحن نواجه معدات مختلفة وتقنيات متعددة باتت تشغل كل ميدان من ميادين الحياة والعمل والتفكير..؟

اننا على أبواب مستقبل جديد.. يتطلب منا المزيد من الانشغال بالذاكرة المبدعة، ذاكرة ان نتقدم باطراد، وان لا نلتفت إلى الماضي، بل نتجه إلى أفق المستقبل.

رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي

تبدأ ثقافة حية.. مسيرتها، من خلال فهمها العميق للعالم المحيط بها، واستثمار هذا الفهم لاغناء الانسان / المتلقي بصيغ جديدة، من شأنها ان تحقق نقلة نوعية في مسيرة حياته.

وباتت المعلومات، تشكل سمة هذا العصر الذي نعيشه، بعد ان عشنا عصر الزراعة والصناعة.. وصار بميسورنا معرفة دقائق الأحداث المحيطة بنا من خلال احاطتنا بمعرفة تفاصيل الحياة وتجاربها.. مما يكسبنا خبرات توفر لنا الجهد والوقت.. وتجعلنا نحيا في عالم أكثر رخاء ورفاهية.. وهذا هو الهدف الذي تنشده البشرية على مر الأزمنة ومتغيرات الأمكنة.

ويحدد كتاب ((الثقافة العربية وعصر المعلومات)) للدكتور نبيل علي رؤيته لمستقبل الخطاب الثقافي العربي بعد دراسة مفصلة ومعمقة تتعلق بأبعاد العمل الثقافي وتوجهاته.

(*) الثقافة العربية وعصر المعلومات / رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، تأليف: د. نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٦ يناير ٢٠٠١، عدد الصفحات ٥٨٢ صفحة من الحجم المتوسط.

وإذا ما عرفنا ان مؤلف الكتاب قد نال درجة الدكتوراه في هندسة الطيران، ثم انتقل الى مجال الكومبيوتر ونظم المعلومات: برمجة وتصميماً وادارة وبحثاً وعمل في هذا الحقل لمدة (٣١) عاما، وكان لنا ان نتابع بعمق جهوده في بحوث اللغويات وتطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي.. ونناقش ما ورد في كتبه السابقة:

اللغة العربية والحاسوب، العرب وعصر المعلومات، وكتابه الجديد: ((الثقافة العربية وعصر المعلومات)) الذي يعد إغناء وتفسيرا لكتابيه السابقين وابحاثه في هذا الميدان.. كونها تعمق وتتواصل وتفصل في دراسة العلوم والمعارف التي تمت دراستها والعمل على الخروج بنتائج جديدة من شأنها ان تسهم في تعزيز مكانة الانسان من خلال، تعزيز مكانته الثقافية، وتعميق دوره في التعبير.

في الصفحات الأولى لهذا الكتاب نجده يضع جدولاً بالنهايات والمابعديات والمنفيات.

في النهايات يحصي (٢٢) نهاية: نهاية التاريخ، الايديولوجيا، الذاكرة، المكان أما في المابعديات فيحصي (١٢) ما بعد: ما بعد الحداثة.

وفي المنفيات يحصي (١٩) نفياً: مصانع بلا عمال، وهواتف بلا أرقام، وجنس بلا رفقة، وموظفون بلا مكاتب..

لكنه لا يناقش مسألة البدائل والمعطيات اللاحقة، لا سيما وانه يقدم رؤية مستقبلية في كتابه، بمعنى انه يبحث في (علوم المستقبل). وفي الوقت الذي كتب فيه عدد من المفكرين في شؤون مستقبل العالم ونفي الثبات عنه، وانه في حركة دائمة، ومتغيرات سريعة، نجد د. نبيل علي يحافظ على تقديم كم هائل من المعلومات، إذ أفاد من خبرته العلمية في الالكترونيات وأجهزة المعلومات.. لكنه لم يقف عند مناقشة ما أورده من آراء. ولم نعرف نتائج أبحاثه في مستقبلها

الآتي انه يضعها ((صوب المجهول)) بسبب يغريه الى (لا نريد ان نحرم القـــراء نصيبهم من رهبة البداية، ونحن نتحرك صوب مجهول ثقافة عصر المعلومـــات)) ويرى ان أصدق من يعبر هذا المجهول ايليا بريجو جين / الحائز علـــى جـائزة نوبل يقول المؤلف عن بريجو جين: ((يقول شاعر الديناميكـــا الحراريـــة. كمـا يطلقون عليه: "ان القرن العشرين قد حول كوكبنا بأكمله من عـــالم متنـاد مـن الحقائق اليقينية الى عالم لا متناه من الشكوك").

ويرى د. نبيل علي ان "الكائن البشري، قـد دان لسـطوة الرمـز، منـــهل سيصبح بالتالي قابلاً للتحديث والتعديل، شأنه في ذلك شأن أي نظام للمعلومـــات" ويجيب عن سؤاله ضمنا عندما يقول بعدئذ: "تأتينا الانبـاء حاليـاً عــن وسـائل صناعية لتحسين السلالة البشرية وتعزيز ذاكرة المخ وقدراته الذهنية".

ويعتقد ميرفين مينسكي / عالم الذكاء الصنـاعي ان: "عقـول السـليكون، صنيعة الذكاء الاصطناعي، ستنمو الى درجة نصبح معها ـ نحن البشـر ـ فـي عداد المحظوظين لو قبل أصحاب هذه العقـــول السـيلكونية، ان يحتفظـوا بنـا كحيوانات أليفة" فهل سيكون الانسان عبداً يعمل تحت هيمنة سيده الـــذي صنـع الانسان ذكاءه هل سيقع الانسان في فخ ما صنعته يداه وعقله؟

يؤكد المؤلف حقيقة تتواصل في مواجهة الثقافة العربية كونها "أول ضحية لضغط الانفاق، يأتي ذلك ونحن في أمس الحاجة الى جعل الثقافة محورا لعمليـــة التنمية، والى إقامة صناعة ثقافية عربية يمكنها المنافسة عالمياً، أو على الأقـــل تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي".

واذا صح الشطر الأول من هذا الرأي والمتعلق بضغط انفاقه الثقافي، فـإن ذلك يعود الى ان كثرة من الأقطار العربية مازالت تنظر الى الثقافة الى كونها مـن الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها.. انطلاقاً من اننا لسنا بحاجة الـــى ان نفكـر ونعي ونتذوق ونحس ونرقي باهدافنا ونسمو باخلاقنا وقيمنـــا ونجـدد فاعليـة

أرواحنا في مواجهة سقم الحياة..

اما ان تتحول الثقافة من موقعها الموجه عقلاً وروحاً وتربية الى عملية صناعية تتجرد منها ملكات العقول والاحساس.. فان مثل هذا التوجه سيجعل من الثقافة عملية آلية تسعى الى تسيير الانسان على وفق طريقة مجردة من ألق الروح وتأمل الفكر.. لتصبح بضاعة/ سلعة، عرضة للفساد والخسارة والكساد. ومثل هذا الأمر لا يجعل منها إلا خطاباً منشغلاً بكيفية تجني أكبر قدر من الارباح.

التشكيل سيتحول الى نقل، والى تنفيذ رغبات الزبون، والمسرح همه شباك التذاكر.. وهذا يستدعي منه التسلية المجردة، والكتاب سيتم الاستغناء عنه كلياً بسبب وجود أجهزة الانترنت المتطورة باستمرار وستجف الموسيقى عن تأثيرها في الارتقاء بسمو الروح، لتصبح موسيقى تهريجية.

صناعة الثقافة هنا، صناعة تجرد الثقافة من أهم خصائصها الانسانية وتلحقها بخصائص جديدة ليست من لوازمها وخصائصها أصلاً.

ويعتقد الكاتب ان حوار الثقافات "يمثل تحدياً حقيقياً لثقافتنا العربية" فما هي طبيعة هذا التحدي؟

ان كونية الثقافة. لا تعني صهر الثقافة الوطنية في بوتقة ثقافية أحادية ذلك ان الثقافة الأنسانية في جوهرها، لم تقم ولم تنشأ إلا من خلال ادراكها الثقافة الوطنية إدراكاً تاماً، والتعبير عنها بوعي وأصالة الأمر الذي حفز كل ثقافة محلية تنمو وتصب ــ لا ان تنصهر وتذوب في ثقافات الشعوب والأمم الأخرى وتتفاعل معها. تؤثر ويؤثر فيها على وفق فهم لتبادل الخبرات والتجارب والكفاءات والمواهب والعقول النيرة والارواح اليقظة والقناعات السليمة غير الملزمة.

واذا كانت: "تكنولوجيا المعلومات قد كسرت احتكار الانسان لملكة الذكاء،

بعد ان نجحت في استخلاص الذكاء من قلب لغته وآليات حواسه ووظائف مخه وحصاد خبراته "فان هذا لا يعني ان هذه التكنولوجيا ستكون بديلاً نهائياً عن الذكاء الطبيعي للانسان.. ذلك ان هذا الذكاء متجدد ومختلف ومتعدد بين الكائنات البشرية.. وان هذه الكائنات هي التي تغذي الاجهزة التقنية كلها بالمعلومات ومن دون هذه التغذية المستمرة، سوف تكون التعليمات والمعلومات الجديدة غائبة تماماً عن هذه الاجهزة وسوف تصبح متخلفة مقارنة بالانسان المتوقد الذكاء دائماً ودائم التجدد باستمرار.

وفي مقارنة له، يقدم المؤلف (انماط فكر عصر المعلومات) بما يقابلها من (عينة انماط الفكر العربي) وكالآتي:

فكر ابتكاري، فكر تقليدي، فكر مفهومي، فكر سطحي، فكر خلافي، فكر دوجمائي، فكر تنفيذي، فكر استسلامي، فكر علمي، فكر لا علمي، فكر منظومي، فكر دمجي، فكر استشراقي، فكر رجعي، فكر حدسي، فكر قاطع، فكر مبادر، فكر سلبي، فكر محدد، فكر غير محدد، فكر متوازن، فكر توفقي، فكر جمعي، فكر فردي، فكر عولمي، فكر محلي، وفكر بدائلي، فكر أحادي، فكر حوسبي، فكر سردي، فكر تواصلي، فكر انطوائي، فكر توليدي، فكر الأمثلة.

وقد وضع المؤلف كل ما هو سلبي في توجهات الفكر العربي، وكأن هذا الفكر قد خلا تماماً من أية ومضة جديرة بالعناية والاحترام.

في حين وصف المفكر المعلوماتي بكل جديد وايجابي ومنطقي وعميق ومع فداحة الخطأ في هذه النتيجة التي توصل اليها المؤلف من دون براهين دالة، نجده يغفل تماماً عن الفكر العربي الذي أسهم اسهاماً فاعلاً ونشطاً في مكونات الفكر المعلوماتي.. سواء في خزن المعلومات أو تطوير تلك الاجهزة.. وكأن هذا الفكر المعلوماتي ولد فطرياً ولم يكن للانسان ــ أي انسان، أي دور في بلورة وجوده وتطوره.

وفي موقع آخر من هذا الكتاب، يرى المؤلف ان: "السلب عنصر ملازم لمخ الانسان، سواء في تطوره أو بنيته العامة أو وظائفه..".

فهل هذا صحيح، وهل ان المخ البشري قد توقف وعجز عن العطاء ولم يعد قادراً على تقديم أي اجتهاد جديد؟

ان الوقائع تثبت يومياً المديات التي يقطعها هذا المخ البشري وتفرد افراده في إضافة مختلف الابتكارات وشتى الافكار والمسارات والرؤى في حقول المعرفة والعلم والابداع كلها..

ان تأكيده لـ (السلب) في الفن مثلاً على بيكاسو "الذي يجعل من القبح غاية تبتغى" ـ كما يعتقد المؤلف ـ ومن خلال قول بيكاسو نفسه: "إن كنت بصدد انجاز عمل فني جليل، فعليك ان تخطط من البداية بحيث يكون آماله في النهاية الى القبح".

ان صفة (الجلال) هي الصفة الأهم التي تشغل بال بيكاسو وليس (الجميل) ذلك ان الطبيعة تحتفظ بأكبر قدر من الجمال.. وتقليدها لا يعني شيئاً، بينما (جلال) الأبداع قائم على كيفية التعامل مع الاشياء من منطلق داخلي أثير، من التجلي والرفعة والسمو الذي يرقى به الفنان..

يقول بيكاسو: "لقد احتجت الى ١٢ عاماً لأسم مثل رمبرانت والى ٦٠ عاماً لأرسم مثل الطفل. وهذا يعني ان يتعلم المرء إتقان الرسم وسواه على وفق قواعد ملزمة ممكن وسهل، أما الرسم بعفوية وبراءة ونقاء الطفل، فهو أمر غير ميسور بسهولة، واتقانه يحتاج الى خبرات عالية وإرادة عفوية فعالة ومنتجة.

من هنا لا يصبح رأي بيكاسو ومهمات منجزة الابداعي سلباً، وانما يعد ابتكاراً وإذا كانت: "اللغة هي الهواء الذي نتنفسه" كما يقول جاك دريدا، فان لغة الفن تحمل قدراً كبيراً من هذا الهواء الذي يتشكل من وجوده الانسان ذاته.

وفي حديثه عن: علم النص الحديث يرى المؤلف ان هذا العلم يشمل:

(علم اللسانيات، علم العلامات، (السيميولوجيا)، علم المنطق الحديث، علم اجتماع المعرفة، علم نفس المعرفة، علم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة). ويستثني من بين جميع النصوص، النص القرآني بوصفه يمتلك لغة خاصة به: "ان القرآن لا يخضع للتصنيفات المعهودة لأجناس النصوص الأدبية، فهو نص له جنس خاص به "ويدعو الى توظيف هذا النص معرفياً.. وإماطة اللثام عن الكيفية التي يتلقى بها الانسان المسلم نصه القرآني. وكيف ينمو لديه هذا الشعور النفسي بتقديس الرموز الدينية وتبجيل القيم السامية ورفض القيم المدنية.. واستخدام اساليب هندسة المعرفة وعلم النفس المعرفي.. من أجل الوصول الى المغزى العميق لنص القرآن الكريم.

لكنه ـ المؤلف ـ لا يشترط في القيم ان تكون حقيقية، وهي تمثل لديه "رؤى عن الخير والشر يمنحها الانسان لنفسه دون سند سوى رغبته في الايمان بها" وان: "الرغبة والعاطفة.. أهم من العقل فيما يخص القيم" ويعزى السبب في ذلك الى انهم "ملاذ لتحقيق السلام والوئام بين فئات البشر على اختلاف اعراقهم وعقائدهم ومستوياتهم".

ان هذه النظرة الى القيم، نظرة قائمة على الهوى، وما يقوم على الهوى لا يرسخ في العقل ولا تبنى به قيم الحس ولا تؤسس بموجبه العقائد والاعراف الاجتماعية التي يحترمها المجتمع ويسير على وفق ما يتفق عليه الاجتماع القائم على رجاحة العقل والمنطق السليم، بحيث توحد هذه القيم المجتمع كلاً.. لا عدداً من الافراد الذين يتعاملون مع القيم على أهوائهم ورغباتهم.. واذا كانت تكنولوجيا المعلومات قد استحدثت فروعاً اخلاقية ذات طابع مغاير تماماً لما سبقها وظهور: "قيم عصر المعلومات اخلاقيات الاعلام، اخلاقيات الانترنت" فأن هذه القيم ـ على جدتها ـ لا تتقاطع مع القيم السابقة انطلاقاً من انها وليدة مجتمع يرتبط بالعلم والثقافة. والتعليم والاعلام.. ذلك ان احترام الأمانة العلمية

والمنكية الفكرية والتصدي لظاهرة العداء العلمي بدوافع ايديولوجية أو دينية جامدة والتصدي كذلك لانتزاع سلطة المعرفة.. كلها قيم قائمة قبل وأثناء وبعد ظهور تكنولوجيا المعلومات.

ان التفاصيل العميقة والدالة التي يتناولها هذا الكتاب، تفاصيل تؤكد غنى الخزين المعرفي الذي يمتلكه مؤلف خبر التكنولوجيا جيداً وعرف الكثير من أسرارها الأمر الذي جعله يقدم الينا كماً وافراً من المعلومات التي نحن بأمس الحاجة اليها بسبب دخول هذه الأجهزة الحديثة في حياتنا اليومية، في الوقت الذي لا نعرف عنها وعن استخدامها إلا القليل، مما يجعل درجة الافادة منها محدودة جداً..

إلا ان د. نبيل علي يفتقد الى مسألة غاية في الأهمية وهي انه غيب الانسان المبتكر على حساب الابتكار نفسه، الأمر الذي جعله ينظر الى الانسان وكأنه عقبة أمام ابتكاره. يحول دون تقدمه نحو آفاق جديدة. وهذا أمر يتطلب من مؤلف موسوعي في ميدان عمله التكنولوجي ومعارفه الواسعة. إعادة النظر في المسألة وان يقف منها موقفاً علمياً موضوعياً قائماً على الجدل والبرهان.

ان "قناعة الكاتب: ان البداية في التربية، والمدخل اليها هو اللغة، وركيزة كلتيهما هي الثقافة، ثقافة تكامل المعرفة وصدق الإيمان، وكلاهما رهن بتوافر الحرية" ــ كما جاء في كلمة ختام الكتاب والتي أجابت عن سؤال: من أين تبدأ تطلع سليم، مرهون باستجابة الانسان والدول له.. حتى يتحول علم الانسان الى علم لخدمته وسعادته وإثراء وجوده وتعزيز بناء مستقبله السعيد.

قضايا في الفكر المعاصر

يشغل د. محمد عابد الجابري (ولد في المغرب عام ١٩٣٦) أهمية متميزة في الحركة الثقافية والفكرية في الوطن العربي، وقد أثارت دراسته وكتبه الكثير من الجدل ولاسيما كتاب: "نقد العقل العربي".

وبات د. الجابري يشكل احد ابرز اعلام الفكر العربي المعاصر، وذلك بسبب طروحاته الجديدة في مناقشة واقع هذا الفكر وابعاده. وقد صدر للدكتور الجابري مؤخراً كتاباً يحمل عنوان: "قضايا في الفكر المعاصر"(*) ناقش فيه العديد من القضايا الراهنة والملحة: (العولمة، وصراع الحضارات، والعودة إلى الاخلاق، والتسامح، والديمقراطية ونظام القيم، والفلسفة والمدينة).

يؤكد الجابري منذ البداية أهمية الفلسفة انطلاقاً من كونها "تبدأ بالسؤال أما الجواب لا يثير سؤالاً جديداً فهي لا تحتفل به" والسؤال شك، والشك وعي، يعمق عشق الحكمة الذي هو جوهر الفلسفة.

ويورد الجابري تعريفاً للفلسفة نقله عن كتاب: "ما الفلسفة؟" لجيل دولوز وفيليكس كاتاري ــ جاء فيه ان الفلسفة: "فن صياغة وانشاء وصنع المفاهيم".

(*) منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٧.

ويدعو الجابري للعودة إلى الفلسفة لـ "ضرورة يفرضها فشل التدبير الذي تم بدون حكمة فأدى إلى الأزمة، العودة إلى الفلسفة حكمة، والحكمة تبدأ بالاعتراف بأن الوصول الى الرأي السديد لا يمكن بدون مناقشة حرة.." ومن هذه المناقشة نصل إلى أهمية الديمقراطية في بناء حياتنا الراهنة والمستقبلية.

ويرى الجابري في مفهوم (التسامح) احترام الموقف المخالف في حين يرى ان الوثيقة او الدوغمانية تتنكر للاجتهاد وتلغي الاختلاف وترفع شعار الاجماع وتشهر سلاح الخروج عن الاجماع ضد كل مخالف وتنحو نحو الاستبداد والهيمنة، فيحل التلقين والتلقي محل البحث والتقصي، وتكف الفلسفة عن اعتماد التسامح موقفاً فكرياً وعمليا وتفقد هويتها وفريتها وتصبح شيئا آخر نسميه اليوم (ايديولوجيا) في حين يمكن ان يشكل التسامح حالة من حالات الضعف والتراجع، كما يمكن للايديولوجيا ان تحدد موقفاً وانتماء وتؤكد على رسوخ وثبات وقناعة ومبدأ، وليست تعنتاً فارغاً.

وينقل الجابري عن ابن رشد لومه الغزالي لكونه لا يحاول ان يتفهم موقف (الخصم) بل يحكم بفساده من دون اعتبار المقدمات التي أدت إليه. يقول إن من العدل ان يقام بحجتهم في ذلك ويناب عنهم، إذ لهم ان يحتجوا بها ـ والقصد هنا المعتزلة والفلاسفة الذين اتهمهم الغزالي بالشناعات ـ! ويمضي ابن رشد في قوله: "من العدل كما يقول الحكيم أرسطو أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه".

كما ينقل الجابري عن: جون هرمان راندل قوله: كان عصر التنوير مستعدا للتسامح في أمر الاختلاف الديني، لا السياسي!

ويعود الجابري إلى مفهوم التسامح متفقاً مع برات لكون كلمة التسامح قد لا تعبر أبداً عن الاحترام الذي يجب ان يشمل الآراء التي لا تتفق معه ذلك لأننا

نتسامح مع من لا نقدر على منعه. وكما يقول المعتزلة (أهل العدل) توفير حق الغير واستيفاء الحق منه.

وبشأن الاخلاق يرى الجابري ان التاريخ يشير الى وجهتين لمشروعية الاخلاق وجهة ترى ان الدين هو الذي يؤسس الاخلاق، فما يأمر به الدين خير وحسن، وما ينهى عنه شر وقبيح، وهذا واضح ولا سيما في الديانات السماوية من يهودية ومسيحية وإسلامية.

وهناك وجهة أخرى وترى ان أساس الاخلاق هو العقل البشري نفسه ليس فقط لكونه قوة تمييز، يميز بطبعه وفطرته بين الخير والشر والحسن والقبيح بل أيضا لكونه يستطيع ان يرتفع بهذا التمييز (الفطري) إلى مستوى التنظير العقلي.

ونحن نرى ان مثل هذا الرأي يفصل بين ما هو ديني وما هو عقلي، في حين نجد ان العقلانية في المسألة الدينية هي أعلى مراتب الايمان التي تتحقق بها القيم والاخلاق.

كذلك يعتقد الجابري انه "إذا كان العلم يرجع إلى الفهم أي إلى التجربة والعقل معاً، ومجاله المعرفة، فإن الأخلاق ترجع إلى الادارة ومجالها السلوك، وما يميز السلوك الاخلاقي هو ان يصدر عن (الارادة الصالحة) التي ترجع عند نهاية التحليل إلى فكرة (الواجب)".

إلا ان هذا السلوك والارادة الصالحة لا يمكن لنا ان نبعد عنهما الفهم الذي هو سمة العلم، فالسلوك الفاهم سلوك واثق ومدرك وارادته تكمن في فهمه لا في شعوره حسب.

وفي حديثه عن الديمقراطية وكما نفهمها اليوم يقول: كانت غائبة تماماً عن نظام القيم في الثقافة العربية الاسلامية، ويضيف: غير ان هذا الغياب بالأمس لا يعني استحالة امكانية تأسيسها وتبيئتها اليوم في الثقافة العربية

الاسلامية، ان أفق تفكير أسلافنا كان يتحدد بمعطيات مرحلة تاريخية حضارية معينة، كانت الديمقراطية فيها من مجال ما لا يقبل التفكير فيه وذلك على العكس من المرحلة التاريخية التي نعيشها، والتي تجعل الديمقراطية على رأس المفكر فيه. وهناك اراء ترى في نظام الشورى سبيلاً يقترب تماماً من مفهوم الديمقراطية اليوم، غير اننا نرى في الشورى استشارة الاستماع إلى الصوت الآخر، لكنه استماع لا يلزم الأخذ به والانصياع له، في حين نجد في الديمقراطية بديلا يمكن الوصول اليه بالتصويت والجدل والحجة والاقناع.

وفي تناول موضوع انهيار الاتحاد السوفييتي وهيمنة الغرب يرى الجابري ان القضية التي ارادت الماركسية تقديم حل نهائي لها هي قضية الاستغلال الرأسمالي والظلم الاجتماعي المرافق له، وهي قضية لم تنته بسقوط الماركسية وانهيار الكتلة الشيوعية، وبالتالي فمن المفروض ان يعيد الناس فيها عساهم يهتدون إلى طريق افضل لحلها.

ومثل هذا (المفروض) الذي يقترحه د. الجابري يحتاج إلى يقظة ذهنية، والى ارادة صلبة في مراجعة الواقع مراجعة متأنية وواقعية بعيداً عن جنان محلقة في فضاءات مجردة يعد بها الغرب دائماً.

وينتقل الجابري لمناقشة ما طرحه هانتنغتون بشأن (صراع الحضارات) بدلاً من (حوار الحضارات) إذ تحل حدود التوتر بين الحضارات محل الحدود السياسية والايديولوجية، ويكشف الجابري ابعاد طروحات هانتنغتون التي تؤكد ان الاختلاف بين الحضارات حقيقة واقع، وان الصراع بين الحضارات سيحل محل الصراع الايديولوجي وغيره من اشكال الصراع الأخرى وان الصراعات بين مجموعة من حضارات مختلفة ستكون أشد عنفاً من تلك التي تجري بين مجموعات تنتمي إلى حضارة واحدة، وان المحور البارز في السياسة الدولية

سيكون الغرب وما عداه، وان البؤرة المركزية للصراع العالمي ستكون بين الغرب والحضارتين الكونفوشية والإسلامية، ومثل هذا (الصراع) لا يقوم على التحضر، وانما على أسس أخرى أقلها الهيمنة والتسلط وفرض البديل المستغل بالقوة، وتحقيق المصالح بالاكراه، وهذا ما يفعله الغرب في العالم كله و العالم الثالث على وجه الخصوص.

ويعتقد الجابري ان خطورة دعوة هانتنغتون تكمن في (بؤرة) أو (قلب) الموضوع ــ بالتعبير الأمريكي ــ وهو (الإسلام) و (الصين).

ليس "الإسلام" بوصفه دين ولا بوصفه حكومات تحكم باسمه. فبالامس القريب فقط كان الغرب يتخذ من "الإسلام" حليفاً ضد الشيوعية، ان موقف الغرب من "الإسلام" اليوم شبيه بموقفه من "القومية العربية" بالأمس، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهددها تغير الموقف، فما يخيف الغرب في "الإسلام" أو في "الصين" هو ما يهدد مصالحه، هيمنته وسيطرته، أما الصين وعداء الغرب لها فإنه يكمن في امتلاكها القنبلة الذرية وسلوكها سياسة مستقلة ودخولها في مرحلة الاقلاع الاقتصادي الذي قد يجعل منها منافساً حقيقياً لمصالح الغرب الاقتصادية في شرق آسيا ويصل د. الجابري إلى استنتاج مفاده:

"الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب = المصالح) انما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب والهادف إلى صرف الانظار عن (المصالح) وتوجيهها الى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل (الحضارة) و(الدين) و (الاصولية)".

ومثل هذا الكشف الذي يقدمه الجابري لسياسة الغرب بات واضحاً ولا يختلف عليه إلا قلة نادرة لها هي الأخرى "مصالحها الخاصة".

لكن تأكيد الجابري وتوضيحه يعد ترسيخاً لواقع لابد ان ندركــه ونتأملــه ونتنبه الى طبيعة ابعاده المستقبلية.

وفي حديثه عن (العولمة) يقول الجابري: ان القبول بلفظة (عولمة) التــي هي ــ بمعنى من المعاني ــ عبارة عن تنازل الدولة الوطنيــة أو حملــها علــى التنازل عن حقوق لها لفائدة (العالم) أعني المتحكمين فيه. يجعــل قبــول لفظــة (الخوصصة) غير مبرر ولا مفهوم.

ان (العولمة) المستخدمة اليوم، مفهوم يجعل الغرب وأمريكا تحديدا مركــز العالم وان أنموذجها هو الأساس، وانه يمتلك شــرطه (الخــاص) و (خواصــه) المشروطة وينقل الجابري الينا أنموذجاً لهيمنة الغرب كما يأتي:

ان خمس دول هي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وفرنســا وألمانيــا وبريطانيا تتوزع فيما بينها ١٧٢ شركة من أصــل ٢٠٠ مــن أكــبر الشــركات العالمية، وهذه الشركات المائتان العملاقة هي التي تسيطر عملياً على الاقتصــاد العالمي...

وفي تقرير للأمم المتحدة ان ٣٥٨ شخصاً من كبار الأثريــاء فــي العــالم يساوي حجم مصادر ثروتهم النقدية حجم المصادر التي يعيــش منــها مليــاران وثلاثمائة مليون شخص من فقراء العالم، وان ٢٠% من كبــار أغنيــاء العــالم يقتسمون فيما بينهم ٨٠% من الإنتاج الداخلي الخام على الصعيد العالمي". ومــن هنا تبين ــ لدى الجابري ــ نتائج العولمة: "تعميم الفقر، وهــو نتيجــة حتميــة لتعميق التفاوت. ان القاعدة الاقتصادية التي تحكم اقتصاد العولمة هي إنتاج اكــثر ما يمكن من السلع والمصنوعات بأقل ما يمكن من العمل، انه منطق المنافسة في إطار العولمة، ومن هنا نلاحظ ان الظاهرة الملازمة للعولمة وربيبتها الخوصصــة هي تسريح العمال والموظفين".

وتوثيقاً لذلك يشير الى قيام ٥٠٠ شـركة عالميـة بتسـريح ٤٠٠ الـف مأجور، ليربح من جراء ذلك خمسة ملايين دولار لكل مساهم، وترتفـع الأسـهم بنسبة ٩% بعد تسريح آلاف العمال!

ان (العولمة) و (الخوصصة ـ نقل ملكية الدولة إلى الخواص) تسـتهدف ثلاثة كيانات: الدولة، والأمة، والوطن ـ حسب ما يشير د. الجـابري ـ وبـهذا المعنى يصل الجابري إلى ان "العولمة نهاية السياسة" في حيـن يشـير إلـى ان السياسة في معناها اليوناني هي "تدبير المدينة".

اذن العولمة تريد إيصال دول العالم المتحررة إلى حالة مقطوعة، لا علاقـة لها بالسياسة، وانما هي مجرد كيانات تنظم الخدمات للغرب!

ان كتاب د. محمد عابد الجابري: "قضايا في الفكـر المعـاصر" يشـخص وبدقة الكثير من القضايا الراهنة والملحة ويناقشها مناقشة جادة لصيقة بـالواقع العربي ويفتح للواقع العربي أفقاً جديداً بعيداً عن (العولمة)، و (الخوصصـة)، و (صراع الحضارات) و(التسامح) الضعيف، ويدعو إلى بديل ديمقراطي ونظام للقيم وحكمة معمقة وخلق قويم.

تعد الدراسات المعمقة التي قدمها: د. حسين مروه في لبنان و ادونيس في سورية ود. حسن حنفي في مصر ود. محمد عابد الجابري في المغرب.. من أهم الدراسات الفكرية المعاصرة في الوطن العربي وأغناها.

وقد أثارت الدراسات الكثير من الجدل وشكلت تأثيراتها في المعطى الفكري والثقافي، إذ بات الغياب عن قراءتها وتأمل ما ورد فيها، يعد تقصيرا وتخلفا.

من هنا وجدنا في الجدل المهم الذي قدمه الأستاذ محمد مبارك عن (الجبار الجابري / بين طروحات لالاند وجان بياجيه) الكثير من النباهة والعمق. والكثير من جدية المناقشة والموضوعية التي حرص محمد مبارك على تقديمها في هذا الكتاب.

ومنذ البدء، نجد مبارك يناقش مقولة رينان: "الشرق شرق والغرب غروب، ولن يلتقيا" وكذلك منطوق اوليري القائل: "إن العقل العربي ذو طبيعة تحليلية تجزيئية لا تقوى على التركيب، وخلق الهياكل المنطقية للمعارف الجزئية والمدركات الذهنية المتفرقة".

ويشير مبارك إلى ان وجهة نظر اوليري قد تبناها في الوطن العربي: احمد أمين، ود. عبد الرحمن بدوي، فيما تبنى الجابري وجهة نظر رينان!

ولان كتاب مبارك قد وضع خصيصاً لمناقشة فكر الجابري، فأنه قد انصرف كلياً إلى إقامة حوار مع طروحاته.. مشيراً إلى أن الجابري تجاوز مقولة

رينان إلى القول: "إن المشرق العربي مشرق، والمغرب العربي مغرب ولن يلتقيا. مستأثرا لمغربه بما صارت إليه الحضارة العربية من تيـــارات عقليـــة برهانيـــة. وتاركا للمشرق العربي نزعات البيان والعرفان البعيدة عن مطالب البرهان والياته في الاستدلال والنظر..".

في حين يرى محمد مبارك: "أن الحضارة العربية الإسلامية في مختلـــف أمصارها واحـــدة، وان تعـــددت منـــاهج وتنوعـــت تيـــارات وعطـــاءات بتعـــدد طوبوغرافية الأرض العربية وأصولها الأثنية، بل ليس لهذه الحضارة ان تتكـــامل بنية مفتوحة لا مغلقة كما يريدها الجابري إلا بهذا التنوع والتعدد".

الأمر الذي جعلنا نتساءل عن أسباب الفصل بين المشرق والمغـــرب التـــي يطرحها الجابري.. صحيح ان التأثيرات الغربية والفرنسية منها تحديدا هي الأكثر بروزا في الغرب عنها في المشرق الذي واجه تأثيرات مماثلة ولكن بهوة تركيـــة وإنكليزية.. لكن الأقطار العربية جميعها كانت تستظل بعطاءات الحضارة العربيـــة الإسلامية.. فضلاً عن التأريخ والقيم واللغة والهم العربي المشترك.. الذي يوحـــد بين مغرب الأمة ومشرقها، ويجعل هذه الأمة تسعى الى اتخاذ قرارات مشتركة.

ويختلف محمد مبارك مع الجابري في التفريق بين (العقل) و (الدمـــاغ) و (الفكر).

فالعقل عنده "ادخل في باب الطاقة مفهوما او توصيفـــا" والدمـــاغ عنـــده "عضو مادي يتحقق في الزمان محدد في المكان، خاضع شأنه شأن بقية اعضـــاء الجسم البشري الى فعل قوانين الطبيعة وآثارها وتقلباتها بين جذب ودفع ونمـــو وانحلال "وان الفكر مصدره العقل، والعقل: غريزي/تستعد به قوة النفـــس لتقبـــل المقولات وفهم الضروريات واستدلالي / مكتب يحصل عليـــه الانســـان بـــالبحث والتجريب والنظر. لكن الجابري "يعمد الى استبعاد مفهوم العقـــل ليســـتبدل بـــه

مفهوم الفكر، بحجة تفادي ما قد يثيره مفهوم العقل في بحث يمتد الى ما يقـــرب من ١٥٠٠ صفحة من تساؤلات ويعرض له من اشكاليات لا تدخل فـــي عرفـــه، وفي دائرة اهتمامه.." ولاسيما ان "مفهوم العقل عنده ليس شيئا آخر غير الفكـــر بوصفه اداة انتاج النظري الذي صنعته ثقافة معينة لها خصوصيتها..".

غير اننا نتبين ان (العقلانية Rationalism) مفهوم ظهر ليؤكد ما ذهـــب اليه سقراط في كون العقل: "هو اهم ما يميز الكائن الانساني، وانه يتكـــون مـــن مجموعة المعايير التي يستخلصها مما تمده به الحواس من المعرفة، التـــي يتـــم التحقق من صحتها على اساس التجربة والخبرة [1].

اما الفكر Thought فيقصد به: "النتاج الاعلى للدماغ كمادة ذات تنظيـــم عضوي خاص، وهو العملية الايجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعـــي في مفاهيم واحكام ونظريات، ويظـــهر الفكـــر خـــلال عمليـــة انشـــطة الانســـان الاجتماعية والانتاجية، ويضمن انعكاساً وسيطاً للواقع. ويكشف الروابط الطبيعيـــة داخله" [2].

واذا عرفنا ان ثلاثية هيجل في الفكر كما يحددها مبارك: "الفكر الطبيعيـــة، الروح وان الفكر.. الله قبل نقض ذاته في الطبيعة، والروح عنـــد وعيـــه لذاتـــه وتوحده بذاته حالة اغترابه في الطبيعة، ومن ثم كان المنطق عنده يتوفـــر علـــى دراسة هذا العقل مجسداً في الطبيعة او الكون المادي، اما فـــي فلســـفة الـــروح فيدرس العقل عبر ما يتحقق فيه من فكر ونشاط بشريين". تبينا بازاء ذلك كلـــه، ان ثمة استخدامات غير دقيقة في طروحات الجابري، يتداخل فيها الفكر والعقـــل

---

(1) الجابري / بين طروحات لالاند وجان بياجيه، تأليف: محمد مبارك. الناشر: المؤسسة العربية /بيروت. ط١/٢٠٠٠ ــ ١١٩ ص٣٠

(2) مصطلحات فكرية /سامي خشبة ــ المكتبة العالمية. القاهرة. ط١/١٩٩٤.

والدماغ.. وانه ظل مضطرباً، وموزعاً بين افكار لالاند وجان بياجيه الذي وضع نظرية تكوين العقل في الثلاثينات!

ان الجابري ـ كما يقول محمد مبارك ـ :"يضطرب بشكل لم يعهد لمفكر من قبل، بين منظورين او منهجين ليس لهما ان يقفا معاً في صعيد واحد، هما المنهج التاريخي في تناول الظاهرة ـ اية ظاهرة ـ وفهمها، والمنهج البنيوي السكوني الذي ينفي مبدأ الصيرورة التاريخية، ويتناول الظواهر على انها بنى مغلقة وخارج اطار الزمن الطبيعي والتحولات الطبيعية "إذ يتداخل عند الجابري الزمن اللاشعوري/الحلم، مع زمن اليقظة/ الوعي/ الصيرورة التاريخية.

الجابري "تحول من منظور لالاند التاريخي في فهم العقل وتمييزه الشهير بين عقل مكون، الى مفهوم عالم النفس السويسري جان بياجيه عن اللاشعور المعرفي بوصفه المفهوم الاجرائي الاقدر على فهم تركيبة العقل البشري ومن ثم دراسة العقل العربي، بحجة انه مفهوم اجرائي خصب"!

فكيف جمع د. الجابري بين: مفهوم لالاند بنزعته التاريخية التطورية، وبين مفهوم بياجيه في اللاشعور المعرفي الذي يستعيره من فرويد في لا شعوره الغرائزي الانفعالي البدني؟ ينقل أ . محمد مبارك عن الجابري قوله في (تكوين العقل العربي): "ان زمن اللاشعور هو اشبه ما يكون بزمن الحلم، فهو لا يعترف بالمسافات الزمانية والمكانية ولا بقانون السابق واللاحق او قانون السببية، ومثل ذلك الزمن الثقافي" فهل يمكن حصر الثقافة والفكر باللاشعور وباللازمن وباللاقبل والمابعد؟ وهل يمكن القبول بعقل يصفه الجابري على وفق قبوله: "المشاهد الفكرية بالطريقة نفسها تقريباً التي يتقبل بها الطفل الرضيع المشاهد الحسية البصرية التي تترى امام ناظريه مشكلة عالماً خاصاً يفقد الى البعد الثالث.. عالماً شريطياً ينسى فيه اللاحق السابق وكأنه لم يكن"؟

انه عقل فطري، عقل تحركه مقدرات الطبيعة لا فاعليـــة التفكـير، عقـل مسكون بآلية بايلوجية لا علاقة لها بأرادة الانسان وما يمكن للعقـــل ان يبتكـره ويفكر فيه ويلتمس ابعاد الزمان والمكان من خلاله. اما "واقـــع تداخـل الازمنـة الثقافية في فكر المثقف العربي، فهو ما يفسر ظاهرة مزعجة في الفكـر العربـي المعاصر، ظاهرة (المثقفين الرحل) المثقفين الذين يرحلون عبر الزمـــن الثقـافي العربي من المعقول الى اللامعقول، من اليسار الـــى اليميـن بسـهولة لا تكـاد تصدق.." فان محمد مبارك يرى: "ان المشكلة في عمقها ليســت مشـكلة تقلـب الاختيار على الصعيد الايديولوجي، وانما هي أساساً مشـــكلة انعـدام الاسـتقرار الابستيمولوجي..".

ونحن نرى ان عدم الاستقرار المعرفي قائم في كثير مـــن الاحيـان علـى قناعات جديدة من خلال تراكم الخبرات والمعارف والتفاعل مع متغيرات الفكـــر.. من دون ان تكون هناك ضغوط نفسية تحول دون ثبات الفكر وصلابة الموقـــف.. وهو ما يحصل في حالات كثيرة. ويواجه محمد مبارك افكار الجابري مشيراً الـــى ان "الخلط والتخطيط في فهم المصطلح واجرائه.. وذلك الاضطراب الذي لا يجـدد بمثل د. الجابري عمقاً وشمولاً بين المنهج التاريخي التطوري عنـد لالانـد فـي فهمه لظاهرة العقل البشري، وبين النزعة البنيوية السكونية الراكدة عند بياجيــه في فرضية اللاشعور المعرفي الذي يراه بنية مغلقة خارج اطار التاريخ والزمـــان والمكان والمجتمع، ترجع الى استبعاد الدكتور المجتمع والتشكيل الاجتماعي فـــي قراءة الظواهر الذهنية ــ العقلية والانفصالية ــ النفســـية التـي تشـكل منــها شخصية الفرد وصورة المجتمع في هذه المرحلة او تلك من مراحل صيرورته".

وفي فصل لاحق يشير محمد مبارك الى ان د. الجابري "يتبنى التصنيـــف التقليدي القديم للنظم المعرفية الثلاثة: البيان، العرفان، البرهان، الـــذي اعتمـده

الفكر العربي/ الإسلامي الوسيط في مباحثه المختلفة للتهوين من دور المشرق العربي ــ وبخاصة بغداد ــ في بناء حضارة العرب وتاريخهم فكراً ومنجزاً روحياً ومادياً متقدماً طيلة قرون ظهورهم القوي على مسرح التاريخ البشري". ان الجابري بهذا الاتجاه، لا يقف عند الحقيقة التاريخية، ولا موضوعية البحث ودقته، وانما يأتي بأفكار ورؤى دخيلة.. يغيب عنها منطق الاشياء، الأمر الذي يجعلنا نؤثر رأي الاستاذ محمد مبارك لامتلاكه اصالة الباحث الذي يمتلك الحجة والبرهان وغناه ومنطقه، ويكسب الرأي فيما يحمله من دقة وصواب.. وفي اسقاط الجابري.. "قياس التمثيل الناتج لصالح القياس الجامع العقيم الذي أخذ به ابن حزم الظاهري، لينتهي بحرق كتب الغزالي في الاندلس على يد فيلسوفها.. واعمال السيف في رقاب القائلين بالرأي وتعدد الاجتهاد.." وينقل عن الجابري توكيده لما ذهب اليه من ان: "أمير دولة الموحدين يوسف بن تاشفين الذي يظاهر ظاهرية ابن حزم: ان الفقيه ابا بكر ابن الجد قال لما دخلت على أمير دولة الموحدين أول مرة، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس في الفقه المالكي، فقال لي: يا ابا بكر المسألة فيها اربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب ان يأخذ بها المقلد، فشرعت ابين له ما اشكل عليه، فقال كتاب سنن ابي داود وكان علي يمينه، أو هذا وأشار الى السيف" ويصل محمد مبارك الى ان هذه: "عقلانية فقيرة مبتذلة هذه التي تقف بالعقل عند القياس الجامع حصراً، وترفض التعددية في الفهم والاجتهاد وتجعل السيف دون ما تقول به من رأي أو ينتهي هي اليه من اجتهاد لا ينهض به العقل بثوابته في الاستدلال والنظر، خاصة وان القياس الجامع لا يعدو كونه اعادة تركيب أو تنظيم لمفردات.." ويتساءل مبارك: "أية عقلانية هذه التي يدعونا اليها الدكتور.. ويريد لعقلنا العربي في هذا العصر ــ عصر الثورة العلمية الجبارة ــ ان يدعي ما

شرعته من سبل.. ومهدت له من طرائق في الفهم والنظر؟!".

وينقل مبارك عن رجل الرأي والقياس ويقصد "أبا حنيفة النعمان بن ثـابت الذي يحكم بين أمرأتين تنازعتا في صبي، احدهما مسلمة والأخرى ذمية، فقـالت المسلمة هذا عبدي، وقالت الذمية هذا ابني، فقال: الولد لأمه، فلما روجـع فـي حكمه، قال: الحرية قبل الدين".

كما يشير مبارك الى وصية الامام علي بن أبي طالب لمن حضر موته مـن أثر ضربة ابن ملجم الخارجي: "لا تقتلوا الخوارج من بعـدي، فانـهم اجتـهدوا فأخطاوا ورد على خارجي آخر وقد تحداه في مسجد الكوفة أمام النـاس.. قـائلاً له: لن اصلي خلفك يا علي ولن أطيع أمرك ولقد نقضت عهدك، فـهل تنقصنـي العطاء، فقال لي علي: ثكلتك أمك، لم ذلك؟ فقال الخـارجي: لأنـك حكمـت فـي الكتاب، وضعفت يوم جدّ جدّ الحرب وتركتنا للظالمين ونحن صحبك وجندك فقـال له علي: لا حاجة لي بعهدك، ولن انقصك عطاءك". ويتساءل محمد مبارك.

"أين عقلانية أمير دولة الموحدين، يوسف بن تاشفين، الذي ما كاد يستقيم له الأمر، حتى جرد السيف في نصرة عقلانية فقيرة هشة مبتذلة بقياسها الجـامع العقيم الذي احدى مقدمته نص من الكتاب أو السنة، من هذه الـروح الحضاريـة السمحة التي ترى التعددية في الرأي فريضة ولا تأخذ احداً في اجتهاد أو اعتقـاد وتنظر للانسان بما هو انسان، وتركن في نظرها واجتهادها ومباحثها الى القيـاس التمثيلي؟".

ان دفاع الجابري عن دولة الموحدين المغربية ــ كما يتوضح لنا ــ دفـاع يخلو من الحجة والمنطق ويتحرك في عقلانية اقليمية.. أكثر منها عربية شاملة.

ان العقل ــ يقول محمد مبارك ــ هو "قمة الثالوث البشري المكون مـن: الجسم والنفس والعقل.. وبقدر اعتماد العقل على الحس.. حر من حيث هو أرقـى

صور النفس المبدعة" هنا يكمن خطأ الجابري في جعل العقـل بمفـهوم الفكـر.. بوصفه (الانتاج النظري) الذي صنعته معينـة لـها خصوصيتـها، وكـأن هـذه الخصوصية ملزمة وثابتة واداة قهر واكراه على اتباعها وقبولها كليـاً بوصفـها بديهية!

ان "العقل طاقة" واداة انتاج للافكار، والعقل من حيث هو نتاج فكري ومـا ينفرط اليه هذا النتاج من نظم معرفية وتصورات ذهنية وثوابت في الفهم والنظـر والثقافة" ـ كما يقول، محمد مبارك ـ ان مناقشة محمد مبارك الجابري، تشـير الى عمق الفكر النيّر الذي يحمله وأصالته.. وهو الذي أهله لمواجهة واحد مـن ابرز المفكرين العرب المعاصرين تأثيراً وحضوراً.. على الرغم من تكـرار عـدة مآخذ له على الجابري وكررها في أكثر من فصل في كتابه هـذا.. وانـه عمـم مناقشة الجابري، في حين تناول جانباً من الجوانب الكثيرة التي تناولها الجـابري في عدد من كتبه الغزيرة.. وقد تجاوز مبارك مناقشتها واكتفى بمناقشـة اجـزاء من موسوعته الفكرية (تكوين العقل العربي) وظل بعيداً عن الاجزاء الأخرى!

ويظل الجهد الممتاز الذي قدمه الاستاذ محمد مبارك، دالاً على غنى الجـذر الثقافي الذي ينطق من خلاله وصحوته وخبرته وعمقه لمناقشـته أحـد أعمـدة الثقافة العربية الراهنة.

من بارسونز الى هابرماس

لكل شيء نظام، يؤسس بموجبه ويتم السير على وفق رؤاه. والمجتمع ـ أي مجتمع ـ لابد ان يعمل على وفق نظم وقوانين يعرف على وفقها حقه وحق سواه.

ومن هنا كانت (النظرية الاجتماعية) قائمة وفاعلة ومنظورة ومتطورة وذلك بهدف تحقيق وجود أسمى للبشرية وهي تتخطى الماضي متوجهة نحو بناء المستقبل الذي يراد به تحقيق افضل الصيغ التي تساعد الإنسانية في العيش على نحو سعيد وآمن.

وفي كتاب "النظرية الاجتماعية" من بارسونز إلى هابرماس "لأيان كريب ـ المحاضر في علم الاجتماع بجامعة اسكس في بريطانيا ـ نتعرف جملة قضايا مهمة في علم الاجتماع، وزعها المؤلف على اربعة أبواب هي:

ـ المدخل / وفيه يناقش إشكالات النظرية وأبعادها.

(*) هذا البحث قدم الى كلية الآداب / جامعة جرش الاهلية/ الاردن، ضمن مؤتمرها النقدي الثالث: "موروثنا الادبي ـ قراءة جديدة" للمدة من ٢٣ ـ ١٩٩٨/٤/٢٥، بدعوة منها.

ـ نظريات الفعل الجماعي / وفيه يدرس الوظيفه البنانية لبارسونز، ونظرية الاختيار العقلاني والتفاعلية الرمزية، وعلم الاجتماع الظاهراتي، ومنهجية النظام الاجتماعي، ونظرية التشكيل.

من الفعل إلى البنية / يتناول موضوع العالم بوصفه نمطاً منطقياً، والماركسية البنيوية وما بعد البنوية وما بعد الحداثة. من البنية أو الفعل الى البنية والفعل / ويتناول مدرسة فرانكفورت، ولوكاش والماركسية الهيغلية، ويوغن هابرماس. ثم يختتم الكتاب بموضوع يحمل عنوان: اللعب بالافكار.

وفي مقدمة المترجم اضاءة تتعلق بمعرفة ابن خلدون (١٣٣٢ أ ١٤٠٦) بعلم الاجتماع الذي اسماه "علم العمران" من خلال مؤلفه: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذي السلطان الأكبر" المعروف بـ "المقدمة" وقد اطلق الأوروبيون مصطلح **Sociology** للدلالة على "علم الاجتماع" وتمضي المقدمة مستعرضة جوانب مختلفة من كتابات المعنيين بهذا الجانب، أما المؤلف فيعمم رؤيته بشأن (النظرية) وعدم الوثوق بها لكونها " تتجاوز إدراكنا وان "النظرية الاجتماعية تخلق حساسيتها الخاصة"، كما يعتقد ان: "المنظر يصبح في المحصلة النهائية في منزلة أدنى وليس أعلى بين زملائه في الترتيب غير الرسمي" ومثل هذه الآراء لا يمكن تعميقها، بعد جوانب فعلها محدود، لاسيما ان التفكير المنظم، هو ما نحتاج ان نؤكده ونتواصل معه، ومن دونه تصبح الأشياء كلها عرضة لعدم الدقة..

ان السقوط في الرذيلة ليس تمرداً على قيم المجتمع حسب وانما هو اغراق في الخروج على النظم.. لذلك يحسن ان تكون ثقافتنا قائمة على أسس منظمة يعمل الجميع على وفقها.. ويعد الخروج عليها خروجاً على العرف السائد في الحياة والمجتمع.. وهذا ما يسميه المؤلف بـ "النظرية التفاعلية الرمزية"

ويضرب مثلاً لذلك فيقول: "عندما أعطي علامة الرسوب لورقة امتحان طالب، فقد أحسب انني أطبق المعايير واحافظ على مستوى اكاديمي معين.. فهذا الطالب لم يستطع بلوغ حد معين من المعرفة موضوع سلفا. وهنا احكم عليه بنفس الطريقة التي أحكم بها على قطعة خشب بانها أقصر مما أريد".

ان الوعي يتكامل ويشكل فعلا منظما.. وليس وعيا عابرا ولد في ظروف عاجلة أو طارئة.. إذ يكون عندئذ هامشيا.. لكن المؤلف على الرغم من ايمانه بفائدة النظرية وضرورتها فهو يرى فيها:

(الغموض والتشرذم والانقسام) لكن لا يقرن رأيه بأمثلة وبراهين، والفكر عموماً قد يعاني من الغموض والانقسام، لكننا لا نغفل عنه وليس بمقدورنا تجاهله وابعاده عن دائرة اهتمامنا واذا فعلنا نكون كمن أبعد أهم صفاته الانسانية عن نفسه.

لذلك نرى في الابعاد الاربعة (المعرفي، والعاطفي والتأملي، والمعياري) أبعاداً جديرة بالدراسة والانتباه الى ما يمكن تحقيقه من خلال (النظرية الاجتماعية). على ان إيان كريب يفرق بين (المعايير) و(القيم) ويرى ان: "(المعايير) هي تلك القواعد المقبولة اجتماعياً التي يستخدمها البشر في تقرير افعالهم، اما (القيم) فأفضل وصف لها هو انها ما يعتقده البشر عما يجب ان تكون عليه الحياة" ويحدد كريب أهم العمليات الاجتماعية عند بارسونز في كونها: "عملية توصيل المعاني، أي توصيل الرموز والمعلومات والاهتمام بانتظام افعال الافراد وفقاً لانساق من الأفعال، أي بتطبيق الاتجاهات النظرية الكلية والفردية في آن واحد" على ان هذه المعايير والقيم.. هي نظم أسسها مجتمع بعينه من دون سواه. وأخضع نفسه للالتزام بها وقياس الآخرين على وفق تماثلهم وانسجامهم معاً حتى يكون سوياً، وبعكس ذلك يعد خرقاً لهذا التأسيس الذي

اعتمده المجتمع.

واذا كان بارسونز يرى نفسه "مريضاً بدءاً التنظير.. وان حالته ميؤوس منها" فان مثل هذا (المرض) يعد مشروعاً، يقابل قلق الابداع ومشروعية الانتاج الراقي المتقدم والمبدع.. وهو أمر لابد ان نحترمه فينا وفي سوانا.. كما ان (عدوى) مثل هذا (المرض) من شأنها ان ترقى بالمجتمع.. على العكس من (الأمراض) الأخرى كلها.

ويذهب المؤلف الى تقديم صورة عن مجتمعات بسيطة لم تتكيف بيئياً فتم احتواؤها عسكرياً.. و "ان بعض القبائل الأمريكية الأصلية في أمريكا قد ابيدت عن بكرة ابيها بالغزو العسكري.." ولا يعلن المؤلف موقفه مم هذه (الأبادة) التي يمكن ان نستدل من خلالها على طبيعة التوجه العنصري الذي تمارسه أمريكا من خلال هيمنتها على الآخرين.. مما لا يمكن ان نعده قائماً على قيم أو تقاليد واعراف انسانية..

وفي حديثه عن (التفاعلية الرمزية) يرى المؤلف انها "نظرية لدراسة الافراد نظرية خاصة بالفعل الاجتماعي، ولا تحاول في اوضح اشكالها ان تصبح نظرية للمجتمع.." ونحن نسأل كيف يمكن دراسة الفرد بمعزل عن الفعل الاجتماعي وهل يمكن للفرد ان يكون بمعزل عن المجتمع حتى نحقق أهمية وجوده فرداً انعزالياً لا علاقة له بسواه.. الا تشكل العزلة بذاتها حالة نفسية لفرد مقهور يعاني من ازمات؟

التفاعلات الاجتماعية قائمة وموجودة في حياة الفرد، ومن شأنها ان تؤثر سلباً او ايجاباً في مسار كل فرد حسب تماسه وتفاعله معها واستعداده للاستجابة.

ويكشف ايان كريب عن "ارتياب الجامعات الأمريكية والبريطانية من الافكار

التي تنبت في فرنسا والمانيا، وتعدها افكاراً غامضة وتأملات تملأها الرطانـة" ولا يناقش المؤلف هذه المسألة التي تشكل خللاً في الدقة والعلمية واستقاء المصـادر والانفتاح الذي ينبغي ان يكون على الفكر العالمي، ويعد العقل المبدع ثماراً حيـة وضعت أمام البشرية وليس لها ان تكون استثماراً للاستهلاك المحلي..!

ان اتجاهات الجامعات الأمريكية والبريطانية يمكن ان نعدها على هذا النحو جامعات عنصرية محدودة الأفق.. تدور في الأفق.. تدور في محـور اجتهاداتـها من دون سواها!

واذا كانت آراء كريب تقوم على ان: "المذاهب الفكرية شأنها شأن غيرهـا من المذاهب الحديثة، تنزع للزوال بسرعة "فان هذه الآراء ينفي الواقع صحتـها، فلولا تلك المذاهب وتطورها وبعثها ومناقشتها بشكل مستمر ما كان للانسـان ان يشهد مثل هذا التطور، كما لا يمكن بناء معرفته على فكر زائل.. ثم.. مـا كـان لكتاب ايان كريب نفسه ان يظهر أصلاً! ان كريب الذي يرى في المنهج: "اسـلوباً للنظر الى العالم أو التفكير فيه"، لابد ان يجد في بناء الفكر الانساني أكـثر مـن منهج.. ومن دون هذا المنهج لا يمكن ان يكون وان يجد صداه لدى الآخرين..

ان كل منهج يوصل الى معرفة، وكل معرفة نحتاجها.. وكل حاجـة هـي صدى لواقع اجتماعي لا يمكننا ان نكون بمعزل تام عنه.

كذلك نجد ان الفرضيات الميتافيزيقية التي يضعها.. ليس بمقدورنا التسـليم بها كلياً، ولاسيما انها تتعلق بأبعاد:

- العالم بوصفه نتاجاً للافكار.
- العالم بوصفه نمطاً منطقياً.
- موت الذات.

وهذه الفرضيات كلها جديرة بالتأمل، بالاهمية لما يحتويه الداخل من ابعاد.

وفي مناقشته فكرة "اننا صانعو افعالنا" يقول: "هو من بعض الوجوه شعور خاطىء أو شعور ايديولوجي، فما يحدث حقاً هو ان البنى الاجتماعية الكامنة هي التي تحدد افعالنا، وتعمل من خلالها، وان افعالنا تعمل على اعادة انتاج البنى وادامتها أو احياناً على تحويلها عن طريق الثورة، فالبشر بناء على هذا الرأي يضحون دمى للبنية الاجتماعية، وهذه البنية بدورها تصبح نوعاً من الآلة ذات الحركة الدائمة.."؟

ولو تأملنا ما ذهب اليه كريب في السطور التي اوردناها، لوجدناه متناقضا.. ففي الوقت الذي ينفي فيه "اننا صانعو افعالنا" وان "البنى الاجتماعية هي التي تحدد افعالنا" نراه بعدئذ يشير الى ان استجابتنا للمجتمع ستكون آلية! ونحن نرى ان كل فعل مشروط بالفرد والمجتمع معاً، فمن شأن الفرد ان يؤثر في قطاعات مختلفة من البشر، كما ان المجتمع كذلك، له القدرة على ان يؤثر في الفرد سلبا وايجاباً على وفق طبيعة التأثير وحجمه.

وينتقل المؤلف الى مناقشة جوانب مختلفة من: البنيوية، والحداثة، وما بعد الحداثة كما يدرس افكار عدد من الفلاسفة والمفكرين ورؤاهم الذين عرفوا بدراساتهم النقدية المعمقة اكثر من معرفتنا بهم انهم معنيون بدراسة المجتمع..

فالتوسير، وفوكو، ولوكاش، وماركوز، وماركس، وهابرماس، وغرامشي، وفرويد، وسواهم لا يمكن النظر الى دراساتهم على انها دراسات متخصصة في علم الاجتماع كما هو الحال في هوية هذا الكتاب، انما كانوا يجدون في الفكر الأرضية الأساس التي ينطلقون من خلالها لدراسة سلسلة من القضايا الملحة، والتي تشكل الفلسفة المادية جذراً واضحاً فيها..

ومع أهمية هذه الدراسات وعمقها فأنها لا تأخذ من علم الاجتماع إلا بقدر ما يخدم تطلعاتهم وجدة تناولها وجدل وجودها مع سواها من الدراسات الفلسفية

الفاعلة والمؤثرة في المجتمع.

ويخلص المؤلف الى القول "تعلم التسامح في التفكير النظري الذي قد يقول شيئاً لا نود معرفته، وتعلم احتمال النظريات المختلفة بكل غموضها وتناقضاتها المقيدة.." ونحن نسأل ما وجه التسامح في تفكير نريد معرفته، وعلم نريد ان نكشف خفاياه ترى هل تشكل ارادتنا في هذا الجانب خطأ يمكن تعويضه..؟

تغطية الإسلام

لماذا يشكل الدين الإسلامي الحنيف صدمة ساخنة ومستمرة في الغرب.. في وقت ظل فيه الإسلام سمحاً مع الديانات الأخرى، وظل المسلمون في العصور كلها يتعاملون مع الآخرين الذين يعتقدون بديانات يختلف معها الإسلام، من دون أن يمس معتنقيها أي ضرر، أو أي تعامل بحساسية تميزهم عن المسلمين بسبب معتقداتهم..؟

ادوارد سعيد، المفكر الفلسطيني المولد، المصري التعليم ــ ويعمل أستاذاً في الجامعة الأمريكية ــ اصدر كتاباً بعنوان (تغطية الإسلام) كشف فيه عن حقيقة ما يجريَ في الدول الغربية بشأن نظرتها إلى الإسلام ومحاولتها (التعمية أو التغطية) بوصفها حالة فريدة لها تاريخها في غرب بالغ الاهمية شديد التحديد.. واحتسابه في سياق المنظومة التنموية.. وهو ردّ على القول بأن المجتمعات الإسلامية قد عدت بحاجة إلى التحديث...

ولكن.. لماذا يأتي التحديث من الغرب، وذلك في حالة إقرارنا بالحداثة بوصفها ضرورة ولماذا لا يكون من المجتمعات الإسلامية نفسها، بوصفها صاحبة المصلحة الأساسية في الحداثة.. إذا كانت هذه الحداثة تحقق الخير فعلاً.. وإلا هل يمكن إشغال العرب المسلمين بتحديث الغرب مثلاً؟

في الغرب هناك: نظرة بشأن (الإسلام) بوصفه كبش الفداء لكل ما لا

يروق لنا من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم، ففيما يتعلق باليمن، يمثل الإسلام الهمجية، وهو يمثل فيما يتعلق باليسار الثيوقراطية في العصر الوسيط، أما فيما يخص الوسط، فإنه يمثل نوعاً من الغرائبية الممجوجة غير أن هناك اتفاقاً بين هؤلاء جميعاً، مؤداه انه على الرغم من أن النزر اليسير فقط معروف عن العالم الإسلامي فلا يوجد هناك الكثير الجدير برضانا وموافقتنا، وما يعد ذا قيمة في الإسلام هو أساساً عداوة للشيوعية.. الغرب أذن يحرص على أن يتخذ (الإسلام) سبيلاً لتحقيق مآربه وطموحاته ومصلحته.. وقد اعتمده وسيلة لمحاربة نظام اقتصادي ينافسه، والذي لم ينتبه الى طبيعة الإستراتيجية التي اعتمدتها أمريكا لعزلته ومن ثم لإسهامها الفعال في التعجيل بانهياره..

وباتجاه أخر سعت أمريكا ضمن صيحتها الليبرالية إلى إنشاء جامعات خاصة بالدراسات العربية والإسلامية.. حتى تتمكن من اختراق العرب والمسلمين في آن واحد.. في وقت ساد الاعتقاد في الغرب.. (أن الإسلام دين سماته النفاق والغموض) في حين كانت الأحداث الواقعة في العصور الوسطى وفي عصر النهضة تؤكده قوة الإسلام: (قوة سياسية ذات شأن لا يستهان به، فقد هددت جحافل الجيوش الإسلامية وأساطيلها أوربا على مدى مئات السنين..).

فهل كانت أمريكا والغرب.. يثأرون للماضي ويحاولون بقصدية واضحة تشويه الإسلام وتغطية أثاره الإيجابية والتعتيم عليها؟

لقد كتب ف. س ينبول رواية (انعطاف في النهر) كما كتب جون ابدايك رواية (الانقلاب) وجاءت الكتب المدرسية والأشرطة الهزلية والمسلسلات التلفزيونية والأفلام لـ (تصوير المسلمين كاريكاتورياً كموردي نفط وإرهابيين عطشى للدماء.. ونجد في المقابل أن الحيز المتاح للتعاطف مع (الإسلام) هو حيز ضيق جداً..) ويضيف إدوارد سعيد موضحاً:

(لو طلبنا تسمية كاتب إسلامي حديث مثلاً فمن المرجح أن يورد اغلب

الناس اسم جبران خليل جبران (الذي لم يكن إسلامياً) أما الخبراء الأكاديميون سخصصون في الإسلام فقد تناولوا في الغالب الأعم هذا الدين وثقافته المتنوعة صمن إطار إيديولوجي اصطنعود أو هو إطار مفعم بالانفعالات العاطفية والتجهيز الدفاعي، بل بالاشمئزاز أحياناً وقد جعلت هذه الخلفية ــ أو هذا الإطار ــ فهم الإسلام أمراً عسير المنال).

ألا يدل هذا على جهل فادح في معرفة الإسلام الحنيف والقيم الإنسانية التى جاء بها؟ إن ما يشغل الغرب بالإسلام، هو مدى تماس هذا الدين بما يمكن أن يحقق الغرب من خلاله مآربهم ومصالحهم.. فهم يعمدون إلى تشويهه حين يتعلق الأمر بدفاع المسلمين عن أوطانهم وثروات بلادهم والذود عن مبادىء دينهم الحنيف، وهم دعاة له وأنه يمثل حضارة قائمة على العدل والصدق إذا ما وقف عدد من المسلمين على الضد من الشيوعية المنافسة للرأسمالية التي يتبناها الغرب.. المصالح ولا سيما الاقتصادية والسياسة، هي التي تتحكم في الرأي الغربي ومتغيراته السريعة وغير المستقرة.

ينقل لنا إدوارد سعيد عن ف. س ينبول تصريحه: (أن المبادىء الأساسية في الإسلام خلو من المضمون الفكري، ولذلك فلا بد أن ينهار) ويعلق سعيد قائلاً: (لم يفصح ينبول عن ماهية المبادىء الأساسية في الإسلام أو يحدد ما يعنيه بها، كما لم يفصح عن نوع المضمون الفكري الذي يرمي إليه..).

ولا ينسى المؤلف أن يشير إلى أن عداء الغرب للإسلام لم يحل دون أن تكون هنالك آراء إيجابية سليمة في الإسلام: (نلمسها عند شعراء وباحثين من أمثال: غوته وجيرار دي نرفال وريتشارد بيرتون وفلوبير ولوي ماسينيون تميز إبداعهم بالخيال والرهافة.. غير إن الإسلام لم يلق الترحاب في أوربا أبداً على الرغم من وجود هذه الشخصيات ومن شاكلتها).

إن الإسلام دين تنوير وإرادة ووعي.. ومثل هذه المواقف قد تحول دون

تحقيق الأهداف الإستراتيجية التي ترسم لها أوربا والغرب بخاصة.. المسلمون ليس عندهم سوى كونهم أصحاب نفط / ثروة.

أنهم لا يعدون الثروات الطبيعية جزءا من الخيرات التي حباها الله للمسلمين، ودفاعهم عن أوطانهم والاستشهاد في سبيلها بروح فدائية.. عملا نضاليا.

إن الثروة / النفط يسعون للهيمنة عليه، مثلما يريدون الاستسلام كنيا عندما تغتصب أوطانهم.. هذا ما يريده الغرب من الإسلام: لا نفط بأيديهم ولا عمليات فدائية حين تسلب بلادهم !!

أما صفة (التخلف) فهي في نظر صانعي السياسة الأمريكية تشمل العالم الثالث وأنه (يقع في قبضة أساليب حياتية بالية وتقليدية جامدة.. وأصبح (التحديث) هو جدول الأعمال الملائم للعالم الثالث) ومن وجهة نظر الولايات المتحدة تعني: (نظرية التحديث الجواب الإيديولوجي على عالم يتصف بالجيشان الثوري المتزايد والرجعية المتواصلة في صفوف النخبة السياسية التقليدية..)

ويكشف إدوارد سعيد حقيقة الدراسات الغربية للإسلام وكونها موضوعية في حين تحكمها مؤسسات تقدم الإسلام سلفياً ومتخلفاً، تحقيقاً لمآرب غربية في الهيمنة.. إن (تغطية الإسلام) يمكن أن نعده استكمالا لكتاب (الاستشراق) للمؤلف نفسه الذي يعيش في حالة تماس مباشر مع الغرب وأمريكا تحديداً وبالتالي فهو يدرك جيداً السبل التي يهدف اليها الغربيون في عدائهم للأسلام الحنيف ومحاولاتهم تغطية آفاق الاسلام وقوته الروحية في إقامة مجتمع يسوده العقل والصدق والأيمان.

الممكن والممتنع في ادوار المثقفين

من هو الداعية.. لمن يدعو، عن أي شيء يدعو، ما هي حقيقة دعوته..؟

هذه الأسئلة كلها تبدو مهمة وواردة ونحن نقرأ في كتاب: "نهاية الداعية / الممكن والممتنع في ادوار المثقفين" لعبد الأله بلقزيز(*)

ان دائرة كيان المثقف العربي محصورة ـ على وفق بلقزيز ـ بثلاث سلط هي:

المعرفة، الجمهور / المجتمع، الحاكم/ السلطة.

ومثل هذا التحديد يبدو غريباً.. فسلطة المعرفة، ملزمة للمثقف، مثلما هي ملزمة للانسان حتى يتعرف ويتبنى ويتنبه، والمعرفة على وفق هذا صنو الانسان وسر تميزه عن بقية الكائنات التي تتعلم بالفطرة او بالتجربة، فيما الانسان يكتسب معرفة بجهده.. واذا لم يعرف فقد، واذا جهل تخلف عن مسيرة المجتمع الذي يعيشه، وسلطة المجتمع .. تشكل تفاعلاً حياً ودور الحاكم او السلطة العادلة، سلطة نظم وقوانين واعراف.. ومن دونها تكون الحياة في حالة فوضى.

(*) نهاية الداعية / الممكن والممتنع في ادوار المثقفين، تأليف: عبد الأله بلقزيز ـ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء. ط١/ ٢٠٠٠ عدد الصفحات: ١٧٦ ص. م.

اذن هذه السلطات مجتمعة ـ على وفق منطق الاشياء ـ تبدو مفيدة وضرورية ويمكن العمل على وفق الشرط الانساني والمعرفي ان نعمل ونجتهد وتنجز.. لا سيما اذا ادركنا ان هذه السلطات الثلاث ليست اداة قمع وحجب، بقدر ما هي قواعد عمل وترتيب توجهات وصياغة افعال.

وإذا كان المثقف: "عقل السلطة ولسانها وحسامها المستل للمنافحة والمدافعة ضد الناقمين والاخصام"، فإن هذا تعزيز لمكانة السلطة وليس على الضد منها.. فالسلطة هنا اعتمدت المثقف لا الجاهل، اعتمدت عقله وادراكه في تيسير الامور ووضع الحلول امام الجهل والفوضى.. ان السلطة هنا.. من الذكاء بحيث تستعين بخبرات المثقف، بحسه ووعيه في تعزيز مشروعها ولغتها وسبيلها الى الناس.

اما حديث بلقزيز عن "ترجسية المثقفين" فهو حصراً لا يمكن ان يقترن بالمثقفين دون سواهم، ذلك ان من طبع الانسان عموماً ان يفكر بذاته قبل سواه.. وما كان الانبياء والقادة العظام.. الا كونهم قدموا سواهم على انفسهم، امتلكوا عنصر التضحية، وهي ملكة تميز وندرة..

كذلك يمتلك الانسان بطبعه قدماً من الرغبة في اكبار الناس لعمله وجهده ولو لم يكن هناك ثناء على ابداع معين، لما كان لهذا الابداع ان يشق دروبه العضية ويأخذ مكانته من الازدهار.

اما السادية.. فهي ظاهرة مرضية تختلف عن سواه، ذلك ان السادي انسان متشف، لا تشغله عذابات الآخرين، بل قد تسعده.. ومثل هذه الظاهرة نجدها عند من تطبع على القسوة والصرامة والضغوط النفسية المتراكمة، ان لها عوامل واسباب، ومن ثم لابد ان تكون لها نتائج في حين تتأكد حقيقة ما ذهب اليه بلقزيز من: "ان الذي يقدم على ممارسة النقد الذاتي يكون قد تحرر ـ سلفاً

ـ من وهم مزمن، طالما استبد بالمثقفين هو وهم امتلاك الحقيقة او حيازة اليقين في القضايا التي جرى النظر فيها، وهو تحرر يقود صاحبه ـ توأ ـ الى التحلـي بنزعة النسبية في التفكير والاعتقاد، الامر الذي تتحـول فيـه امكانيـة التجـدد النوعي في ذلك الفكر الى امكانية سائغة ومفتوحة.. ان النقد الذاتي، جـزء مـن سلوك اجتماعي، من ادارة / سلطة اجتماعية تعتمـد التصويـب والكشـف عـن الاخطاء ضمن ادلة وبراهين، ضمن حجة تمتلكها الذات، مثلما يمتلكـها الاخـر، انها مواجهة الذات موضوعياً، وهذه المواجهة لا يمتلكها الا مـن يمتلـك حسـاً مسؤولاً وادراكاً متميزاً.. اما ان يكون: "المثقف العربي شديد الايمان بما يحملـه من افكار، حريص على حمايتها من الظن والشك، متعيش من بديـهيات يجترهـا اجتراراً ويأبى اخضاعها للفحص والمساءلة والمراجعة"؛ فإن مثل هـذا المثقـف ليس حصراً بالعربي وانما.. ما يجب ان يكون عليه كل مثقف في ادراكه وايمانـه وقناعته بفكر ما الى ان يجيء من ينفي هذا الفكر ويفنده ويثبت خطـأه.. وهـذا يتطلب الانفتاح على الأفكار الأخرى التي يختلف المثقف معها أو يقف على الضـد منها.. وله أسباب في هذا الموقف، الأمر الذي يتطلب الا يحول دون اصغائه الـى فكر الآخر ومناقشته ووقوفه على جوانبه الصح والخطأ فيه..

ومثل هذا المثقف المنفتح، هو على الضد تماماً من (المثقف) الدوغمـائي المتعنت الذي يرفض اخضاع الأفكار التي آمن بها محاكمـة عقلانيـة مجتـهدة، والحيلولة دونها والاخر الذي له اسبابه.. فمثله لا يمكن ان نعده مثقفـاً، وإنمـا جامع معلومات.. وحتى هذه المعلومات التي هي كل ثروته، قد تصبـح عرضـة للشك في دقة ما جاء فيها..

ويتساءل بلقزيز بمشروعية: "متى تعي الثقافة العربيـة ان طريقـها الـى الانتاج والابداع والتقدم هو حرية الرأي، وتكريـس تقـاليد الحـوار والاصغـاء

المتبادل، وتأصيل قيم النسبية في التفكير ضد النزعات الوثوقية الايمانية المطلقية، متى تؤمن بأن الثقافة تنمو بالتسامح والاعتراف والانفتاح. لا بالعدوان والانكار والانغلاق "هذا الوعي هو من بديهات الثقافة، من ابجدياتها التي يفترض ان تكون معلومة وعلى درجة من القبول المتبادل، والاصغاء السمح.. ومن ثقافة يمكن لها ان نتطور ما لم تكون ثقافة حوار مع الآخر..

ويقف بلقزيز على الضد من "ثلاثة من الاوهام والاساطير هي اسطورة الدور الارشادي. واسطورة الدور الرسولي ثم اسطورة الدور العلمي المحايد الاول يعد نفسه ممثلا لرأسمال المعرفة، اقطاعي المعرفة.. ثم لا يمكن تجاهله

الثاني هاجسه رسالي / دعائي، يضفي شرعية على دعوته حسب. الثالث.. المعتكف على نفسه وتحصيله.. مهملاً الواقع اليومي.

.. ويتساءل المؤلف: "هل انتهى دور المثقف؟" ويضيف : "ماذا تبقى من دور المثقفين؟"

ويكمن وراء هذه الاسئلة حقيقة المتغيرات المتلاحقة التي يواجهها المثقف على الاصعدة كافة، والتي من شأنها ان تحول دون ان يؤدي المثقف دوره المطلوب منه.. على الرغم من تأكيده لهذه المشروعية انطلاقاً من ان للمثقفين رسالة اجتماعية خاصة: حماية حق العقل والوعي في ممارسة نشاطه الطبيعي دون حجز أو تقييد، عنوان هذه الرسالة، الدافع عن حرية التفكير والراي والنشر ضد كل صنوف المنع" ان عبد الاله بلقزيز، باحث من طراز يقدم افكاراً ورؤى. ولا يعدها مسلمات بقدر ما هي مشاريع وطروحات هادفة الى اقامة حوار فعال. حوار يمكن تبادل الخبرات من خلاله وصولاً الى افعال جديدة وافكار سديدة. وعوالم تسعى مجتمعة دفعنا جميعاً بأتجاه البحث عن الحقيقة، عن معطيات الثقافة والمثقف في تواصلها وشاغلهما معاً لتقديم حسن مسؤول نابه. ودراية

بالاشياء حتى لا يكون الانسان في غفلة من نفسه ومن العالم المتغير الذي يـــدور باتجاه استيعاب النافع والمنظم الذي يحقق نفعاً للفرد والجماعة

.

فكرة الأضمحلال في التاريخ الغربي

هل يواجه التاريخ الغربي.. فكرة الاضمحلال والتلاشي؟

هل هناك تاريخ غربي أصلاً، بحيث يمكن معرفة امتدادات وعمق جذوره؟

هل ان الاضمحلال ناتج عن اسباب موضوعية تتعلق بالنشأة الخطأ التي تؤدي الى النتيجة الخطأ..؟

هل يمكن لعلم الأفكار ان يضمحل لعدم وجود ما يبرر بقاءه؟

كل هذه الأسئلة وسواها، يثيرها كتاب ((فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي)) للباحث: آرثر هيرمان ـ استاذ التاريخ بجامعة جورج ماسون، ومنسق برنامج الحضارة الغربية.. ـ وقد ترجمه الى العربية: طلعت الشايب ـ الذي عرف بترجمته لكتاب صمويل هنتجتون (صدام الحضارات) وسواها من الكتب المهمة ـ وقدم الكتاب: د. رمضان بسطاويسي محمد بمقدمة اضافية ركز فيها على توضيح قضايا مهمة بينها: ان هذا الكتاب (ينضوي تحت الدراسات المسماة بعلم الافكار الذي يتتبع تاريخ فكرة ما، ويرصد تحولاتها وتغيراتها، وعلاقة هذه الفكرة بالسياق الحضاري والاجتماعي والثقافي) وعندما يتابع الكتاب تسلسل الحضارات الانسانية، بدءاً بالحضارة اليونانية وصولاً الى ما وصلت اليه البشرية راهناً، فان الكتاب ينتمي في مثل هذه الحالة الى (فلسفة التاريخ) والكتاب يعتمد على محورين اساسيين هما:

ـ دراسة فكرة الاضمحلال ... اسبابها ونتائجها

ـ دراسة الشأن الانساني في مراحل تاريخية مختلفة... وتقديم رؤية مستقبلية للحياة الانسانية.

وينفي د. بسطاويسي عن هذا الكتاب أي (دعوى ايديولوجية) ونحن نرى على العكس من ذلك تماما. ذلك ان الكتاب يقيم جدلا معمقا في الشان التاريخي والفلسفي والفكري وعلم السلالات البشرية، وهي جميعا تنطلق من أفق ايديولوجي يبحث عن الحقيقة ويقف على الضد من القناعات الراسخة والتقديرات والمسلمات العامة. متجها صوب الفكر الجدلي الحضاري... متنبنا الى ان حضارة الغرب ستشهد في نهاية الأمر الاضمحلال والتلاشي على الرغم من كل التقنيات الحديثة المرافقة لتواجد هذه الحضارة. ويكمن السبب الاهم ـ كما يرى هيرمان ـ في اضمحلال الغرب، هو اعتماده على ثقافة أحادية. يصفها بـ (الثقافة النرجسية) وهي ثقافة منشغلة بمصالحها الذاتية دون مراعاة لثقافات الشعوب الاخرى التي لها تقاليد خاصة بها في حين تنشغل حضارة الغرب بالتكنولوجيا، والسوق العالمية، وشبكة المعلومات والاتصالات وهذه الامور على اهميتها لا يمكن عزلها عن حركة التاريخ الانساني، ولا يمكن لها ان تؤدي وظيفتها دون رجوع الانسان الي استخدامها واشرافه عليها.. بوصفه مبتكرها. وهو الذي يضفي عليها الاهمية.. وليس العكس. ويشير بسطاويسي الى ان فكرة الاضمحلال قد طرحت من قبل.. في كتاب هينريود (العمال والايام) تعني ان: (الكون تحكمه عملية اضمحلال متوالية بدءاً من عصر ذهبي حتى نصل لعصر حديدي، بينما نظرية التقدم ترى اننا نتطور من الادنى الى الاعلى) بينما نجد سبنجلر في (افول الغرب) يقول بان: (الحضارة تمر بالمراحل نفسها التي تمر بها الخلية الحية من ميلاد ونضج وشيخوخة).

وفي كتاب كوندورسية (تأملات في عظمة وأنحلال الرومان) حيث: (بين

ان التدهور يبدأ من القمة، عندما تفقد النخبة السياسية والثقافية رغبتها في الحفاظ على النظام القديم)

واعتقد بوركهات في كتابه (جينيالوجيا الاخلاق): (ان الغرب الحديث مريض) بينما رأى نيتشه في هكذا تكلم زرادشت ان الغرب يشهد: (موت الانسان الغربي وضياع الايمان).

وقدم إميل زولا (مجموعة روايات تدرس بشكل عملي الانحلال والتداخل بين الوراثة والبيئة) وتعرض رواية.

(دكتور جيكل ومستر هايد) لروبرت لويس ستيفنسون الصادرة عام ١٨٨٦ لـ (الأزدواجية التطورية للانسان الحديث ، الذات المتحضرة التي في (جيكل) الذي يواجه فجأة ذاته المرتدة للأسلاف المتوحشين (هايد) والمواجهة بينهما هي تعبير عن ان الحضارة تعتمد على كبح الحيوان في داخلنا).

كما بين فرويد ان العقل البدائي غير قابل للفناء فالبدائي والوحشي يظلان جزءاً من الذات الفردية على شكل (الهو) والانسان يمكن ان يرتد في أي لحظة الى هذا الجزء وعبر هنري ادامز عن رأيه بالقول (كل اشكال الفساد في الكونجرس والنظام السياسي والحياة الاقتصادية، عبارة عن طبقتين طبقة تسرق وطبقة مسروق منها) ومنذ الصفحات الاولى لهذا الكتاب يقدم المؤلف نظرة سوداوية الى المستقبل وان المجتمع الذي تطلق عليه امريكا (المجتمع الديمقراطي) يعاني من ازمات حادة، وانه بعد اكثر من ربع قرن.. من اعلان هنري لوس (القرن الامريكي) هبطت الثقة الامريكية فالذين كانوا يحلمون بالسلطة العالمية يائسون الأن من حكم نيويورك. الهزيمة في فيتنام. الكساد الاقتصادي. النضوب الوشيك للموارد الطبيعة الامر الذي يجعل السوداوية او التشاؤمية. نظرة جد واقعية. وتتأكد حقائقها يومياً من خلال الهيمنة والضغوط

والعولمة الارهابية التي تمارسها امريكا ضد الشعوب والأمم باساليب مختلفة.

ويرى ديفيد هـ . دونالد: (لقد انتهى عصر الوفرة مؤذناً بجدب الحقبة الجديدة) ويؤكد بوب كيندي في كتابه (قيام وسقوط القوى الكبرى): (ان الامريكيين كانوا على وشك ان يواجهوا المصير نفسه الذي واجهه البريطانيون في نهاية القرن التاسع عشر الا وهو الأضمحلال كقوة عالمية).

ويكمن السبب المهم في (الجدب) و (الاضمحلال) في توجه امريكا نحو اتباع سياسة توسعيه عدوانية، وشن الحروب وانتاج المزيد من وسائل القتل واسلحة الدمار والأرهاب، مما يؤدي الى عجز في الميزانية والاحتياطي النفطي والمديونية...

من هنا نجد كتب مثل: فجر الديمقراطية الكاذب، شرك الديمقراطية، محاكمة الديمقراطية، فقدان الأمل في الديمقراطية الجمهورية المجمدة، بيع امريكا، افلاس امريكا، الحلم الامريكي المهدد، من سينجد الشعب.. وغيرها من الكتب تجد رواجاً في كل لغات العالم، بوصفها كتباً تشكف عن حقائق التوجه الامريكي المعلن وغير المعلن.

ويكشف المؤلف ان عدداً من المفكرين الامريكيين قدموا صورة للمجتمع الامريكي الاكثر رعباً ومن بينهم: نورمان مايلر، جور فيدال، توماس بنسون، كريستوفر لاش، جوناثان كوزول، جاري ويلز، جوزيف كامبل، جوان ديديون، سوزان سونتاج، جوناثان شل، روبرت هيلبرونر، ريتشارد سينيت، نعوم تشومسكي، بول جودمان، ميشيل هارنجتون، أي الـ . دوكتورو، كورنل وست، البرت جود...

ويمكن لنا اضافة اسماء: ادوارد سعيد، هشام شرابي.. وسواهما الى هذه الاسماء في وقت نجد فيه: ماركوز وقد تحول عن الماركسية. وهيدجر اتجه نحو

هتلر، وشبنجلر صار مرتابا، ونيتشه اعلن عن احتقاره لكل الشعارات السياسية.

بينما ايد اليوت، فوكنر، ايفلين وو، ووكر بيرسي، مالكولم ماجردج، سولجنتيسن، توماس مولنر أيد هؤلاء كلهم الحضارة الرأسمالية البرجوازية وكان مصيرها الدمار الذاتي ـ كما يرى آرثر هيرمان ـ

واذا كان هيرمان يؤيد ما ذهب اليه جان جاك روسو من أن (كل شيء يتدهور في أيدي البشر) فأننا نرى انه من الممكن ان يبنى كل شيء في يدي البشر وانه: (لا استقرار لشيء) كما يقول هيراقليطس فان اللااستقرار هذا يمكن ان يبنى على تطور مستمر، وتغير ايجابي دائم، اما اللااستقرار السلبي فهو من نتائج الحروب وأساليب العنف الاسلحة التدميرية الاكثر فاعلية في قتل البشر.. مما يجعل الحياة بكاملها غير مستقرة.

نعم.. صحيح ان: (الفضيلة نقيض الحظ، نقيض الفساد لكن ارادة الحظ والفساد) تمتلكان قوة وهيمنة تتجاوز كل ما تمتلكه الفضيلة من قيم وابعاد سلمية. لذلك نجد الفضيلة تنسحب امام قوة وجذب واغراء وقسوة المدى الذي يجيء به الحظ، ويتجمل به الفساد مظهرياً...

أما التحضر والعيش في ظل قوانين يعمل بها الجميع فقد باتت مدعاة للسخرية والبدائية وبات التمرد سمة العصر! وبات (العصر الذهبي ليس خلفنا.. بل أمامنا ـ كما يقول هنري دي سان سيمون، مجرد مقولة طيبة مات أثرها.. في زمن انكسرت وتحطمت كل قيمه!) ولم تعد عبارة سبنسر ومن ثم ماركس (ان الشر قسوة الانسان ووحشيته ما هي الا مخلفات العيوب الاجتماعية السابقة، فالانسانية مثل قميص من القماش المتغضن الذي تختفي عيوبه إلى الابد بتمرير مكواة الحضارة الحديثة عليه) ذلك ان العيوب لم تعد تدهش احد ولم يعد ينظر اليها كعيوب أصلاً، حتى انه لم تعد هناك حاجة لأخفاء تلك العيوب فقد تحولت

المكواة إلى اداة مهمة أكثر قدرة على الاشعال منها على اخفاء تجاعيد القميص البالي..!

وراح، هوجو، وجوتييه يسخران من (فكرة التقدم.. لان المجتمعات والحضارات لها فترة عمرية ووظيفية محددة مثل الجهاز البيولوجي ووظائف اعضائه) وهذا يعني ان هذه الفكرة تحتاج الى الاستبدال في استيعاب مفهومها، وان كل شيء في مثل هذه الحالة يمكن ان يأخذ بعداً أخر في وعي وأدراك معنى التقدم.

من هنا كانت ظاهرة (سقوط الحضارة... الاكثر وضوحاً والاكثر غموضاً في الوقت نفسه بين كل ظواهر التاريخ وأي تجمع بشري مهما كانت براعة شبكة العلاقات الاجتماعية التي تحميه يحصل يوم مولده بذرة الموت الحتمي فجأة في عناصر حياته).

ـ كما يقول آرثر جوبينو ـ ذلك ان الحضارة تخضع لمتغيرات الزمان والمكان على الرغم من القدرية النهائية التي تحكم البشرية بالموت.. الأمر الذي سيؤدي بالعالم مستقبلاً إلى ان يكون (عالم ثراء مادي وجدب روحي). إزاء ذلك لابد ان نتساءل: أين تقف نظرية داروِن التي تؤكد على (ان جميع الاجناس بما ذلك الانسان تتطور من خلال الانتخاب الطبيعي، البقاء للاصلح طبقاً لقدرته على التكيف مع البيئة).

لكننا لو راجعنا ما ذهب اليه: توماس هيكسلي ـ تلميذ داروِن ـ القائل (من الخطأ ان نتصور ان التطور يمكن ان يكون تقهقراً كما يمكن ان يكون تقدماً للأمام) والواقع ان الطبيعة وحدها قادرة على ايجاد مثل هذه المتغيرات المختلفة / المتباينة، وهي التي تؤكد حتميتها سلباً وايجاباً. وليس من المنطقي ان نصدق فيما ذهب أليه: لومبروز، من ان (الانسان الهمجي او البدائي لا يشعر بالالم)

وهو يروي قصة رجال القبائل الأفارقة ـ يلاحظ هذا التحديد ـ الذين رأوا الاحذية لأول مرة، فقطعوا أصابع ارجلهم لكي تكون على قياسهم! ويضيف لومبروزو، ان مثل هذا الانسان لديه ميل للأنتقام والكسل والخيانة وأن (للمجرم ذكاء منخفضاً.. واللصوص انوفهم ملوية او فطساء (مثل الزنوج) بينما انوف القتلة مستقيمة ومعقوفة (مثل منقار الجوارح) والسفاحون والمغتصبون حواجبهم كثة، بينما يتميز المزور او المزيف بعينين صغيرتين وانف كبير...) كما يبدو فان لومبروزو يحاول ان يرسم الأفارقة والبلدان الفقيرة على انها مصدر القتل والجريمة والغفلة والمرض والجهل دون ان يضع في تفكيره الاسباب التي ادت إلى الفقر والجهل وحتى إلى الجريمة ـ ان وجدت ـ مع ان الجريمة تحدث في بلدان غنية كثيرة دون ان يشير اليها لومبروزو ودون ان نجد المؤلف في موقع مناقشة لأراء لومبروزو، وقد تولى عرضها فحسب!

لكن المؤلف وهو يتحدث عن الرواية البوليسية المرعبة، مشيراً إلى (دكتور جيكل ومستر هايد) للكاتب روبرت لويس ستيفنسون التي تقدم (الأزدواجية التطورية للأنسان الحديث، الذات المتحضرة المفيدة اجتماعياً (دكتور جيكل) الذي يواجه فجأة ذاته المرتدة للأسلاف (مستر هايد)، الملامح القردية لمستر (هايد) التي رسمها لومبوزو والأيدي كثيفة الشعر والميول البربرية، كلها تميزت كشخصية مرعبة) ان لومبروزو يحدد البربرية والجريمة مقرونة بالشعوب الفقيرة، وكأنها التي أوجدت لنفسها هذا الواقع ورضيت به وليست القوى الاستعمارية والأرهابية التي واجهت مقاومة الناس العزل بأسلحة الدمار الشامل. ومثل لومبروزو، يرى: ماركوس جار في أنه: (سيكون يوماً مرعباً يوم يجرد السود سيوفهم لكي يقاتلوا، من اجل حريتهم.. وهو آت.. يوم حرب الأجناس) في وقت هناك رؤية لـ (عصر مذهب) يعلن عنه هيكل بقوله (ان

امريكا هي أرض المستقبل، حيث سيكشف عبء تاريخ العالم عـــن نفســه فــي العصور الممتدة أمامنا) اذن هناك تخطيط مسبق واهداف ستراتيجية مدروســة. تقضي بأغفال الحياة عن مستقبل السود، والعمل على جعـــل (العصـــر الذهبـــي) عصرا امريكيا.!! ولم يعد اعتقاد دوبوا القائل (ان الاستعمار قـــد فضـــح القلـــب المظلم للرجل الاوربي): ذلك ان سبنجلر في (أفول الغرب) راح ينظر إلى عهد مــا بعد الأستعمار وما بعد الغربي كونه (عودة إلى ثقافة حية) دون ان يحـــدد معـــالم هذه الثقافة، وطبيعة الحياة التي تنشدها للعالم.. بينما كان روبوا قد اوضح فـــي كتابه (العالم وافريقيا) ان تفسخ اوربا كـــان هـــو النتـــاج المباشـــر للأمبرياليـــة والسيطرة الاستعمارية، ومستبقاً منظرين آخرين مثل ادوارد سعيد. كـــان دوبـــوا يؤكد ان الموروث الكامل لثقافة مهذبة، قد تطور ليخفـــي ســـوءات الأمبرياليـــة، منتجاً أدباً يحاول ان يتوازن ويتناول المشكلات الثقافية للأغنياء وأبناء الأصـــول، ويهمل المشكلات الأخطر، المتعلقة بالقانون والرحمة والعدالة الحقيقية..) وهكـــذا تظهر الثقافة الأوربية بمظهرين، أحدهما زاد، مشرق ومعلن، وآخر بشع، منهار، ممزق يكمن في الخفاء..! وإذا كان آرثر هيرمان يدرك أن (كل حضارة.. تحقـــق ثقافة بعينها، وهي شيء يفور ويتنفس ويزدهر، وكل ثقافة لها امكانياتها الخاصة الجديدة للتعبير عن الذات تنبثق وتنضج وتنحل ولا تعود. ؟ل منها تكرس ثقلـــها وقيمها من اجل اشياء للزمان، للمكان الشيء الوحيد الذي له معنى جوهري هـــو قوة الحياة ومنطقها العضوي) فهل يعني هذا ان الثقافة مشروع معد للموت لانـــها بلا هدف وهي حصر بالزمان والمكان..؟ اذن لماذا نقرأ ثقافات الشعوب الأخـــرى التي تعود لأنها بلا هدف وهي حصر بالزمان والمكان.. ؟ إذن لماذا نقرأ ثقافـــات الشعوب الاخرى التي تعود لأشخاص ولأزمنة مختلفة؟ ان الثقافة مشروع وعـــي ممتد من زمان ومكان وذات.. لكنه مشروع يأخذ أفقاً في الوقت نفسه ومن هـــذا

المشروع الحي، يستمر حوار الثقافات والحضارات... من هنا تتأكد صحة ما اعلنه توينبي (يجب ان ننظر للتاريخ بعيون جديدة) على الرغم من غفلته للحضارة الافريقية ـ وان ندم على ذلك بعدئذ ـ وتحديده بقاء خمس حضارات هي: الهندية، الاسلامية، الصينية، المسيحية، الغربية، والتي كان من الممكن لهذه الحضارات ان تبقى وتتعايش مع بعضها، الا أن (الروح العسكرية روح انتحارية، وهي زيغ وانحراف في المجتمعات المتقدمة، وقد أصبحت أهم أسباب سقوط الحضارات إلى حد بعيد) ـ كما يقول توينبي ـ مذكراً بالحرب العالمية العظمى.. وعلى وفق هذا الفهم، هاجم توينبي التوسع الغربي وعدد: محاولة لصرف الأهتمام بعيداً عن التآكل الداخلي للمجتمع) كما رسم صورة للحضارة (عندما تعمل كأشعاع لقوة تدميرية) كما يعبر مرحلة الانحلال الحضاري بقوله (إما أن تتخلى عن طموحاتها الامبراطورية وتغامر بالأنهيار الداخلي الكامل والثورة من الطبقة الدنيا، او ان تحول نفسها إلى دولة عالمية) موضحاً: (ان الدولة العالمية مثل روما الأمبراطورية تمثل المرحلة الأهم في عملية الأضمحلال) وذلك من خلال فسادها بالثروات السهلة، والتفسخ الاخلاقي والأنحراف... والفن المنحط، واللغة المتدهورة وانتشار السحر والشعوذة والتلفيق في المسائل الروحية المقدسة، وقد توصل توينبي إلى حقيقة (ان تكون الولايات المتحدة و(اسرائيل) اليوم هما أخطر دولتين بين المائة وخمس وعشرين دولة التي تقتسم سطح هذا الكوكب الآن) ورأى توينبي ان (الانتصار الاسرائيلي) العسكري و(التفوق الامريكي) كان من نتائجه المزيد من التفسخ الاخلاقي. ولو خسرا لأحتفظا بقدر من المعطى الروحي الذي لا يتجه لتعميم البشر.. وصار من أسوأ ملامح الحضارة الغربية ـ كونها ـ تنطلق من جذور يهودية (الآثار الحضرية لحضارة ميتة). وهو ما نتبينه بوضوح في حاضرنا الراهن.. وهكذا.. نجد (الفود

في الثقافة الغربية، يصبح تابعاً تماماً للكل المسيطر، انه لا يتنازل عن حريته السياسة فقط للدولة، وانما يفقد كل قوى العمل المستقل والتفكير المستقل. مرض الحضارة الغربية، يقود الروح نحو ظلام مطبق) كما يقول آرثر هيرمان. ومثل هذه الثقافة تصبح عاجزة عن الابداع والذهنية التي تمتلك افقها المستقل، وأنما تتمحور في دائرة موجهة ومحكومة باهداف ليس من السهل الخروج منها.. من هنا بات (الرعب والحضارة متلازمين) في الثقافة الغربية كما يقول أدورنو ويصبح من نتائج هذه (الثقافة):

- صناعة الفرد الوهم
- التكرار الاعمى
- عدم ترك مجال للخيال او التفكير
- التلفزيون الساخر
- العقل التكنولوجي في حالة انتصار على الحقيقة

من هنا ندرك ان الق د. هـ . لورنس قائم على العنف العدواني، والكسندر كوجييف على بناء الضرورة بالمزيد من سفك الدماء.. وانِ (التاريخ ميدان للفعل وليس للتأمل)! وصار بمقدور سارتر ان يعد الانسان بوصفه (محكوم عليه بالحرية) او بحسب بيكيت (ينتظر ميتافيزيقيا الوجود) وان جنون الانسان على وفق رأي فوكو (نوع من الحرية) واصبح (الميل للعنف والعراك كفعل مضاد للقلق الثقافي) و (ايمان امريكا الطويل بالتقدم، اصبح نفوذاً قاتلاً.. يخفي عجز الفرد والظلم الاجتماعي والاقتصادي الشديد في الحياة الامريكية واخذ التاريخ الامريكي يقدم نظرة انتهازية اكثر منها واقعية للمجتمع الصناعي) كما يقول كوزول... كما يذهب فرانز فانون إلى ان (الولايات المتحدة اصبحت وحشا شديد البشاعة والتشوه نمت فيه كل مفاسد وامراض ولا انسانية اوربا إلى ابعاد

مخفية) ان الثقافة الغربية وهي تشهد حالات انهيار النظام الاقتصادي على الرغم من المظهرية الباذخة التي يظهر بها يشكل اسقاطاً حاداً على المجتمع نفسه بالتكنولوجيا الاستهلاكية التي تجرد الانسان من العقل والروح. وتضعه في دائرة حروب متصلة... لابد ان تؤدي إلى نتائج سلبية من شأنها ان تصل في النهاية إلى مرحلة الانكماش والتضاؤل ومن ثم إلى الاضمحلال والتلاشي... خاصة وان الحفريات تكشف عن حضارات قديمة سادت واتسعت رقعتها، ثم انهارت وتلاشت واختفت من الوجود... بسبب اعتمادها على الهيمنة والعنف والارهاب وتذويب ثقافات وحضارات شعوب بأكملها... ان الحياة تعاش بأفكار وقيم وديانات وعادات مختلفة واختلافها يعني حضورها... وحضورها يمثل المعطى الذي يجعلها في حالة حوار حي وفعال مستمر مع بعضها...

بحث في إرادة القتل والتزييف!

الكتابة عن الصهيونية، كتابة لا تتوقف.. فهي فضلاً عن موضوعها الساخن وإثارتها الكثير من الأشكالات والجدل وحسم المواقف؛ تبقى قضية سياسية وفكرية عميقة الجذور.

ومع أن الكثير من الموضوعات يمكن الكتابة عنها بأشكال ورؤى ومواقف مختلفة، الا أن الصهيونية تظل قضية جديرة بالمناقشة، نظراً لما تشكله من أبعاد محلية وعربية ودولية.

وقد تنبهت الباحثة العراقية بديعة أمين إلى هذه المسألة وانصرفت كلياً إلى دراستها دراسة متأنية وعميقة ونظرت اليها من جوانب مختلفة.

وكان أول كتبها في هذا الميدان قد صدر عام ١٩٧٤ في بيروت بعنوان: "المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية" وتواصلت في كتب لاحقة هي: الصهيونية ليست حركة قومية /٧٨، في نقد فكر التسوية /٧٩، هل ينبغي إحراق كافكا؟ /٨٣، الأسس الأيديولوجية للأدب الصهيوني /جزءان/ ٨٩.

إلى جانب إنشغالاتها فى الترجمة وكتابة القصة والمقالة النقدية الأدبية والفنية. لكنها آثرت أن تبقى في حقل تخصص عرفت به، وعدت من أبرز وأنشط العاملين فيه.. فكان كتابها الصادر حديثاً بعنوان: "الجذور التوراتية للعنصرية

الصهيونية"* وتشير الباحثة منذ الصفحات الأولى فى كتابها إلى أنــــها اعتمــدت العهد القديم أو التوراة التي ألفها الحاخامات ابان الألف الأولى ق. م ولا علاقـــة لها بالكتاب المنزل. وهذا التنويه الذي أوردته يتطلب مناقشة ما طرأ على التــوراة الكتاب المقدس، حتى يتبين القارىء منذ البداية طبيعة التشويه والتزييف الــذي إعتمدد الحاخامات لغرض تنفيذ مأربهم وأورد الحقائق وصدق الكتب الســـماوية ومنها التوراة وما جرى من إفتراء على المنجز الصادق..

وتضيف بديعة امين: "أكدت التنقيبات الآثارية القديمة منـــها والحديثــة أن الكثير من الروايات التوراتية مستمد من آداب وأساطير ما بين الرافديـــن ووادي النيل وما أبدعه الكنعانيون".

وتعد هذه الطريقة في البحث مجرد تعميمات كان لابد أن توثـــق جوانــب منها على الأقل، ليتسنى للمتلقي التماس معها مباشرة.. في وقت توضح فيه إلـــى أن الحاخامات: "كتبوا التوراة بالشكل الذي يرضى رغباتهم المرضيـــة وأمانيـــهم المعطلة ليؤسسوا لأيديولوجية دينية عرقية ـ سياسية تستهدف تحقيق مطامعـــهم الأقليمية، والتأسيس لاهوتيا لما كانوا يظنون أنه الأساس الشـــرعي للأســتيلاء على أرض الآخرين.."

وهذه بديهة في أية إضافة أو تشويه، حيث تستهدف غرضا..

أما إيراد كلمة (يظنون) كما وردت آنفاً فتعني هنا (الشـــك) وهــذا يعنـــي بحثهم عن الحقيقة وليس التشويه.. وهذا ما لا تريد الباحثة الوصول إليه، الأمــر الذي كان يتطلب الدقة في إنتقاء المفردات.

وفي إشاراتها إلى التجاوزات "اللا اخلاقية واللا إنسانية" للكتاب المقــدس، فأن الأمر كان بحاجة إلى ما يدعم ويعزز ويوثق تلك التجاوزات حتى نتبين طبيعة العبث الذي الصق بالتوراة المنزل من أجل أن يكون كتاباً يخدم الضلالة..

حتى إذا علمنا بعدئذ بطرد الاقوام المتعاقبة مـــن (الحوييـــن والكنعـــانيين

والحيثين) شيناً فشيناً لئلا تصبح الأرض خربة، أدركنا أن الصهيونية كانت ترسم لطرد ابناء فلسطين من أرضهم على وفق هذه الصورة وهذا المخطط الموغل في القدم.

وليس خافياً على أحد طبيعة العلاقة بين أمريكا والكيان الصهيوني، كما كشفت الكثير من حقائق حرب ١٩٤٨ كيف كان الصهاينة يستعدون للحرب مع العرب بالعدة الآلية والبشرية بنسبة (١:٣) كما تشير الباحثة.. وكيف أن الصهاينة يذيبون خلافاتهم مهما كانت متناقضة، عندما يواجهون عدواً مشتركاً يتمثل بالعرب.. في حين نجد العرب والفلسطينيون أنفسهم تتسع خلافاتهم في أصعب المواقف وادقها! وتوضح الباحثة أهداف (اسرائيل) والعمل على تحويلها إلى: "دولة دينية (ثيوقراطية) أي يهودية خالصة لا مكان فيها لغير اليهود، مع ضرورة إلغاء الصفة العلمانية (المدعاة) لهذا الكيان.. ولغرض تحقيق هذه الدولة (الثيوقراطية) على أكمل وجه، ينبغي إبعاد العرب كلياً عن أرضها. لقد رفعت هذه الحركة ـ الصهيونية الجديدة ـ شعاراً يتمثل في عد اليهودية (حركة وطنية ودينية) في آن واحد".

وهذا يعني أنه ليس هناك فاصل قائم بين العنصرية / الصهيونية، واليهودية/ هدفاً سياسياً وثيوقراطياً في الوقت نفسه، على العكس من الدعوة التي تقول بهذا العزل والنظر إلى اليهود / أصحاب كتاب ديني، والصهاينة/ دعوة سياسية عنصرية.. بينما هما يصبان في هدف واحد هو إقامة كيان (مستقل) على أرض فلسطينية لا يملكونها، وإنما قاموا باحتلالها قسراً.

ومن المعتقدات التي باتت سائدة لدى الصهاينة:

"المثياق المزعوم الذي قطعه الرب التوراتي مع ابراهيم ونسله من بعده، باعطائه أرض فلسطين، وما يرتبط بذلك من دعوات وسنن وهمية ومنها مقولة (شعب الله المختار) و(العودة) و(التفوق العرقي) و(وحدة الأنتماء القومي)".

وكنا نأمل أن تناقش الباحثة هذه الطروحات الوهمية وتفند ما ورد فيـــها.. ضمن واقع مادي وتحليل علمي ودقة موضوعية.. حتى لا تظل الخديعة وجهاً من وجود التشويه العدواني.

كما أن تبني الصهاينة لشعار مضلل مثل: "أرض بلا شـــعب، لشـــعب بـــلا وطن" معتمدين بذلك على اسلوبين هما:

"إفراغ فلسطين من سكانها للبرهنة على صحة الشعار أعلاه، والحط مـــن الأنسان العربي الفلسطيني وتشويه صورته واظهاره بصــــورة مـــن لا يســـتحق الحياة بوصفه كياناً متخلفاً تترسب في أعماقه عناصر الشر والمرض والجريمـــة واللصوصية..".

وما ورد يتلاءم وينسجم مع طبيعة اليهود الصهاينة تحديداً وليس من أحـد سواهم.. فهم مجموعات متناثرة، غير مرغوب فيها في كل بلدان العالم على مـــر التاريخ، كما عرفوا بطبيعتهم الشريرة وخديعتهم النكراء وبحثهم عن المال مـــهما كانت السبل والنتائج. ومادامت بديعة أمين قد تناولت هذا الجانب، فـــأن الأبـــواب أمامها كانت مشرعة لمزيد من الامثلة والوقائع الدالة على الجرائم التي إقترفـــها اليهود في العالم كله.. حتى إذا تجمعوا في أرض لا يملكونها، بـــاتوا يغتصبـــون ليس الأرض حسب، وإنما الحقائق كلها والوجود المثمر للأنسانية أينمـــا دانـــت قطوفه!

حتى أن: "كلمتي يهودي وتجارة يبدوان مترادفين" ــ كما تقول الباحثة.

وترى بديعة أمين المدة التي سبقت ما يسمى بـــ (السبي البـــابلي) يشـــير إلى:"رفض اليهود، إلا قلة منهم العودة إلى فلسطين بعد أن سمح لـــهم كـــورش بذلك بعد إنهيار الأمبراطورية البابلية، مفضلين البقاء في بابل بعـــد أن إندمجـــوا ثقافياً واقتصادياً بالمجتمع البابلي".

ونحن نعتقد أن اليهود لم يندمجوا في أي مجتمـــع عاشـــوا معـــه. لذلـــك

رفضتهم مجتمعات كثيرة في العالم. كذلك لا تحمل طبيعة اليهودي إلا المنفعة والأنانية وليس بوسعهم العيش في إمبراطورية منهارة لا يكسبون منها المال الذي جبلوا على جمعه؟!

وتنسب الباحثة إستنادا إلى عدة مصادر: ان عشرة من مواعظ موسى الواردة فيما يسمى كتاب الوصايا، ليست إلا أشكالا منفتحة لمجموعة قوانين حمورابي" وأن سرجون الاكدي، كان قد وضع في سلة والقي في النهر وقد إنتشله (اكي) ناقل الماء ثم عينه بستانيا ومنحته عشتار حبها.. ثم أصبح ملكاً..

والواقع أن الكثير من الوصايا والمواعظ والقيم الأخلاقية وحتى القصص الدينية تلتقي عندها الكثير من الاديان وتلتزم بها العديد من الطوائف، وهذا يعني أن الأنسان وجود متواصل، وظاهرة متطورة وفاعلة..

ومثلما "لا تستطيع اسرانيل أن تدعي أنها كانت أول من توصل إلى فكرة الأله الواحد فقد سبقها إلى ذلك اخناتون.. وتقول احدى النظريات المتعلقة بهذا الأمر أن موسى إستقى فكرة وحدانية الرب من هذا المصدر".

لكنها تعود لاحقاً لتشير إلى أن: "اليهودية تعد الرب إلهاً خاصاً بقوم بني أسرانيل، وليس هو إله الكون كله كما فعل اخناتون.."

ومثل هذا الحديث يحتاج الى مناقشة من زاويتين:

١. من هو الأله الواحد. هل هو نفسه الاله الذي آمن به اخناتون واليهود معاً. هل هو الله تعالى، ام إله سواه؟

٢. إذا كان اليهود قد إعتقدوا بأله خاص بهم، فما هي العلاقة التي تربطهم بأله اخناتون.. أم أن صفة التوحيد (الرياضية) هي وجه التوحد بينهما؟

وتنقل الباحثة عن كتبة التوراة قولهم: "إن الارض هي ملك للذي سلبها" وهذا يعني الاعتراف بوضوح بعملية (السلب) والسلب شريعة الغاب، وهيمنة

الاستعمار، وإرادة العدوان.. فأين الدين ـ أي دين ـ من مشروعية السلب والأغتصاب والهيمنة والعدوان.. وكيف يمكن لـ "العالم أن يصبح حرا بتحريرنا، غنياً بغنانا، وعظيماً بعظمتنا" كما تدعي "الأنسانية العبرية"؟

وهل يمكن قياس الحرية بحرية الآخر، وبغناه، وعظمته.. ألم تدل صفحات التاريخ في عصور مختلفة الى أن السادة الاحرار هم الذين يستعبدون سواهم ويسودون عليهم، ألم يكن الغنى والجاه على حساب فقر وسلب حق الآخرين، ألم تقم العظمة والفخامة على اشلاء بسطاء الناس..؟

فأي منطق تقوم عليه "الأنسانية العبرية"؟!

وتنتقل بديعة أمين الى مناقشة مسألة السلالة المنتقاة من خلال ثلاثة نماذج هي:

١. إن ابراهيم الذي بلغ التاسعة والتسعين من العمر، وامرأته سارة إبنة التسعين عاماً، تدب الحياة من جديد في دمهما فينجبان ويصحبان أمة بعدد نجوم السماء.
٢. كان هتلر يعتقد أن سيصل الى (٢٥٠) مليون نسمة بعد مائة عام، فالفلاح إذن هو ملح الإرض والأمل الرئيس للرايخ الثالث، والدولة الالمانية الجديدة التي تستند أساساً الى العرق.
٣. مثلها مثل العنصرية العرقية التوراتية.

الباحثة إذن وحّدت بين التوجهات العرقية، في حين نجد أن ابراهيم وسارة كانا حالة استثنائية في الأنجاب، وهتلر بحث عن نخبة إنتقائية، أما اليهود فهم قوم توحدهم عنصرية عرقية ودينية بنيت على أساس خاطيء خداع كونهم (شعب الله المختار) دون أن يتوقفوا عند الأسباب التي تكمن وراء هذا الاختيار من قبل الاله الواحد لبشرية هي جمعاء من صنع إرادته.. فكيف يمكن له أن يختار ويصطفي شعباً من شعوب الأرض دون سواه؟

ومن زاوية اخرى تشير الباحثة الى أن (هرتزل) كان يدعو اغنياء اليهود الى شراء الارض في فلسطين، والى تشجيع فقراء السكان على النزوح وايجاد عمل لهم في أماكن أخرى.. كما تنقل عن (جابوتنسكي) دعوته الى (الدم اليهودي النقي) وكأنما دماء البشرية ـ غير اليهودية ـ ملوثة وغير جديرة بالحياة!

و(جابوتنسكي) هذا هو الذي اعلن منذ عام ١٩٢٣ عن: "ضرورة طرد العرب بالرضى أو بالقوة" وهو القائل في كتابه (جدار الفولاذ): "لا يمكن أن يكون هناك مجال لمصالحة إرادية بيننا وبين العرب، لا الآن ولا في المستقبل المنظور. لقد فهم كل إنسان حسن النيّة باستثناء العميان بالولادة، الأستجالة الكاملة في التوصل الى إتفاق إرادي مع العرب في فلسطين، يقضي بتحويلها مع بلد عربي الى دولة ذات غالبية يهودية..".

إن جابوتنسكي في قوله العدواني والعنصري يفترض (حسن النية) في وقت يعد حسن نيّته هذه بديهة لا يجهلها إلا العميان ليس بفعل حادث او مرض وإنما بالولادة.. إذن حسن النية، اصبحت فرضية مغلوطة ومدانة ومقصودة لأنها تملي شرطها وتلزم إرادتها.

كذلك نجده يعترف ضمناً أن فلسطين بلد عربي، وأن الأمر يقتضي السيطرة عليه وتحويله الى بلد لليهود.. فما هو وجه الحق والعدل الذي يستند عليه في دعواه هذه؟ وتكشف الباحثة حقيقة: "النجمة السداسية الزرقاء التي تتوسط الصلاة اليهودي (الطاليت)" إنطلاقاً من موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية والتي نقرأ فيها: "إن نجمة داود وجدت مرسومة على بعض المعابد اليهودية في القرن الثالث.. إلا أن أصلها غامض للغاية، إذ لا توجد اليها إشارة في التوراة ولا في التلمود، وسبق أن وجدت في المعابد الرومانية ثم في الكنائس المسيحية، وأن هذا الرمز ظهر في باديء الأمر في الكتابات السحرية والصوفية اليهودية، وأنها استخدمت كشعار لليهود ابان القرن السادس عشر وظهرت على

درع عائلة روتشيلد بعد أن رفع الى درجة نبيل، ثم إتخذتها الصهيونية شعاراً لها ابان القرن التاسع عشر".

وهذه المعلومات تؤكد مدى الايغال في تشويه الحقائق وكيفية توظيف التضليل في موقع الحقيقة التي يسعى اليهود لقمعها واغتيال كل ماله تماس بالحق والعدل! وامعاناً في الصورة كما يراها اليهود تشير الباحثة الى العهد القديم او التلمود الذي: "لا يعد الإغيار من البشر، إذ أن اليهود وحدهم من البشر، اما (الأجنبي) فقد خلقه الله على هيئة إنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود".

على وفق هذا التصور، كيف يمكن التعامل مع اليهود، وكيف يمكن لـ (الاعلى) الجلوس مع (الأدنى) واجراء جوار معه؟

إذا عرفنا هذه الحقيقة.. ومن خلال العدو العنصري المحتل نفسه.. كيف لنا القبول بالادنى والأعلى وبأي شكل من الأشكال.. وكيف يمكن لنا التعامل مع صورة مقلوبة أصلاً.. والتعامل معها على العكس من ذلك؟

إن (المشنا / مجموعة الشرائع اليهودية الشفوية) تشير الى أن: "الارض كلها ميراث لأسرائيل.. شعبك كله صالح.. إنهم سيرثون الأرض الى الابد"

وقولهم: "الأنسان لا يستفيد من شيء تحت الشمس، ولكنه يستفيد مما وجد قبل وجود الشمس ـ من التوراة" ذلك أن: "العالم كله خلق من أجل هذا.. يعني التوراة"!

وفي نظرهم عن الاسلام والمسلمين يقول عزرائيل كارليخ ـ رئيس تحرير صحيفة معاريف سابقاً: "الأسلام عدو كل تفكير مثمر، وكل زمام مبادرة طيب القلب، وكل فكرة منتجة، إنه ما قدم قط أي صنيع في الماضي، ولن يقدم أي جميل في المستقبل، إنه الظلام، إنه الرجعية، إنه السجن لخمسمئة مليون إنسان"!

ويقول أدير كوهين / المحاضر في جامعة حيفا: "إن العربي قاتل، محرم، خاطف أولاد.. يعيش في الصحراء، ذو سحنة مخيفة، في وجهه ندبة، قذر ونتن

وتنبعث منه رائحة كريهة، له شعر أخضر، وأن العرب لهم ذيول.. لاحــق لــهم بالأرض، ينبغي قتلهم أو شــنقهم أو ترحيلــهم.. عليــهم أن يسـلموا بسـيادة اسرائيل.."

جاء ذلك في بحث احصائي نشر عام ١٩٨٥.

إزاء هذه النظرات والرؤى العدوانية التي تسعى جاهدة الى تحقيق مرجعية دينية زائفة تتخذ من التوراة سبيلا من سبل التضليل التاريخي.. كيف يمكن إقامـة حوار مع هذا التوجه العنصري الصهيوني التضليلي.. وهو الممتد الى الجذور في إغتيال الحقائق؟ إن كتاب: "الجذور التوراتية• للعنصرية الصهيونية" لبديعة اميـن، يكشف عن حقائق موضوعية، وصفحات مطوية، ويعطي مؤشرات واضحة الدلالة لعمق الفواصل بين مجتمع عنصري صهيوني يتخذ من اليهودية عمقـا جذريـا، وبين مجتمع عربي فلسطيني سلبت منه أرضه وشوه تـاريخ وجـوده وأصالـة إنتمائه الى أرض أغتصبت منه وبقيت فيها دماء ابنائه مزهرة دالة على حقـائق الحياة وجذرها التاريخي العميق بضوء صفحاته.

• الجذور التوراتية للعنصرية الصهيونية / بديعة أمين.

إصدار: دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد/٢٠٠٢/ ٢٤٤ ص. ك.

جدلية توازن المصالح!

هل للحرب منطق حديث يتجه ليأخذ مفهوم النظرية؟

وهل يمكن أن يكون للقوى إرادة إتخاذ موازين عادلـــة تعـــزز بـــها هـــذه القوى؟

المؤرخ العربي: إبن خلدون ربط الحروب "بمبـــدأ العصبيـــة ثـــم بصـــراع العصبيات وصولا الى اطوار الملك"[1]

أما توازن القوى فلا يخرج عن إطار "سياسة تهدف الـــى الحيلولـــة دون الأخلال بالوضع الدولي الراهن، وهي تقوم على أساس مساندة الدولة الثانية مـــن حيث القوة العسكرية ضد الدولة الأولى، إذا سمحت هذه الدولة الأخيرة لنفســـها بمحاولة الأخلال بالتوازن القائم والوضع الراهن.."[2]

ويجيء كتاب: (الحروب وتوازن القوى)[3] للكاتب العربي الليبي الدكتـــور أبراهيم أبو خزام ليقدم: "دراسة شاملة لنظرية توازن القوى وعلاقتـــها الجدليـــة بالحرب والسلام".

ومنذ البداية يشير الباحث الى أن كتابه هذا يعد إمتدادا لكتاب لـــه صـــادر تحت عنوان: (العرب وتوازن القوى في القرن الحادي والعشرين)

وهذه الأشارة تؤكد أن الباحث منشغل كليا بموضوعة توازن القوى، مما يجعل هذا الأنشغال دالة على التخصص وعمق الرؤية وشمولها وإتساع رقعتها وامتداد البحث بشأنها.

ومنذ الصفحات الاولى، يوضح د. ابو خزام الى أن: "تظرية (توازن المصالح).. حلت آليا محل (توازن القوى) "دون أن يعزز توضيحه بأسباب هذا الأنتقال، وما إذا كان العامل الأقتصادي هو السبب الأساس في هذا الأنتقال..

ولكنه يصل الى قناعة مفادها: "أن توازن القوى هو أحد القوانين الثابتة في العلاقات الدولية، وهو الصانع الرئيس للأستقرار والسلام، كما أنه المسؤول عن الحروب والكوارث".

ويقر الباحث بوجود تناقض في هذه المقولة.. الأمر الذي يجعله يرى أن: "من يتأمل التاريخ يستطيع أن يدرك أن هناك صيرورة ما للحرب والسلام تتكرر في التاريخ، وهي صيرورة مرتبطة في الحالتين بتوازن القوى وأشكاله المختلفة" إلا أن هذا الكلام فيه قدر كبير من التعميم الذي لا يخلص الى برهان.. ولا يجعلنا نتفق مع تفاؤل الباحث ورؤيته في أن القرن الواحد والعشرين: "قرن سيشهد مع بداياته تشكل توازن القوى القادم" بدليل أن هذا القرن قد أفتتح بتعنت الاتحاد السوفييتي وظهور قوة عالمية أحادية القطب تدعو الى (نظام عالمي جديد) ومن ثم الى (عولمة) الشعوب وصولا الى النظر الى كل شعب او دولة تختلف مع هذه الدعوة على أنها (إرهابية) ويجب مواجهتها بـ (حرب وقائية)! حتى يأخذ شكل هذه الدولة (امريكا) هو الشكل الجدير بالحياة، وما يخالفه يعد عدوا لدودا ينبغي التخلص منه بطرق شتى!

وينقل د. ابو خزام رأي (كلا وزفتز) القائل: "إن الحرب نشاط إجتماعي" وأنها: "شأن من شؤون الدولة، فهي عنف منظم تشنه الدولة لمصلحة الدولة

وضد الدولة، وهي نشاط تدفع ثمنه الشعوب أنهارا من الدم وبحور من الدموع والأحزان وكم هائل من القتلى والشهداء والثكلى والأرامل والأيتام، وأكداس من المال يجري صرفها دون حساب.."

إلا أننا لابد أن نقف عند مفهوم الحرب، كونها أداة لا تعرف التحضر، بل هي أسلوب سلبي من اساليب هدم الحوار، وقمع الرأي، والأستئثار بالقوة ضد قوة أخرى.. وفي الغالب لا تقوم هذه القوة على النظام أو القيم أو الحسابات الأنسانية الصادقة والوعي الحميد والتوجه الصالح..

وفي الغالب نجد رواد الحروب، معنيون بالأثرة والهيمنة والغرور وجنون العظمة. ويشير د. ابو خزام: "إن كبار الساسة ورجال الدولة يعدون الحرب لعبتهم المفضلة، فقد كان (تيودور روزفلت) لا يعشق شيء بقدر حبه لمعركة مثيرة، أما (ونستون تشرشل) فقد كتب عشية الحرب العالمية الأولى رسالة الى إحدى صديقاته يصف لها.. كم هو منفعل متحمس ويشعر بالأثارة إزاء هذه الحرب، وفي عام ١٩٤٥ شعر مع قرب إنتهاء الحرب العالمية الثانية وكأنه مقدم على الأنتحار، وقد كتب (جورج باتون) مرة في يومياته يصف كم يحب الحرب".

الحرب عند هذا النموذج إذن.. نوع من أنواع النزهة والراحة والابتهاج..

وهذا يعني أن الدم والقتل والموت والعنف.. إرادة وحشية قد تستأثر بأهتمام ورعاية بعض (البشر)!!

وتذكر صفحات التاريخ الى أن الكثير من الحروب قد وقعت وهدرت فيها الأرواح لأسباب جد واهية.. مما يجعلنا ندرك أن الحروب لا منطق لها، وأنها تعيدنا الى شريعة الغاب تارة، والى شهوة القتل التي قد ترضي القتلة الذين لا تعرف نفوسهم الرحمة والشفقة أبدا..

ولا يمكن أن نرجع الحروب الى الوعي الديمقراطي، بل الى طراز معين يتخذ من هذا المفهوم البراق سبيلا لشن الحروب..

فـ "الديمقراطية الامريكية في سبيل المثال هي التي أشعلت الحرب في فيتنام وهي سبب معاناة الشرق الأوسط وهي التي تفجر المذابح في أفريقيا وهي التي حرضت على حروب البلقان وصنعت مجازر الناس والتصفيات العرقية في كل مكان، وهي التي ستقود عالم الغد، إذا إنعقد لها اللواء، نحو المجاهل المظلمة" ــ كما يوضح تشومسكي جرائم هذه الديمقراطية في كتابيه (قراصنة واباطرة) و (وردع الديمقراطية) والتي يرجع إليها د. ابو خزام ــ

إن الخطأ لا يكمن في الديمقراطية كأسلوب لحياة عادلة آمنة مستقرة، بل في كيفية إتخاذ هذا الأسلوب أو الفكرة الدالة والعميقة واستخدامها إستخدامات سلبية.. شأنها شأن من يتخذ من (الاشتراكية) او (الدين الحنيف) وسيلة لتنفيذ أغراض مضادة للقيم السامية التي تدعو اليها (الاشتراكية) أو (الدين الحنيف) أو (الحرية) أو سواها من الأفكار النيرة.

ويكشف الباحث حقيقة الجرائم التي إرتكبها دعاة زائفون لديمقراطية مزعومة فـ : "ترومان وليس هتلر هو من أمر بالقصف الذري، وديغان وليس بريجينيف هو من أمر ببرنامج حرب النجوم ونقل الحروب الى السماء، بعد أن ضاقت به الأرض على ما إتسعت.."

وفي الحاضر نجد (فوكوياما) يرى أن التاريخ قد توقف عند النموذج الديمقراطي العربي بوصفه "تعميم سيؤدي حتما الى عالم أكثر إستقرارا " لكن فوكاياما كما يشير د. ابو خزام يشير الى أن: "الحرب ليست دائما جهاد من أجل قضية عادلة، فالسلام والرخاء أيضا يولدان الملل.."

فهل نعد الحرب سبيلا يخرج أصحابه من حالة الملل، وينقلهم الى عالم

الفرج والأنشراح والبهجة والتسلية؟!

إن فوكوياما يعتقد بـ "غريزة الصراع الكامنة في اعماق الفرد" وأن الناس قد: "يجاهدون ضد القضية العادلة"

ومن هنا يتفق فوكوياما مع نظرية (هانتنغتون) القاضية بـ "صراع الحضارات" وليس الحوار والتطور من خلالها.. كما يعمم هذا الصراع اللا إنساني حتى في حالات السلم والعدل والقيم النبيلة!

وهذا يعني إننا كنا وسنبقى في عالم غير مستقر يبحث عن شتى السبل من أجل شن الحروب وتطوير الاسلحة حتى تسهم بقتل اكبر عدد ممكن من البشر!!

ومع أن الباحث يقف الى جانب (الفن توفلر) الذي يشير الى "أهمية المعرفة في تحقيق السلام.. كما أن الحروب اعتمدت على المعرفة" إلا أنه لا يقيد بكيفية ترجيح كفة المعرفة السلمية على المعرفة الحربية.. وامكانية أن تصب الأفكار في تحسين حياة البشر وعيشهم بسلام، بل هو يجد في الحروب الحديثة ما يسميه بـ "حروب الرفاهية، فقد تمت من قبل دول هي الأوفر حظا في درجات التقدم الأقتصادي، وعلى العكس، فأن موضوع هذه الحروب كأن الشعوب الفقيرة التي بدأت بالكاد تتلمس طريقها نحو النمو" ويضيف د. ابو خزام قائلا: "شاع في أدب الغرب وفكره السياسي تمجيد الحرب، فمجد (رودكيبلنغ) الاستعمار والحروب، وأثنى (هيجل) على الحرب التي بدونها يصبح الأنسان لين العريكة ومستغرقا في ذاته وسيتدهور المجتمع فيصبح مستدفعا لأشباع الملذات الانانية وتنحل الجماعة نتيجة ذلك، فعلى الدولة أن تفرض الخدمة العسكرية وأن تستمر في خوض الحروب".

وليس بوسعنا أن نطلق على قصص (كيبلنغ) (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦)/ الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٧ كونها "تمجد الحرب" ذلك أن قصصه

المترجمة الى العربية بعنوان: (حرب أصحاب)[٤] لا تحمل مثل هذا التوجه، بل هي على العكس من ذلك تدين الحروب، كذلك نجد في الكتب الجمالية والنظرية المثالية التي دعا إليها (هيجل) مناهضة للحروب.. ونعتقد أن القوى السياسية هي الأكثر ميلا نحو الحروب بهدف توسيع قاعدة نفوذها وبسطه على شكل امبراطوريات وعلى وفق شعارات زاهية كما تظهر راهنا بأسم نشر (الديمقراطية) و (العولمة) في وقت نجدها قمعية وأحادية وداعية الى صهر البشرية تحت لواء دولة امريكية امتلكت قوتها من دول أخرى عمدت على تفتيتها وشن الحروب عليها..!

وإذا كانت حالة التوازن تعني "الحالة المعتادة المستقرة.." كما يشير الباحث، إلا أن هذه الحالة ليست دائمة الى أمد زمني طويل، وإنما ترتبط بمرحلة مشروطة بالمصالح التي قد تطول أو تقصر، وقد تتحول الى خصومات وحروب، إذا ما تعرضت مصلحة أحد الطرفين للخطر أو الابتزاز من الطرف الآخر، أو الاطراف الأخرى..

وينقل الباحث رأي عدد من المفكرين ـ لم يحددهم ـ من أن: "توازن القوى غالبا ما يكون مدعاة لعدم الأستقرار ونشوب الحروب، وقد إستنتج هؤلاء أن الفترات التي نعمت فيها أوربا بالهدوء والأستقرار، هي فترات الهيمنة لبعض القوى الأوربية، أما الفترات التي شهدت توازن القوى، فقد إتسمت بعدم الأستقرار وكثرة الحروب".

والهيمنة بمعنى القوة، لا يمكن أن نعدها إستقرارا حقيقيا، لأن مثل هذا الأستقرار خاضع لعامل التهديد، وليس لمنطق السلام.. بدليل أن معظم الدول الأوربية التي قامت بعمليات استعمارية واحتلال للبلدان، واجهت العديد من الثورات وعمليات العنف الرافضة لتلك الهيمنة.

وليس بوسعنا تعريف توازن القوى على أنه "تظام العلاقات الدولية المبني على أساس فرضية أن حفظ السلام يشترط عدم رجحان كفة أو تحالف دولي على كفة الدول أو التحالفات الأخرى المقابلة".

إننا ننظر الى العلاقات الدولية بوصفها علاقات دبلوماسية، بينما توازن القوى يمثل تماثلا في القوى العسكرية او الاقتصادية واحيانا الأيديولوجية.. وقد تكون جميع هذه القوى مجتمعة..

أما ما أطلق عليه مصطلح (النظام العالمي الجديد) والذي ظهر بعد تفكيك الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج فهو كما يؤكد الباحث: "تبرير سياسات بعينها.. ولا يعكس من الناحية العلمية وجود نظام دولي بالمعنى المعروف، لكن هذا الاستخدام يخدم مصلحة سياسية واضحة للولايات المتحدة الأمريكية كطرف مهيمن على السياسة الدولية فهو محاولة للأيحاء بأن هذه الهيمنة منبثقة من شرعية دولية ارساها هذا النظام الدولي" والواقع انه لا يشكل مثل هذا النظام رؤية دولية شاملة، بل هو منظور دولة واحدة تفرض دعوتها بحكم ما تمتلكه من قوة وسلطة وهيمنة..

وفي تحليله غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان عام ١٩٧٩ يعتمد وجهة نظر الغرب القائلة أن هذا الغزو كان: "جزءا من استراتيجية توسعية" في ما يرى الباحث في هامشه: "أن الاتحاد السوفييتي غزا افغانستان بدافع الخوف وليس بدافع الطمع، فقد خشي الاتحاد السوفييتي قيام جمهورية اسلامية اخرى موالية لأمريكا" ــ معتمدا في هذا التحليل على د. بشرى القيسي وموسى مخول الوارد في كتابهما: (الحروب والازمات الاقليمية في القرن العشرين).

في حين تكشف الوقائع على أن افغانستان كانت خاضعة اصلا للنفوذ السوفييتي، وقد عمدت امريكا على تشجيع المتطرفين للتمرد على هذا النفوذ

سواء بتقديم السلاح اليهم أو بدعاوى فكرية زائفة.. وقد خسرت افغانستان في ولائها المتناقض.. ووجدت نفسها ضحية للسوفيت كما لأمريكا.. ولم تجد طريقها المستقل حتى الآن!

ويرى الباحث في كتاب (السياسة بين الأمم) للعالم والسياسي الالماني الأصل، الامريكي الجنسية (هانز. جي مورجنتاو) أفضل من كتب عن التوازن الدولي وذلك في ضوء تحليل للحربين العالميتين الاولى والثانية و "اللتين أرجعهما الى توازن القوى الذي سبقهما نظرا لأفتقار هذه التوازنات الى اليقين والواقعية والكفاية المذهبية، فلو توفر لهذه التوازنات العناصر المشار إليها لما إندلعت الحروب".

وهو ما ذهبنا إليه من قبل الى أن توازن القوى / مرحلي، مصلحي.. يمكن أن ينحل ويذوب عند غياب المصالح أو إنتهاء مرحلتها..

إلا أننا في هذه الرؤية لا نتفق مع ما ذهب إليه (زبغينيو برجنسكي) في كتابه: (أوهام توازن القوى) والذي يدعو فيه الى: "الهيمنة طريقا للأستقرار" ذلك أن الهيمنة ـ كما أسلفنا ـ وليدة القوة والقمع وهما موقفان مرفوضان من قبل كل الشعوب التي تبحث عن طريقها الحر المستقل..

وقد عمدت السياسة الأمريكية على دفع السوفييست الى ملاحقتها في تطوير الاسلحة، الأمر الذي شغل السوفييت بانتاج السلاح، وانهيار اقتصاديات البلاد، وبالتالي تفكك الجمهوريات السوفييتية وانهيارها، فضلا عن أحادية الايديولوجيا التي حكم على وفقها السوفييت..

من هنا نجد أن سياسة الهيمنة والقوة، ليست سبيلا للأستقرار، وإن تم لأمد زمني.. إلا أنه محدود.. ومن شأن الجمرة أن تشتعل في أية لحظة، وإن كان الرماد قد علا سطحها..

ويؤكد د. ابو خزام: "إن خطيئة نابليون جاءت من محاولته فرض أفكار الثورة بالقوة، وعوضا عن غزو العقول، فقد إختار غزو الشعوب والأوطان ليحطم مباديء الثورة بسنابك خيله نفسها.."

ونحن لا نعد التأثير واقناع العقل على وفق المعرفة والوعي والمنطق على أنه (غزو) أو حتى (غسل الدماغ) بل هو إرادة الفكر.. وهي إرادة تفرض وجودها سلميا.

وإذا كان قد ظهر الى الوجود، مبدأ يهدف الى منع إنتشار الأسلحة النووية ليدل في مظهره على هدف اخلاقي.. "إلا أنه غير ذلك في مضمونه، فهو مبدأ يهدف الى احتفاظ الدول الاقطاب بتفوقها ومنع الآخرين من مزايا الحصول على هذا السلاح" ومثل هذا المبدأ قائم على القوة، ولكنها قوة خفية، خداعة.. تريد بسط نفوذ دولة أو بضع دول محدودة متفوقة في سلاحها، وليس من حق دول أخرى السير بموازاتها..

من هنا ظلت امريكا تضع كوبا في محول الدول الخارجة عن إرادتها وبالتالي محاصرتها إقتصاديا، وكانت دعوتها للديمقراطية زانفة عندما وقفت ضد حكومة الزعيم التشيلي المنتخب سلفادور اللندي، وعمدت الى إسقاطه عام ١٩٧٤ "بدعم وتمويل الجنرال بينوشت وهو دكتاتور فاشي، لأن ذلك يلائم مصلحتها.. وبررت إطاحتها باللندي بالقول ان الأنتخابات انتجت حكومة ليست مسؤولة" دون أن تحدد طبيعة هذه المسؤولية وما علاقتها بهذه المسؤولية أصلا!

ويكشف المؤلف عن طبيعة سياسة المكافأة والأغراء التي تتخذ من فكرة (مارشال) مشروع عمل للولايات المتحدة الامريكية.. وتقديمها (المساعدات) للدول التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منهارة اقتصاديا.. وعمدت الى: "إبتكار مؤسسات وآليات جديدة لجعل هذه السياسة غير مكلفة لها ولا يقع عبء

تنفيذها على إقتصادها الوطني، فقد إستحدثت المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي، وجعلتهما أداتين دوليتين مغالتين لتنفيذ هذه السياسة، محققة بذلك مزايا مالية وسياسية مهمة، فضلا عن عدم تحمل الأعباء، فأنها بذلك لا تظهر بصورة مباشرة كدولة ساعية للحماية وبسط النفوذ، وهي بذلك ترفع الحرج عن الكثير من النظم إزاء شعوبها"

ومثل هذه الحقيقة في السياسة الأمريكية، كان لابد من توضيحها وجعلها أمام بصيرة من يجهلونها بوصفها سياسة هيمنة واحتواء.

وهكذا تنجز استراتيجية ما يسمى (حافظ الميزان) إعتمادا على قول رئيس وزاء بريطانيا الراحل (ونستون تشرشل): "إنه ليس لبريطانيا اصدقاء دائمون ولا اعداء دائمون، ولكن لها مصالح دائمة"

وقد اتخذت امريكا وغيرها من الدول الأستعمارية هذه السياسة في تعاملها مع دول العالم..

و.. يخلص د. ابراهيم ابو خزام الى أن: "الصدام الحضاري بين الغرب والآخرين محتوم، وهو الصدام الذي سيخيم على القرن الواحد والعشرين.. ومبعث هذا الصراع هو الشعور بالتفوق الساحق من قبل الغرب وعدم إستسلام الآخرين لما يعتقدون أنه حضارة فاسدة.."

وهذا الرأي يقود د. ابو خزام الى أن (صمويل هانتنغتون) قد: "كشف المستور في الوجدان الغربي" عبر كتابه (صدام / صراع الحضارات).

والواقع أن ما ذكره هانتنغتون ما هو إلا حقيقة مكشوفة الى اكتساب الغرب من حضارات الشعوب في كل مراحل التاريخ، ثم الدخول معها في صراع يتعلق بالمصالح والأخلال بموازين القوى الدولية لصالح قوة دولية أحادية الجانب..

من هنا كان: "الاستقرار والسلام الغربي يدفع ثمنه الآخرون دائما، فسلام المائة عام الذي نعمت به اوربا وازدهرت، كان قرن الشقاء في العالم الثالث.." ذلك أن: "حضارة الغرب ليست معنية إلا بشعوبها. ومخطط قادتها هو تصدير التوترات نحو الأطراف خارج العالم الغربي..".

إن كتاب (الحروب وتوازن القوى) للدكتور ابراهيم ابو خزام. كتاب عميق، مثير للجدل، ينبه الى عقيلة علمية تدرس الفكر السياسي على وفق رؤية موضوعية جديرة بالأنتباه والاحترام وإقامة الحوار المتأني معها وصولا الى عقول عربية نيرة.

الهوامش:

١. معجم الحروب /د. فردريك معتوق ـ منشورات: جـروس بـرس/ بـيروت ط١/٩٦/ ص٨

٢.الموسوعة السياسية / اشراف: د. عبد الوهـاب الكيـالى وكـامل زهـري ـ منشورات : المؤسسة العربية ـ بيروت ط١/٧٤/ص١٦٧

٣.الحروب وتوازن القوى/ د. ابراهيم ابو خزام ـ منشورات: الاهليـة للنشـر/ عمان ط١/٩٩

٤. حروب أصحاب/ راديارد كيبلينغ/ ترجمة: توفيق الأسـدي/ منشـورات: دار المدى/ دمشق ط١/٢٠٠١

المحتــوى

ـ عولمة الأرهاب!..	٥
ـ تودودف: فتح أمريكا.. مساءلة الآخر..................	٧
ـ نحن والآخرون.. من نحن؟ ومن هم الآخرون؟............	١٣
ـ العرب وتحديات النظام العالمي الجديد.................	٢١
ـ العرب والعولمة: صهر الشعوب إختيارا!................	٣٩
ـ العولمة والتربية: سلوك الأقوياء في الغابة!..........	٦١
ـ في العولمة والمعلوماتية: العولمة قناع جديد للأستعمار...........	٧١
ـ ثورة الانفوميديا: الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك؟......	٨٢
ـ الفكر في عصر التقنية: الهوية الأحادية للكون!...........	٨٦
- ثقافة الارهاب عند غاليانو.................................	٩٢
ـ المعانقات والكلمات عند غاليانو...........................	٩٦
ـ المحاكمة والأرهاب: عقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر...	١٠٥
ـ البترول والأخلاق: الخسائر التي تسببها الثروات..............	١١٣
ـ لا أحد يشرب: مشاريع المياه في استراتيجية (اسرائيل)...........	١٢٠
ـ سادة الفقر: كيف يتم نهب الشعوب.. بأسم المعونات الأنسانية؟....	١٢٤
ـ صنع تركيا الحديثة: صنع عسكري وامتياز الجنرالات!............	١٣٢
ـ العوامل والآثار الاجتماعية لتلوث البيئة.......................	١٤٠
ـ وعي القيم في كتابات الصادق النيهوم	١٤٩
ـ سوسيولوجيا الشر عند جان جينيه..........................	١٦٢
ـ قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي..	١٧٣

ـ فوكوياما: نهاية التاريخ والأنسان الأخير........................ ١٨٠
ـ هانتنغتون: هل نحن في عصر صراع الحضارات؟........................ ١٨٧
ـ غارودي: مواجهة القرن الحادي والعشرين........................ ١٩٦
ـ المسألة الحضارية: كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير........................ ٢٠٦
ـ المعلوماتية بعد الانترنيت: طريق المستقبل........................ ٢١٢
ـ الثقافة العربية وعصر المعلومات........................ ٢١٦
ـ محمد عابد الجابري: قضايا الفكر المعاصر........................ ٢٢٤
- الجابري بين طروحات لالاند وجان بياجيه........................ ٢٣١
ـ النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس........................ ٢٣٩
ـ ادوارد سعيد: تغطية الأسلام........................ ٢٤٦
ـ نهاية الداعية: الممكن والممتنع في ادوار المثقفين........................ ٢٥٠
ـ فكرة والأضمحلال في التاريخ الغربي........................ ٢٥٥
ـ الجذور والتوراتية للعنصرية الصهيونية........................ ٢٦٦
ـ الحروب وتوازن القوى........................ ٢٧٥

صدر للمؤلف

- مجاميع قصصية:

١ــ الغضب / الموصل ٦٧

٢ــ القيد حول عنق الزهرة / بغداد ٧٤

٣ــ ضمير الماء / بيروت ٧٢

٤ــ الحطب / بغداد ــ بيروت ٧٤

٥ــ النهار يدق الأبواب / قصص ومسرحيات / بغداد ٧٧

٦ــ هي.. امرأة عراقية/ بيروت ٨٢

٧ــ الأشواق/ بغداد ٨٦

٨ــ كتمان / ٨٩

٩ــ أنفاس/ بغداد ٩٣

١ــ كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب/ دمشق ٩٩

١١ــ حدائق عارية / دمشق ٢٠٠١

١٢ــ إغتيال الحنين / رواية / بغداد ٢٠٠١

١٣ــ هواجس / بغداد ٢٠٠٢

١٤- اجنحة حجرية/ بغداد / ٢٠٠١

- قصص الأطفال:

١ــ دفاع عن الفرح / بغداد ٧٧

٢ــ الفراشات / بغداد ٩٧

- دراسات:

١ــ مقدمة في مسرح الأطفال/ بغداد ٨٥

٢ــ فنارات في القصة والرواية / بغداد ٩٣

٣ــ المسرح العراقي قضايا ومواقف/ بغداد ٢٠٠٢

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

ثقافة الارهاب والعولمة

حسب الله يحيى

تصميم الغلاف للفنان : ا.

السعر : ٥٠٠